شرح حزب البر

المعروف بالحزب الكبير

للإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه

المتوفى ٦٥٦ هـ سنة

تأليف

الشيخ العلامة عبد الرحمن بن محمد الفاسي



ويليه

رسالة في قوله تعالى:

﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾

وهي فاتحة الحزب الكبير

تأليف

تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم

ابن عطاء الله السكندري المتوفى ٧٠٩ هـ سنة

ويليه

تنوير الصدر

شرح حزب البر

تأليف

العارف بالله تعالى الشيخ عمر الشبراوي

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

شرح
حزب البر
المعروف بالحزب الكبير
للإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه
المتوفى ٦٥٦ هـ

تأليف
الشيخ العلامة عبد الرحمن بن محمد الفاسي

ويليه
رسالة في قوله تعالى:
﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾
وهي فاتحة الحزب الكبير
تأليف
تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم
ابن عطاء الله السكندري المتوفى ٧٠٩ هـ

ويليه
تنوير الصدر
شرح حزب البر
تأليف
العارف بالله تعالى الشيخ عمر التبرادي

اعتنى بها
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ١٣/١٢/١١/٨٠٤٨١٠ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4574-6

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الظاهر بتجليات أسمائه وصفاته في مرائي مخلوقاته والباطن بذاته عن أن تدركه البصائر فضلاً عن الأبصار والصلاة والسلام على سيدنا محمد برزخ الوجوب والإمكان المتحقق بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] ، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]. الرحمة المهداة إلى الأعيان الثابتة الخلقية وحقائقها الأسمائية الحقية الربية في عوالم الملك والملكوت والجبروت النفسية والقلبية والروحية بما بعث به من حقائق الإسلام والإيمان والإحسان.

وعلى آله الطيبين الطاهرين من دنس رؤية سراب الأغيار، المتحققين بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧] وبقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] وعلى أصحابه المقربين المتزينين بأنوار مقامات حبيبهم المختار، المتجلية بالأنفس والآفاق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وبعد فإنه انطلاقاً من أهمية الأوراد في طريق التصوف الإسلامي في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله تحققاً بمقام الإحسان مقام أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

نقدّم للقراء الكرام شرحين من شروح حزب البر المعروف بالحزب الكبير للإمام الرباني المرشد الكامل سيدي أبي الحسن الشاذلي الأول للعارف بالله الشيخ عبد الرحمٰن بن محمد الفاسي والثاني للعارف بالله الشيخ عمر الشيراوي.

وزيادة في النفع رأينا أن نفصل بين الشرحين برسالة للشيخ ابن عطاء الله السكندري شرح بها الآية الكريمة التي استهل بها الإمام أبو الحسن الشاذلي

رضي الله عنه حزبه المبارك موضوع الشرح وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال الشيخ ابن عطاء الله السكندري مبيناً أهمية الورد في حياة المسلم الحسية والمعنوية المادية والروحية الدنيوية والأخروية: «لا يستحقر الورد إلا جهول. والوارد يوجد في الدار الآخرة، والورد ينطوي بانطواء هذه الدار وأولى ما يعتنى به ما لا يخلف وجوده». وقال: «من لا ورد له لا وارد له».

والأوراد هي عبار عن مجموعة من لأذكار والأدعية يتلوها السالك يومياً تقرباً إلى الله تعالى وامتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العَنكبوت: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢] وقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٢]. وتحققاً بقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨] وبقوله ﷺ: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عزّ وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده». وقوله ﷺ: «**يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، وإن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**». وقوله ﷺ: «**الدعاء مخ العبادة**».

يقول الشيخ العارف بالله ابن عباد الشافعي صاحب كتاب «المفاخر العلية في مآثر الشاذلية» مبيناً فضل وبركة أحزاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى: «واعلم أن أحزاب الشيخ رضي الله عنه جامعة بين إفادة العلم وآداب التوحيد، وتعريف الطريقة، وتلويح الحقيقة، وذكر جلال الله تعالى وعظمته وكبريائه، وذكر حقارة النفس وخستها والتنبيه على خداعها وغوايتها، والإشارة لوصف الدنيا والخلق، وطريق الفرار من ذلك ووجه حصوله، والتذكر بالذنوب والعيوب، والتنصل منها مع الدلالة على خاص التوحيد وخالصه، واتباع الشرع ومطالبه، فهي تعليم في قالب التوجه، وتوجه في قالب التعليم، من نظرها من حيث العلم وجده كامناً فيها، ومن نظرها من حيث العمل فهي عينه، ومن نظرها من حيث الحال وجده كامناً فيها، وقد شهد شاهدها بذلك عند الخاص والعام، فلا يسمع أحد من كلامها شيئاً إلا وجد له أثراً في نفسه، ولا يقرؤها إلا كان مثل ذلك، ما لم يكن مشغولاً ببلوى أو مشغوفاً بدنيا، أو مصروفاً بدعوى، أعاذنا الله تعالى من البلاء».

وفي فضل حزب البر المعروف بالحزب الكبير يقول مؤلفه شيخ الطريقة الشاذلية: «والله ما وضعت فيه حرفاً إلا بإذن من ربي وأمر من رسول الله ﷺ.. من قرأ حزبنا فله ما لنا وعليه ما علينا.. له سر عظيم في كل شيء لا يعلمه إلا الله تعالى».

ومما لا شك فيه أن كتب التصوف الإسلامي تساعد المريد على الاطلاع على الأحوال والمقامات، التي يمرّ بها السالك إلى الله تعالى، كما يطلع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض. لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث؛ الإسلام والإيمان والإحسان؛ الشريعة والطريقة والحقيقة؛ الملك والملكوت والجبروت، مصداقاً لقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»، وقوله ﷺ: «إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم».

ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبدنا الله به على لسان نبيّه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩] لننال السعادة الحقيقية المتمثلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

كتبه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيّالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة الشيخ أبي الحسن الشاذلي

(٥٩١ ـ ٦٥٦ هـ)

هو الشيخ علي الشاذلي الحسني بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن علي بن أحمد بن محمد بن عيسى بن إدريس المُبايع له ببلاد المغرب ابن عبد الله بن الحسن المثنى ابن سيد شباب أهل الجنة وسبط خير البرية أبي محمد الحسن ابن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

قال عنه الشيخ أبو علي الحسن الكوهن الفاسي المغربي في كتابه «طبقات الشاذلية الكبرى» في ترجمته له: «شيخ الطريقة الشاذلية، وأصلُ مددها، وعنصر مشربها، وقطب دائرتها الذي تدور عليه، وهو السيد الأجَلُّ الكبير سيدنا وسَنَدُنا ومولانا القطب الرباني العارف الوارث المحقق بالعلم الصَّمداني، صاحبُ الإشارات العلية، والحقائق القدسية، والأنوار المحمدية، والأسرار الربانية، والمنازلات العرشية، الحامل في زمانه لواء العارفين، والمُقيمُ فيه دولة علومِ المحققين، كهفُ الواصلين، وجلاءُ قلوب الغافلين، منشىء معالم الطريقة ومَظهر أسرارها، ومبدىء علوم الحقيقة بعد خفاء أنوارها، ومظهرُ عوارف المعارف بعد خفائها واستتارها، الدَّالُّ على الله وعلى سبيلِ جنته، والدَّاعي على علمٍ وبصيرةٍ إلى جنابه وحضرته، أوحدُ أهل زمانه علماً وحالاً، ومعرفةً ومقالاً، الحسَيبُ ذو النِّسبتين الطاهرتين الروحية والجسمية، والسلالتين الطيبتين الغيبية والشاهدية، والوراثتين الكريمتين الملكية والملكوتية، المحمدي العلوي الحسني الفاطمي، الصحيح النسبتين، الكريم العنصرين، فحلُ الفحول إمام السالكين، ومعراج الوارثين، الأستاذُ الواصل والمربّي الكامل.

وترجم له الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه «الطبقات» قائلاً: «ومنهم الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه، هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي

ـ بالشين والذال المعجمتين، وشاذلة قريةٌ من إفريقية ـ الضرير، الزاهد، نزيلُ إسكندرية، وشيخ الطائفة الشاذلية، وكان كبيرَ المقدار، عالي المنار، له عبارات فيها رموز. صحب الشيخ نجم الدين الأصفهاني، وابن مشيش وغيرهما.

وترجم له الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في كتابه «لطائف المنن» بقوله: «قطبُ الزمان، والحاملُ في وقته لواءَ أهل العيان، حجّةُ الصوفية، علمُ المهتدين، زين العارفين، أستاذُ الأكابر، زمزم الأسرار، ومعدنُ الأنوار، القطب الغوث الجامع أبو الحسن علي الشاذلي رضي الله عنه، لم يدخل طريق القوم حتى كان يعدُّ للمناظرة في العلوم الظاهرة، وشهدَ له الشيخ أبو عبد الله بن النعمان بالقطبانية.

جاء رضي الله عنه في هذه الطريقة بالعجبِ العُجاب، وكان الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد رضي الله عنه يقول: ما رأيتُ أعرفَ بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه.

أخذ عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي نخبة من العلماء منهم: الشيخ ابن الحاجب، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، وعبد العظيم المنذري، وابن الصلاح، وابن عصفور، فكانوا يحضرون مجالسه بالمدرسة الكاملية في القاهرة، ويقرؤون عليه وكانوا يمشون بين يديه إذا خرج.

نشأ الشاذلي رضي الله عنه بالمغرب ببني زرويل من الأخماس قرب شفشاون ومبدأ ظهوره بشاذلة قرية من قرى إفريقية قرب تونس، سكنها مدّة وإليها نُسب، ونزل الإسكندرية، وحجَّ مراراً، ومات بصحراء عَيْذاب قاصداً الحج، فدفن هناك بحميثرا من الصحراء لمذكورة. وذلك في ذي القعدة سنة ست وخمسين وست مئة، وكانت ولادته على الصحيح ببلاد غمارة سنة إحدى وسبعين وخمس مئة على ما ذكره بعضهم، وقيل: بل إنّما كانت بعد التسعين وخمس مئة.

وأشهر الطُّرقِ بالمشرق والمغرب طريقتُهُ، وله طريقتان: طريقةُ تبرُكٍ أخذها عن الشيخ الولي سيدي محمد بن حِرازم ابن الأستاذ أبي الحسن علي بن حِرازم. وطريقةُ إرادةٍ وهي التي أخذها عن الأستاذ القطب أبي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، واشتملت طريقتُه على السُلوك، والجذب، والمُجاهدة، والعناية، والأدب، والقرب، والرعاية، وتشيدت بالعلمين الظاهرِ والباطن من سائر أطرافها، وقرنت بصفات الكمال شريعةً وحقيقةً من جميع أكنافها.

مميزات وخصائص الطريقة الشاذلية

قال الشيخ أبو علي الكوهن الفاسي في كتابه «طبقات الشاذلية الكبرى» وقد وقفت على تأليف عجيب للأستاذ الإمام الجهبذ الهمام العارف الرباني والولي الصمداني القدوة الأمجد، المربي الأوحد المرحوم بكرم الله أبي عبد الله سيدي محمد بن محمد بن مسعود بن عبد الرحمٰن بن عقبة المدغري الحاجي قبيلةً الفاسي الشاذلي طريقةً، المدني خرقةً وإرادةً، رضي الله عنه ونفعنا به، ذكر فيه خمسةً وعشرين وجهاً من الوجوه التي فضلت بها الطريقُ الشاذلية غيرها من الطُرق، ولنتمِّمَ الفائدة بذكرها هنا تقويةً وتنشيطاً لقلوب السالكين، وترقيةً لهممِ الإخوان الصادقين.

غيرَ أنّي أذكر مختصرَها برمَّته نصاً، ومطوَّلَها مختصراً أو بالمعنى تقريباً وتسهيلاً وتبشيراً، وأُشير إلى ما اندمجَ فيه ـ أعني المطوَّلَ من المباحث الرفيعة ـ تنبيهاً لمن أرادَ مُراجعتها فيه، وعلى الله الكمال، وإليه المرجعُ في الحال والمآل.

فنقول مستعيناً بالله الكريم المِفضال، وعطفهِ سيد الأرسال صلى الله عليه وآله وسلم عددَ ما وسعه علمُ الله الكبير المُتعال:

الوجه الأول: أنهم مُختارون من اللَّوح المحفوظ.

الثاني: أنَّ مجذوبَهم يرجع إلى الصحو.

الثالث: أنَّ القطب لا يكون إلاَّ منهم.

الرابع: أنّهم مأمونون من السَّلب.

الخامس: أنَّ المُريد إذا أتاهم يلقّنونه الاسمَ الأعظم؛ لأنه للتعلق، وهو اسمُ الذات، ولذلك يقال لهم الذاتيون، وهذا الاسمُ مخصوصٌ بهم، وإذا ما أُطلق عند القوم فالمُرادُ بهم أهل الطريقة الشاذلية.

السادس: أنَّ شيخَ التربية لا ينقطع من طريقهم إلى يوم القيامة.

السابع: لأنَّ الولي لا تكملُ ولايته إلا إذا ختَمَ بالطريق الشاذلية.

الثامن: أنَّ بواطنهم منطويةٌ على ما كانت منطوية عليه بواطن الصحابة رضي الله عنهم من التوحيد الخالص الذي هو توحيدُ الأنبياء والرُّسل عليهم السلام.

التاسع: أنَّ المبتدىء إذا دخلَ طريقهم بصدقِ طويةٍ، وحسنِ سريرةٍ، يجتمع من أول وهلة بالنبي ﷺ يقظةً، وتدوم معه إلى أن يحصل له الوصول، ويتمكّن فيه، فحينئذٍ لا يُفارقُه النبي ﷺ أبداً، ثم ساق مقالةَ الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه وهي: والله لو غابَ عنّي رسول الله ﷺ طرفةَ عين، ما عددتُ نفسي من المسلمين.

وذكر أنَّ سيدي أبا العباس المُرسي، وسيدي أحمد بن عطاء الله، وسيدي علي وفا، ووالده سيدي محمداً بحر الصفا، وسيدي داود الباخلي، وسيدي أحمد زرّوق، وأستاذ شيوخنا سيدنا ومولانا العربي الدرقوي، وتلميذه الأستاذ سيدي محمد بن حمزة ظافراً المدني قدّس الله أرواحهم الطاهرة، وأسرارَهم العزيزة، كلُّهم قالوا مثل مقالة الإمام الشاذلي رضي الله عنه، وعنهم.

قال: وهذا خاصٌ بأهل الطريقة الشاذلية، وإن كان غيرُهم من أهل الطُّرق لهم الاجتماع به ﷺ، لكن لم ينخرقِ الحجاب بينهم وبينه مثلَ ما انخرقَ لأهل الطريقة الشاذلية رضي الله عنهم، وثبتنا على منهجهم القويم.

العاشر: شهادةُ من عاصر الإمام الشاذلي رضي الله عنه من سلاطين العلماء، وسادات العصر الأعيان الفضلاء، كالأستاذ عزِّ الدين بن عبد السلام، والإمام القسطلاني، وابن دقيق العيد، والمُنذري، وشمس الدين الأصفهاني، وتقيِّ الدين السُّبكي، وابن سراقة، وابن عُصفور بولايته وخصوصيته وظهوره بالحقِّ المُبين، وكلُّهم أخذوا عنه العهودَ والأوراد، وكانوا يحضرون معه في مجالسه الذِّكر والسماع، ويتبرَّكون بدروسه التفسيرية والحديثية في المدرسة الكاملية بمحروسة مصر.

وذَكرَ أنَّ جماعةً من أولياء وقته، وعلماء زمانه أيضاً، وكذا من أتى بعدهم من أهلِ المشرق والمغرب مدحوا طريقَه المباركة نظماً ونثراً، وسردَ جملةً منهم، وذكر بعض ما لهم في ذلك رضي الله عنهم.

الحادي عشر: أنَّ أهل الديوان رضي الله عنهم وجعلنا منهم كلُّهم شاذلية، ولا يدخل أحدٌ من أهل الدائرة والعدد للديوان إلا إذا تشذَّلَ، وإن بلغَ الولاية في طريق غيرها. فإذا دخل الدِّيوان أخذَ الطريقة الشاذلية عن الغوث، لأنَّها أمانٌ للولي من السلب وسوءِ الخاتمة، والعياذ بالله.

الثاني عشر: أنَّ المريد إذا دخلَ الطريقة الشاذلية صادقاً مخلصاً قاطعاً للعوائق والعلائق، حصل له الفتحُ في أقربِ وقتٍ وأسرعِ مدة، لأنها طريقة الاجتباء. قال الله تعالى: ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] وإن كانت بدايتها إنابة، ونهايتها اجتباء.

الثالث عشر: أنَّ الطريق الشاذلية طريقةُ التربية بالهمَّة والحال والمقال، ثم ساقَ ما يشهدُ لهذا الموضوع من كلام الله تعالى، وكلامِ أهل التواضع والفتحِ والخشوع.

الرابع عشر: أنهم جامعون بين الشريعة والحقيقة، ظواهرهم معمورةٌ بالمتابعة في الماضي والآت، وبواطنُهم مستنيرةٌ بمشاهدة أنوار الذات، وأنهم لا يحجبون بجمع ولا فرقٍ، يعطون كل ذي حقٍّ حقَّه، ويوفون كلَّ ذي قسطٍ قسطه، وهذه حالة كُمَّلِ العارفين رضي الله عنهم، وجعلنا منهم آمين.

الخامس عشر: أنَّ علومهم مؤيَّدة بالكتاب والسنة.

السادس عشر: أنَّ إمامها الأكبر سيدي أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه كان هيكلاً ذاتياً، ولطيفة ربانية، وأنه وكذا جميع من اتَّصل بسند طريقه إلى قيام الساعة، كلُّهم ذاتيون، وأنه لا تطلق هذه النسبة على غيرهم من أرباب الأحوال المجاذيب وأهل الشطحات، ولو ظهرتْ منهم الخوارقُ بكثرةٍ، فإنهم من عامَّة الأولياء الصفاتيين، لا من خواصِّهم الذاتيين، وبين معنى الذاتيين والصفاتيين بما يسرُّ البال، فراجعه تحظَ بكلِّ نوال، وتَطربْ في الحال والمآل.

السابع عشر: أنَّ الإمام المهدي الذي يكون آخرَ الزمان رتبتُه في الولاية كرتبةِ سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما. لأنه خليفةُ الله، وهيكلُ ذاته لطيفةٌ إلهية، وذاتٌ صمدية. ثم علل ذلك رضي الله عنه بما يُثلج الصدر.

الثامن عشر: أنه لم يثبت عن أحدٍ من مشايخ الشاذلية انجذابُ أحدٍ من مريديهم حتى غاب عن إحساسه، وفني عن عالم جنسه، حتى هتكَ أسرار الحقيقة، وتفوَّهَ بما نهت عن إظهاره الشريعة، إذ لا يصدرُ هذا إلا من ضعفِ المُشاهدة، إمَّا من الأستاذِ حيث زقَّه بما لا يطيقه، لعدم تمكنه، وإمَّا لضعف استعداد التلميذ، وفتورِ مجاهدته، أو وقوفه مع شهوته، وبسط الكلام في هذا الموضوع بما يُسرُّ أهلَ الخشوع.

التاسع عشر: أنه لا تُطلق سلسلة الذهب عند أهل الله إلا على أهل الطريقة الشاذلية؛ لأنها مسلسلةٌ بالأقطاب، ومُعنعنةٌ بهم.

العشرون: أنهم لا يخفون أنفسَهم ولا ولايتهم، ثم علّل ذلك رضي الله عنه بما يسرُّ البالَ بحول الله الكبير المتعال.

الحادي والعشرون: أن الطريقة الشاذلية طريقةُ الغنى بالله والفقر إلى الله ورفض ما سواه، ثم بسط الكلامَ على هذا الموضوع وبيّن أسرارَ تخلّيهم رضي الله عنهم عن الدنيا القاطعة عن الله، وذكر سندَهم في لبس الخرقة والمرقعة، وبعضَ الأكابر من السلف والخلف الذين لبسوها، وسرد جماعةً من تلاميذ الشيخ الأكبر مولانا العربي الدرقاوي الذين كانوا يُلبسونها ويَلبسونها رضي الله عنهم، وأكرمنا بما به أكرمهم بمنّه آمين.

وذكر أن كثرتهم ـ نفعنا الله بهم ـ بلغت حداً لا يدخلُ تحت حصرٍ، وجلُّهم علماءُ فضلاء. ثم ذكر سببَ كثرتهم وانتشارهم في الوجود شرقاً وغرباً، بدواً وحضراً، وبيّنَ بعضَ أحوالهم في التوكُّل على الله، وما أنتجه لهم من كمال الراحة الحسّية والمعنوية، ومقصود الأكابر المشايخ باجتماع المريدين عليهم بياناً يقضي بكمال الفتح، والتيسير في الحس والمعنى، في المقام والمسير.

الثاني والعشرون: أنّ القطب الكامل مولانا عبد السلام بن مَشيش رضي الله عنه ضمنَ له النبي ﷺ أنّ طريقَه لا ينقطع منها شيخُ التربية إلى يوم القيامة، ثم استدلَّ على ذلك بدلائلَ قطعية، لا مُتكلّمَ فيها عند أهل النهى.

وبيَّن بعضَ أحوال أهل هذه الطريقة المباركة في كمالِ التراحم والتناصح في الله، وما هم عليه من كمال الغضّ والصفح، والاعتناء بإصلاح بواطنهم التي هي بيتُ القصيد بإجماع أهل الرأي السديد.

الثالث والعشرون: أنهم يعاملون أعداءهم بما يعاملون به أحبابهم من مكارم الأخلاق، والسرُّ في ذلك.

الرابع والعشرون: انتشارُ رجالِ هذه الطريقة في الأرض انتشارَ الشمس في الطول والعرض، وانتفاعُ الوجودِ بأذكارهم ومذاكراتهم، والتوسُّلِ بإمامها إلى الله تعالى في قضاء الحوائج والمُهمات في الماضي والآت، وأنَّ أهل المحشر يزدحمون يومَ القيامة على الطريقة الشاذلية، جعلنا الله منهم.

الخامس والعشرون: الجوابُ عن كون أهل هذه الطريقة المباركة المحمدية مختارين من اللوح المحفوظ، وهل ذلك كان في عالم الأشباحِ أو في عالم الأرواح؟ ولماذا لا يكون القطب إلا منهم دائماً؟ وبسط الكلام رضي الله عنه في أسرارِ هذا

الموضوع، وبيّن أنّ الأستاذ الحيّ لا بدّ لكلّ أحدٍ منه، وإن بلغ ما بلغ، وأنه لا يصحُ الاكتفاء بالأموات في طلب الوصول، لأن الولادة المعنوية كالولادة الحسية. وذكر ما يؤيِّدُ ذلك نقلاً وعقلاً، وسنده في الطريق، وذكر أيضاً أنّ الأستاذ الأكبر مولانا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه سمع هاتفاً يُنوّه بالأستاذ مولانا عبد السلام بن مَشيش يومَ ولادته، وأنّه مشى إليه من طريق الطي يومها، ومسح عليه، ودعا له رضي الله عنه، وأن سيدَنا ومولانا عبدَ السلام ابن مَشيش أستاذُ الأقطاب الثلاثة: سيدي أبي الحسن الشاذلي، وسيدي إبراهيم الدسوقي، وسيدي أحمد البدوي رضي الله عنهم، وذكر أيضاً السرَّ في اختصاص هذه الطائفة بالقطبانية الكبرى دون غيرها من الطرق.

ثم ختم رضي الله عنه بأسرارٍ عجيبة، وفوائدَ غريبةٍ، فعليكم بما بسطه فيها يا أهل الفتح تظفروا بكل خيرٍ وربح، جزاه الله خيراً، وكافاه بما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ بمنّه وكرمه آمين.

متن حزب البر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠١ ـ ١٠٣].

﴿الٓر﴾ [الحجر: ١] ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ [مريم: ١] ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾ [الشورى: ١، ٢].

﴿رَٰبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ١ ـ ٨].

اَللّٰهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي بِالْجَهَالَةِ مَعْرُوفٌ وَأَنْتَ بِالْعِلْمِ مَوْصُوفٌ وَقَدْ وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ جِهَالَتِي بِعِلْمِكَ فَسَعْ ذَلِكَ بِرَحْمَتِكَ كَمَا وَسِعْتَهُ بِعِلْمِكَ وَاغْفِرْ لِي إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير.

يَا اَللّٰهُ يَا مَالِكُ يَا وَهَّابُ هَبْ لَنَا مِنْ نُعْمَاكَ مَا عَلِمْتَ لَنَا فِيهِ رِضَاكَ وَاكْسُنَا كِسْوَةً تَقِينَا بِهَا مِنَ الْفِتَنِ فِي جَمِيعِ عَطَايَاكَ وَقَدِّسْنَا عَنْ كُلِّ وَصْفٍ يُوجِبُ نَقْصاً مِمَّا اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ.

يَا أَللَّهُ يَا عَظِيمُ يَا عَلِيُّ يَا كَبِيرِ نَسْأَلُكَ ٱلْفَقْرَ مِمَّا سِوَاكَ وَالْغِنَى بِكَ حَتَّى لاَ نَشْهَدَ إلاَّ إِيَّاكَ والطُفْ بِنَا فِيهِمَا لُطفاً عَلِمْتَهُ يَصْلُحُ لِمَنْ وَالاَكَ وَاكْسُنَا جَلاَبِيبَ العِصْمَةِ فِي الأَنْفَاسِ وَاللَّحظَاتِ وَاجْعَلْنَا عَبِيداً لَكَ فِي جَمِيعِ ٱلْحَالاَتِ وَعَلِّمْنَا مِن لَدُنْكَ عِلْماً نَصِيرُ بِهِ كَامِلِينَ فِي الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ.

اللَّهُمَّ أَنْتَ الْحَمِيدُ الرَّبُّ ٱلْمَجِيدُ ٱلفَعَّالُ لِمَا تُرِيدُ، تَعْلَمُ فَرَحَنَا بِماذَا وَلِمَاذَا وَعَلَى مَاذَا وَتَعْلَمُ حُزْنَنَا كَذَلِكَ وَقَدْ أَوْجَبْتَ كَوْنَ مَا أَرَدْتَهُ فِينَا وَمِنَّا وَلاَ نَسْأَلُكَ دَفْعَ مَا تُرِيدُ وَلَكِنْ نَسْأَلُكَ ٱلتَّأْيِيدَ بِرُوحٍ مِنْ عِنْدِكَ فِيمَا تُرِيدُ كَمَا أَيَّدْتَ أَنْبِيَاءَكَ وَرُسُلَكَ وَخَاصَّةَ الصِّدِّيقِينَ مِنْ خَلْقِكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

اَللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فَهَنِيئاً لِمَنْ عَرَفَكَ فَرَضِيَ بِقَضَائِكَ، وَالْوَيْلُ لِمَنْ لَمْ يَعْرِفْكَ بَلِ ٱلْوَيْلُ ثُمَّ الوَيْلُ لِمَنْ أَقَرَّ بِوَحْدَانِيَّتِكَ وَلَمْ يَرْضَ بِأَحْكَامِكَ. اللَّهُمَّ إِنَّ القَوْمَ قَد حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِالذُّلِّ حَتَّى عَزُّوا وَحَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِالفَقْدِ حَتَّى وَجَدُوا فَكُلُّ عِزٍّ يَمْنَعُ دُونَكَ فَنَسْأَلُكَ بَدَلَهُ ذُلاًّ تَصْحَبُهُ لَطَائِفُ رَحْمَتِكَ وَكُلُّ وَجْدٍ يَحْجُبُ عَنْكَ فَنَسْأَلُكَ عِوَضَهُ فَقْداً تَصْحَبُهُ أَنْوارُ مَحَبَّتِكَ فَإِنَّهُ قَدْ ظَهَرَتِ السَّعَادَةُ عَلَى مَنْ أَحْبَبْتَهُ وَظَهَرَتِ الشَّقَاوَةُ عَلَى مَنْ غَيْرُكَ مَلَكَهُ فَهَبْ لَنَا مِنْ مَوَاهِبِ السُّعَدَاءِ وَاعْصِمْنَا مِنْ مَوَارِدِ الأَشْقِيَاءِ.

اللَّهُمَّ إِنَّا قَدْ عَجَزْنَا عَنْ دَفْعِ الضُرِّ عَنْ أَنْفُسِنَا مِنْ حَيْثُ نَعْلَمُ بِمَا نَعْلَمُ فَكَيْفَ لاَ نَعْجزُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ لاَ نَعْلَمُ بِمَا لاَ نَعْلَمُ وَقَدْ أَمَرْتَنَا وَنَهَيْتَنَا وَالْمَدْحَ وَٱلذَّمَّ أَلْزَمْتَنَا فَأَخُو الصَّلاَحِ مَنْ أَصْلَحْتَهُ وَأَخُو الفَسَادِ مَنْ أَضْلَلْتَهُ وَالسَّعِيدُ حَقًّا مَنْ أَغْنَيْتَهُ عَنِ ٱلسُّؤَالِ مِنْكَ وَالشَّقِيُّ حَقًّا مَنْ حَرَمْتَهُ مَعَ كَثْرَةِ السُّؤَالِ لَكَ فَأَغْنِنَا بِفَضْلِكَ عَنْ سُؤَالِنَا مِنْكَ وَلاَ تَحْرِمْنَا مِنْ رَحْمَتِكَ مَعَ كَثْرَةِ سُؤَالِنَا لَكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

يَا شَدِيدَ البَطْشِ يَا جَبَّارُ يَا قَهَّارُ يَا حَكِيمُ نَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقْتَ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ ظُلْمَةِ مَا أَبْدَعْتَ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ كَيْدِ النُّفُوسِ فِيمَا قَدَّرْتَ وَأَرَدْتَ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ٱلْحُسَّادِ عَلَى مَا أَنْعَمْتَ وَنَسْأَلُكَ عِزَّ الدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ كَمَا سَأَلَكَهُ نَبِيُّكَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ عِزَّ ٱلدُّنْيَا بِالإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ وَعِزَّ الآخِرَةِ بِاللِّقَاءِ وَالْمُشَاهَدَةِ إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

اَللَّهُمَّ إِنِّي أُقَدِّمُ إِلَيْكَ بَيْنَ يَدَيْ كُلِّ نَفَسٍ وَلَمْحَةٍ وَطَرْفَةٍ يَطْرِفُ بِهَا أَهْلُ السَّمٰوٰاتِ وَأَهْلُ الأَرْضِ وَكُلِّ شَيْءٍ هُوَ فِي عِلْمِكَ كَائِنٌ أَوْ قَدْ كَانَ أُقَدِّمُ إِلَيْكَ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ كُلِّهِ

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البَقَرة: ٢٥٥].

أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِبَسْطِ يَدَيْكَ وَكَرَمِ وَجْهِكَ وَنُورِ عَيْنِكَ وَكَمَالِ أعْيُنِكَ أَنْ تُعْطِيَنَا خَيْرَ مَا نَفَذَتْ بِهِ مَشِيئَتُكَ وَتَعَلَّقَتْ بِهِ قُدْرَتُكَ وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمُكَ وَاكْفِنَا شَرَّ مَا هُوَ ضِدٌّ لِذَلِكَ وَأَكْمِلْ دِينَنَا وَأَتْمِمْ عَلَيْنَا نِعْمَتَكَ وَهَبْ لَنَا حِكْمَةَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ مَعَ الحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ وَالْمَوْتَةِ الْحَسَنَةِ وَتَوَلَّ قَبْضَ أَرْوَاحِنَا بِيَدِكَ وَحُلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ غَيْرِكَ فِي الْبَرْزَخِ وَمَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ بِنُورِ ذَاتِكَ وَعَظِيمِ قُدْرَتِكَ وَجَمِيلِ فَضْلِكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. يَا أَللَّهُ يَا عَلِيُّ يَا عَظِيمُ يَا حَلِيمُ يَا حَكِيمُ يَا كَرِيمُ يَا سَمِيعُ يَا قَرِيبُ يَا مُجِيبُ يَا وَدُودُ حُلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَالنِّسَاءِ وَالغَفْلَةِ وَالشَّهْوَةِ وَظُلْمِ الْعِبَادِ وَسُوءِ الْخُلُقِ وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَاقْضِ عَنَّا تَبِعَاتِنَا وَاكْشِفْ عَنَّا السُّوءَ وَنَجِّنَا مِنَ الْغَمِّ وَاجْعَلْ لَنَا مِنْهُ مَخْرَجاً إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

يَا أَللَّهُ يَا أَللَّهُ يَا أَللَّهُ يَا لَطِيفُ يَا رَزَّاقُ يَا قَوِيُّ يَا عَزِيزُ لَكَ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ تَشَاءُ وَتَقْدِرُ فَابْسُطْ لَنَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تُوصِلُنَا بِهِ إِلَى رَحْمَتِكَ وَمِنْ رَحْمَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ نِقْمَتِكَ وَمِنْ حِلْمِكَ مَا يَسَعُنَا بِهِ عَفْوُكَ وَاخْتِمْ لَنَا بِالسَّعَادَةِ الَّتِي خَتَمْتَ بِهَا لأَوْلِيَائِكَ وَاجْعَلْ خَيْرَ أَيَّامِنَا وَأَسْعَدَهَا يَوْمَ لِقَائِكَ وَزَحْزِحْنَا فِي الدُّنْيَا عَنْ نَارِ الشَّهْوَةِ وَأَدْخِلْنَا بِفَضْلِكَ فِي مَيَادِينِ الرَّحْمَةِ واكْسُنَا مِنْ نُورِكَ جَلاَبِيبَ الْعِصْمَةِ وَاجْعَلْ لَنَا ظَهِيراً مِنْ عُقُولِنَا وَمُهَيْمِناً مِنْ أَرْوَاحِنَا وَمُسَخَّراً مِنْ أَنْفُسِنَا كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً وَهَبْ لَنَا مُشَاهَدَة تَصْحَبُهَا مُكَالَمَةٌ وَافْتَحْ أَسْمَاعَنَا وَأَبْصَارَنَا وَاذْكُرْنَا إِذَا غَفَلْنَا عَنْكَ بِأَحْسَنِ مِمَّا تَذْكُرُنَا بِهِ إِذَا ذَكَرْنَاكَ وَارْحَمْنَا إِذَا عَصَيْنَاكَ بِأَتَمِّ مِمَّا تَرْحَمُنَا بِهِ إِذَا أَطَعْنَاكَ وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا وَمَا تَأَخَّرَ وَالْطُفْ بِنَا لُطْفاً يَحْجُبُنَا عَنْ غَيْرِكَ وَلاَ يَحْجُبُنَا عَنْكَ فَإِنَّكَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

اَللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ لِسَاناً رَطْباً بِذِكْرِكَ وَقَلْباً مُنَعَّماً بِشُكْرِكَ وَبَدَناً هَيِّناً لَيِّناً بِطَاعَتِكَ وَأَعْطِنَا مَعَ ذَلِكَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُكَ ﷺ حَسَبَ مَا عَلِمْتَهُ بِعِلْمِكَ وَاغْنِنَا بِلاَ سَبَبٍ وَاجْعَلْنَا سَبَبَ الغِنَى لأَوْلِيَائِكَ وَبَرْزَخاً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

اَللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ إِيمَاناً دَائِماً وَنَسْأَلُكَ قَلْباً خَاشِعاً وَنَسْأَلُكَ عِلْماً نَافِعاً وَنَسْأَلُكَ يَقِيناً صَادِقاً وَنَسْأَلُكَ دِيناً قَيِّماً وَنَسْأَلُكَ العَافِيَةَ مِنْ كُلِّ بَلِيَّةٍ وَنَسْأَلُكَ تَمَامَ العَافِيَةِ وَنَسْأَلُكَ دَوَامَ العَافِيَةِ وَنَسْأَلُكَ الشُّكْرَ عَلَى ٱلْعَافِيَةِ وَنَسْأَلُكَ ٱلْغِنَى عَنِ ٱلنَّاسِ (ثلاثاً).

اَللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ ٱلتَّوْبَةَ الكَامِلَةَ وَٱلْمَغْفِرَةَ الشَّامِلَةَ وَالمَحَبَّةَ الكَامِلَةَ الجَامِعَةَ وَالخُلَّةَ الصَّافِيَةَ وَالمَعْرِفَةَ الوَاسِعَةَ وَالأَنْوَارَ السَّاطِعَةَ وَالشَّفَاعَةَ القَائِمَةَ وَالحُجَّةَ البَالِغَةَ وَالدَّرَجَةَ العَالِيَةَ وَفُكَّ وَثَاقَنَا مِنَ المَعْصِيَةِ وَرِهَانَنَا مِنَ النِّعْمَةِ بِمَوَاهِبِ ٱلمِنَّةِ.

اَللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ ٱلتَّوْبَةَ وَدَوَامَهَا وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ المَعْصِيَةِ وَأَسْبَابِهَا فَذَكِّرْنَا بِالخَوْفِ مِنْكَ قَبْلَ هُجُوم خَطَرَاتِهَا وَاحْمِلْنَا عَلَى النَّجَاةِ مِنْهَا وَمِنَ التَّفَكُّرِ فِي طَرَائِقِهَا وَامْحُ مِنْ قُلُوبِنَا حَلاَوَةَ مَا اجْتَنَيْنَاهُ مِنْهَا وَاسْتَبْدِلْهَا بِالكَرَاهَةِ لَهَا وَالطَّعْمِ لِمَا هُوَ بِضِدِّهَا وَأَفِضْ عَلَيْنَا مِنْ بَحْرِ كَرَمِكَ وَعَفْوِكَ حَتَّى نَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى السَّلاَمَةِ مِنْ وَبَالِهَا وَاجْعَلْنَا عِنْدَ الْمَوْتِ نَاطِقِينَ بِالشَّهَادَةِ عَالِمِينَ بِهَا وَارْأَفْ بِنَا رَأْفَةَ الحَبِيبِ بِحَبِيبِهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَنُزُولِهَا وَأَرِحْنَا مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَغُمُومِهَا بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا.

اَللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ تَوْبَةً سَابِقَةً مِنْكَ إِلَيْنَا لِتَكُونَ تَوْبَتُنَا تَابِعَةً إِلَيْكَ مِنَّا وَهَبْ لَنَا التَّلَقِّيَ مِنْكَ كَتَلَقِّي آدَمَ مِنْكَ الكَلِمَاتِ لِيَكُونَ قُدْوَةً لِوَلَدِهِ فِي ٱلتَّوْبَةِ وَالأَعْمَالِ ٱلصَّالِحَاتِ وَبَاعِدْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ العِنَادِ وَالإِصْرَارِ وَالشَّبَهِ بِإِبْلِيسَ رَأْسِ الْغُوَاةِ وَاجْعَلْ سَيِّآتِنَا سَيِّآتِ مَنْ أَحْبَبْتَ وَلاَ تَجْعَلْ حَسَنَاتِنَا حَسَنَاتِ مَنْ أَبْغَضْتَ فَالإِحْسَانُ لاَ يَنْفَعُ مَعَ البُغْضِ مِنْكَ وَالإِسَاءَةُ لاَ تَضُرُّ مَعَ الْحُبِّ مِنْكَ وَقَدْ أَبْهَمْتَ الأَمْرَ عَلَيْنَا لِنَرْجُوَ وَنَخَافَ فَآمِنْ خَوْفَنَا وَلاَ تُخَيِّبْ رَجَاءَنَا وَأَعْطِنَا سُؤْلَنَا فَقَدْ أَعْطَيْتَنَا الإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَسْأَلَكَ وَكَتَبْتَ وَحَبَّبْتَ وَزَيَّنْتَ وَكَرَّهْتَ وَأَطْلَقْتَ الأَلْسُنَ بِمَا بِهِ تَرْجَمَتْ فَنِعْمَ الرَّبُّ أَنْتَ فَلَكَ الحَمْدُ عَلَى مَا أَنْعَمْتَ فَاغْفِرْ لَنَا وَلاَ تُعَاقِبْنَا بِالسَّلْبِ بَعْدَ العَطَاءِ وَلاَ بِكُفْرَانِ النِّعَمِ وَحِرْمَانِ الرِّضَا.

اَللَّهُمَّ رَضِّنَا بِقَضَائِكَ وَصَبِّرْنَا عَلَى طَاعَتِكَ وَعَنْ مَعْصِيَتِكَ وَعَنِ ٱلشَّهَوَاتِ ٱلْمُوجِبَاتِ لِلنَّقْصِ أَوِ البُعْدِ عَنْكَ وَهَبْ لَنَا حَقِيقَةَ الإِيمَانِ بِكَ حَتَّى لاَ نَخَافَ غَيْرَكَ وَلاَ نَرْجُوَ غَيْرَكَ وَلاَ نُحِبَّ غَيْرَكَ وَلاَ نَعْبُدَ شَيْئاً سِوَاكَ وَأَوْزِعْنَا شُكْرَ نَعْمَائِكَ وَغَطِّنَا بِرِدَاءِ عَافِيَتِكَ وَانْصُرْنَا بِالْيَقِينِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ وَأَسْفِرْ وُجُوهَنَا بِنُورِ صِفَاتِكَ وَأَضْحِكْنَا وَبَشِّرْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَوْلِيَائِكَ وَاجْعَلْ يَدَكَ مَبْسُوطَةً عَلَيْنَا وَعَلَى أَهْلِينَا وَأَوْلاَدِنَا وَمَنْ مَعَنَا بِرَحْمَتِكَ وَلاَ تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلاَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ يَا نِعْمَ ٱلْمُجِيبُ (ثلاثاً).

يَا مَنْ هُوَ هُوَ هُوَ فِي عُلُوِّهِ قَرِيبٌ يَا ذَا ٱلْجَلاَلِ وَالإِكْرَام يَا مُحِيطاً بِاللَّيَالِي والأَيَّام أَشْكُو إِلَيْكَ مِنْ غَمِّ الْحِجَابِ وَسُوءِ ٱلْحِسَابِ وَشِدَّةِ العَذَابِ وَإِنَّ ذَلِكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ إِنْ لَمْ تَرْحَمْنِي ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] (ثلاثاً).

وَلَقَدْ شَكَىٰ إِلَيْكَ يَعْقُوبُ فَخَلَّصْتَهُ مِنْ حُزْنِهِ وَرَدَدْتَ عَلَيْهِ مَا ذَهَبَ مِنْ بَصَرِهِ وَجَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَلَدِهِ وَلَقَدْ نَادَاكَ نُوحٌ مِنْ قَبْلُ فَنَجَّيْتَهُ مِنْ كَرْبِهِ وَلَقَدْ نَادَاكَ أَيُّوبُ مِنْ بَعْدُ فَكَشَفْتَ مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَلَقَدْ نَادَاكَ يُونُسُ فَنَجَّيْتَهُ مِنْ غَمِّهِ وَلَقَدْ نَادَاكَ زَكَرِيَّاءُ فَوَهَبْتَ لَهُ وَلَداً مِنْ صُلْبِهِ بَعْدَ يَأْسِ أَهْلِهِ وَكِبَرِ سِنِّهِ وَلَقَدْ عَلِمْتَ مَا نَزَلَ بِإِبْرَاهِيمَ فَأَنْقَذْتَهُ مِنْ نَارِ عَدُوِّهِ وَأَنْجَيْتَ لُوطاً وَأَهْلَهُ مِنَ الْعَذَابِ النَّازِلِ بِقَوْمِهِ فَهَا أَنَا ذَا عَبْدُكَ إِنْ تُعَذِّبْنِي بِجَمِيعِ مَا عَلِمْتَ مِنْ عَذَابِكَ فَأَنَا حَقِيقٌ بِهِ وَإِنْ تَرْحَمْنِي كَمَا رَحِمْتَهُمْ مَعَ عَظِيمِ إِجْرَامِي فَأَنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ وَأَحَقُّ مَنْ أَكْرَمَ بِهِ فَلَيْسَ كَرَمُكَ مَخْصُوصاً بِمَنْ أَطَاعَكَ وَأَقْبَلَ عَلَيْكَ بَلْ هُوَ مَبْذُولٌ بِالسَّبْقِ لِمَنْ شِئْتَ مِنْ خَلْقِكَ وَإِنْ عَصَاكَ وَأَعْرَضَ عَنْكَ وَلَيْسَ مِنَ الكَرَمِ أَنْ لاَ تُحْسِنَ إِلاَّ لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ ٱلْمِفْضَالُ الْغَنِيُّ بَلْ مِنَ الْكَرَمِ أَنْ تُحْسِنَ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْعَلِيُّ كَيْفَ وَقَدْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنَّا.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] (ثلاثاً).

يَا أَللهُ يَا أَللهُ يَا أَللهُ يَا رَحْمٰنُ يَا رَحْمٰنُ يَا رَحْمٰنُ يَا قَيُّومُ يَا قَيُّومُ يَا قَيُّومُ.

يَا مَنْ هُوَ هُوَ هُوَ يَا هُوَ يَا هُوَ يَا هُوَ إِنْ لَمْ نَكُنْ لِرَحْمَتِكَ أَهْلاً أَنْ نَنَالَهَا فَرَحْمَتُكَ أَهْلٌ أَنْ تَنَالَنَا.

يَا «رَبَّاهُ (ثلاثاً) يَا مَوْلاَهُ» (ثلاثاً) «يَا مُغِيثَ مَنْ عَصَاهُ» (ثلاثاً).

أَغِثْنَا أَغِثْنَا يَا رَبُّ يَا كَرِيمُ وَارْحَمْنَا يَا بَرُّ يَا رَحِيمُ يَا مَنْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.

أَسْأَلُكَ ٱلإِيمَانَ بِحِفْظِكَ إِيمَاناً يَسْكُنُ بِهِ قَلْبِي مِنْ هَمِّ ٱلرِّزْقِ وَخَوْفِ الخَلْقِ وَأَقْرِبْ مِنِّي بِقُدْرَتِكَ قُرْباً تَمْحَقُ بِهِ عَنِّي كُلَّ حِجَابٍ مَحَقْتَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِكَ فَلَمْ يَحْتَجْ لِجِبْرِيلَ رَسُولِكَ وَلاَ لِسُؤَالِهِ مِنْكَ وَحَجَبْتَهُ بِذَلِكَ عَنْ عَدُوِّهِ وَكَيْفَ لا يُحْجَبُ عَنْ

مَضَرَّةِ الأَعْدَاءِ مَنْ غَيْبَتَهُ عَنْ مَنْفَعَةِ الأحِبَّاءِ كَلاَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُغَيِّبَنِي بِقُرْبِكَ مِنِّي حَتَّى لاَ أَرَى وَلاَ أُحِسَّ بِقُرْبِ شَيْءٍ وَلاَ بِبُعْدِهِ عَنِّي إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٨].

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اَللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ وَبَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ فِي العَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

اَللَّهُمَّ وَارْضَ عَنْ سَادَاتِنَا الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ سَيِّدِنَا الْحَسَنِ وَعَنْ سَيِّدِنَا الْحُسَيْنِ وَعَنْ أُمِّهِمَا فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ وَعَنْ أَزْوَاجِ نَبِيِّكَ الطَّاهِرَاتِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَنِ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ العَلِيِّ الْعَظِيمِ وَصَلَّى اللَّهُ تَعَالَى وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الكَرِيمِ. سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

شرح
حزب البر

المعروف بالحزب الكبير

للإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه

المتوفى سنة ٦٥٦ هـ

تأليف

الشيخ العلامة عبد الرحمن بن محمد الفاسي

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

«والله ما وضعت فيه حرفاً إلا بإذن من ربي وأمر من رسول الله ﷺ».

أبو الحسن الشاذلي

تلقي الحزبَ بالإذن

- تلقي الحزب بإذن من الله وأمر من الرسول
- شواهد تلقي الولي بالإذن
- أقسام الإذن
- بركة حزب البر
- وقت تلاوته
- الآيات المتفرقات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

قال شيخنا العلامة البحر الفهّامة قطب المهتدين وإمام الواصلين العارف بالله تعالى سيدي عبد الرحمٰن بن محمد الفاسي، نفعنا الله تعالى ببركاته آمين:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله مهبط الوحي وتنزل الرحمات.

وبعد، فلما كان حزب الشيخ الغوث الكبير والقطب الشهير سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، قد اشتهر ذكره في البدو والحضر وسار في البلدان والأقطار مسير الشمس والقمر وكان مجرب النفع ومعلوم البركة موضوعاً عليه من القبول والتعظيم والطلاوة ما هو شاهد بكونه قريب عهد من الله وبارزاً من حضرة الله ومتلقى من عين منّة الله. فكان من أجل ذلك محفوظاً بالعناية وملحوظاً بالرعاية محتوياً على كنوز من المعارف والأسرار وحكم من اللطائف والأنوار، قصدت إلى جمع ما ألهم الله عزّ وجل من بعض أسراره والاعتناء بشيء مما اشتمل عليه من معانيه ومبانيه على وجه يؤكد الانتفاع به، ويرغب في تحصيله، راجياً من الله ببركته الفتح والتيسير والتحقيق بما رمز إليه، فإنه تعالى على ما يشاء قدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

هذا وقد ورد في فضله عن واضعه رضي الله عنه على ما حكاه سيدي عبد النور رضي الله عنه أنه كان يثني على حزبه الكبير ويقول:

ما رتبت منه كلمة إلا بإذن من ربي وأمر من رسول الله ﷺ.

يعني على وجه التلقي يقظة ونوماً كما هو معلوم في حق أهل الله. وشواهده من الكتاب ومن السنة كثيرة وشهيرة:

وناهيك بآية الوحي إلى أم موسى عليه السلام كما أخبر الله. وبموافقة الفاروق رضي الله عنه في غيرما قصة. وبقصة تلقي الأذان نوماً. وقضية قتال مانعي الزكاة.

وجمع القرآن وأخبار الفاروق رضي الله عنه عن الصديق رضي الله عنه بعد مراجعته بأن الله شرح لذلك صدره وعلم من أجل ذلك أنه الحق.

وهو عين الإذن الذي تعنيه الصوفية رضي الله عنهم وذلك في حق من فنت بشريته وتجوهرت نفسه واضمحلت إنسانيته كما يشير إلى ذلك الحديث الإلهي وهو **«لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه وبصره»**(١) يعني وسائر فؤاده، وحينئذ يكون العبد إن صمت فمع الله، وإن نطق فبالله، فتجمع عليه علوم سمية، وجواهر من الحكم سنية، وبحسب ذلك يحيا بها سامعها، ويمتد منها الآخذ منها.

(هذا) وقد قال الله تعالى مخبراً: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البَقَرَة: ٣٧] وسيقول واضع الحزب أثناءه «وهب لنا التلقي منك كتلقي آدم منك الكلمات» وفي الصحيح أنه **«كان فيمن قبلكم محدَّثون ـ في رواية متكلمون ـ من غير أن يكونوا أنبياء وإن يكونوا في أمتي فعمر منهم»**(٢) أو كما قال ﷺ وسيقول في أثناء الحزب: وهب لنا مشاهدة تصحبها مكالمة، ويأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى.

* * *

وبالجملة فالإذن ينقسم إلى «تكليفي» وهو عام، وإلى «تصريفي» وهو ما كان بوارد الخبر، وإلى «تعريفي» وهو ما كان من طريق المحادثة والتكلم وليس في ذلك كلمة مزاحمة للنبوة ولا مخالفة لما وردت به، لكون الولي في ذلك على حكم التبع والموافقة لا حكم الاستقلال والمخالفة، والكلام هنا يطول وتكفي الإشارة إلى أنه لا يكون في ذلك أبداً استحداث حكم من الأحكام، وإنما مناطه فيما استبهم من المباح

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب التواضع، برقم (٦١٣٧) [ج٥ ص٢٣٨٤] وابن حبان في صحيحه، باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله..، برقم (٣٤٧) [ج٢ ص٥٨]. ورواه غيرها ونص لفظ رواية البخاري هو: «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله قال: مَن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرّب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»**.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، حديث الغار، برقم (٣٢٨٢) [ج٣ ص١٢٧٩] ومسلم في باب فضائل عمر رضي الله عنه برقم (٢٣٩٨) [ج٤ ص١٨٦٤]. ورواه غيرهما.

أو التأكيد بحكم من الأحكام، وإلا فهو وسوسة، وسننبه على وجه الموافقة فيما قد تخفى فيه من هذا الحزب إن شاء الله تعالى ثم شهد بصدق ما ذكره من الإذن في حزبه ما له من الحلاوة وما كساه من رونق وطلاوة فهو نفس عارف، ونفثة مكاشف، ويعترف له كل ذائق ويغترف منه كل موفق وموافق.

* * *

هذا وقد قال واضعه أيضاً في فضله «إنه أمان للإقليم الذي يقرأ فيه».

وقال: «لو قرىء» ببغداد ما أُخِذَت».

وقال إنه اجتمع في قراءته معه أربعون من الأبدال في مواجهة الكعبة.

وقال: «من حفظه فهو من أصحابي، ومن قرأ حزبنا هذا له ما لنا وعليه ما علينا وكان داخلاً في شفاعة جدي رسول الله ﷺ» يعني شفاعة خاصة وأما العامة فنفعها عائد على كل مؤمن.

وهذا كله لا يقال بالرأي، وإنما سبيله التلقي كما تقدم، وكذلك ما ذكره من الأمر ويشمله في الجملة ما أخبر به في الحديث وبقاء المبشرات بعد النبوة فافهم. وأما قوله: «له ما لنا وعليه ما علينا» فهي عبارة مطروقة للناس في هذا الكلام وأقرب من ذلك ما يشير إليه كلام وارثه رضي الله عنه في قصة مذكورة في لطائف المنن قال فيها «من دخل في شروطنا فهو آمن، وعليه فله ما لنا من الأمر وعليه ما علينا من الشروط» وهو قريب من قوله «من حفظه فهو من أصحابي» لأن ذلك كله من شواهد محبته واستحسان طريقته، فالأخذ بذلك دخول فيها، وتقييد بشروطها وتمسك بها، فلا يعدم من ذلك بركتها والله أعلم.

* * *

هذا وقد رتبه وارثه سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه ورداً بعد صلاة الصبح كما رتب حزب البحر ورداً بعد صلاة العصر. واستمر عمل الكثير من شيوخ السادة الشاذلية على قراءته من قوله «وإذا جاءك» وبذلك سماه ابن عطاء الله في لطائف المنن رضي الله عنه.

* * *

وأما ما قيل في ذلك فذكر عن واضعه رضي الله عنه أنه كان يقرؤه مرة ويتركه أخرى، على أن غالبه ـ أي قراءته ـ قرآن، ولكن السر في ترتيب ذلك وقد تقدم، أنه عن بصيرة ربانية، يوافقه ما ورد عن بعض الصحابة وهو بلال رضي الله عنه من أنه مرّ به النبي ﷺ وهو يقرأ آية من هذه السورة وآية من هذه، فسأله عن ذلك فقال: «أخلط الطيب بالطيب» فقال عليه الصلاة والسلام: «**اقرأ السورة على وجهها**» وفي بعضها فقال: «**أحسنت**»[١].

وعلى رواية أحسنت يصلح شاهداً في الجملة، وأما الرواية الأخرى وهو أمره له بقراءة السورة على وجهها، فمحافظة على نظمه.

وفي نوادر الأصول: حديث بلال هذا وتمثيله بالنحلة تأكل من الحلو والمر ويمسي ذلك حلواً كله وشفاء وهو يصلح توجيهاً لفعل بلال رضي الله عنه، وأما أمره له بقراءة السورة على وجهها فلأن الشفاء فيها اقتضى تدبيره تعالى من نظمه كما سماه شفاء لما في الصدور.

هذا وفي نوازل البرزلي ما نصه:

«وقد رأيت أحاديث في الرقَى والحفظ من الغوائل تقتضي جواز (قراءة) القرآن مفرقاً، وكذلك جل أحزاب الشيخ العارف بربه تعالى أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه وقد أكثر منها في حزبه الكبير الشهير».

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه، باب قراءة الليل، برقم (٤٢١٨) [ج٢ ص٤٩٨] ولفظه: عن ابن جريج قال: أخبرني عطاء أن النبي ﷺ استمع ليلة أبا بكر فإذا هو يخافت بالقراءة في صلاته واستمع عمر فإذا هو يرفع صوته واستمع بلالاً فإذا هو يأخذ من هذه السورة ومن هذه السورة فقال: «**استمعت إليك يا أبا بكر فإذا أنت تخفض صوتك**» قال: أخفض أنتجي ربي، قال: «**واستمعت إليك يا عمر فإذا أنت ترفع صوتك**» قال: أنفر الشيطان وأوقظ النائم، قال: «**واستمعت إليك يا بلال وإذا أنت تأخذ من هذه السورة ومن هذه السورة**» قال: أجمع الطيب بالطيب أخلط بعضه إلى بعض، قال: «**كل هذا حسن**».

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤﴾
[الأنعام: ٥٤].

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾

[الأنعام: ٥٤]

- آية الاستفتاح
- سر الأسرار المانع من الأضرار
- كيف حج «آدم» «موسى»؟
- الجرعة الأولى من دواء النفوس الخبيثة
- من تقرب إلى الله شبراً
- فرح الله بتوبة عبده المؤمن

(ثم الذي يظهر في سر استفتاحه بآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ﴾ [التوبة: ١١١]) ما في ذلك من تذكير المتوجه بتنبيهه لطريق القصد إلى الله تعالى وهو إلقاء النفس سلماً بين يدي الله تعالى من غير تدبير معه ولا منازعة فيما يجري عليه وهو مبنى طريق الصوفية ومناط العبودية، وهذا المعنى هو الذي حام عليه صاحب التنوير في إسقاط التدبير وضمنه كتابه، ولما تحقق بذلك القرنبالي، كان كثيراً ما يجري في كلامه (أنا ما لي فياش إش عليَّ منّي)، وكان ينشد كثيراً ما قاله البرزلي رضي الله عنه:

فلا الرفع أرجوه ولا الخفض أتقي ... لأنـي مـنـصـوب لـكـل الـعـوامـل

يشير إلى نفوذ تصاريف القدر وتحقيقه بذلك، فلا أمل له ولا أمنية في شيء، ولا خوف من شيء، وقد استوت الحالات عنده كما قيل:

أصـبـحـت لا أمـل ولا أمـنـيـة ... أرجـو ولا مـوعـدة أتـرقـب

وقد قيل لبعضهم فوّض أمرك إلى الله تعالى، فقال: «ليس لي أمر حتى أفوّضه إليه» وهذا لتجرده عن وجوده وانقطاعه عن كسبه وعزمه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] و﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. وهو موقف التحقيق والأخذ عن الإرادة بالغيبة في الحقيقة والفناء في التوحيد والتجرد عن التعلق بالحق والخلق، فإن رد إلى البقاء يكون كما قال الشاذلي «إنما يكون قلبه متعلقاً بالله» قال: «وما دام قلبه متعلقاً بعلمه وحوله وقوته فليس براج الله حتى ييأس من الشكل متعلقاً بالله في كل نفس، فحينئذ تجدد الروح والمدد من الله تعالى، ويقطع بذلك النور عن النظر إلى غير الله ويضيق عليه بالقرب من الله من حيث يجمعه عليه من غير التفات لسواه».

هذا وفي رواية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ﴾ [التوبة: ١١١] إيماء رحمته تعالى لتنزله لعبده بالاشتراء، وملاطفة في نسبة تسليمه له حاله، وكل العبيد له، والجائر عليهم منه وإليه.

لكن يترجح الاستفتاح الآخر الذي عليه العمل لأن آية الاشتراء تشير لنسبة شيء من العبد له وللعوض، وكل ذلك ينبو عن مذهب الصوفية أهل الحقيقة، ولذلك قال ابن وفا رضي الله عنه:

لـو لـم أكـن عـبـداً لـكـنـت وهبته ... روحـي وتـلـك هـديـة الـفـقـراء

وهو أبلغ في العبودية من قول العارف ابن الفارض:

مـا لـي سـوى روحـي وبـاذل روحـه ... في حب من يهواه ليس بمسرف

وقد أومأت الأمر بتخصيص (اشترى) من المؤمنين دون النبي إلى تخليص غير النبي مما في النفس من الدعوى، ولا كذلك النبي، فإنه كامل مخلص من ذلك من أول نشأة، فهو متمحض للحرية من دعوى النفس بخلاف غيره ولو صديقاً، فإنه يقع عليه الأسر من النفس حتى يخلص بالجزية.

* * *

(ثم قوله فيه: ونسألك سر الأسرار المانع من الأضرار)

قد فسره واضعه في كلام له بأنه مدد العلم والمعرفة وروح القربة والاصطفاية والتخصيص والتولية، ويشير لسر البقاء.

وفي حزب الفتح لابن وفا رضي الله عنه «وأحينا بروح القرب، وانفحنا بروح الشوق، واحجب أبصارنا بنور جمالك عن مشاهدة الأغيار، وضيّق علينا بقربك حتى نشاهدك أقرب إلينا من كل شيء».

(هذا) وقد قيل، وإنما كان حصول ذلك مانعاً من الأضرار، لأن ذلك نور وارد من حضرة الله، وسر متلقى من الله، فله قوة الدفع للباطل وللسوى جملة لمضادة النور الساطع للظلام، فلا يجامعه بل يذهبه ويمحو رسمه وأثره، ولا بقاء للأغيار مع سطوع أنواع المعارف والأسرار، وبذلك يحصل تبري العبد من حوله وقوته على دوام أوقاته.

ويقال: من لم يكن له سر فهو مُصر.

وقال الشاذلي رضي الله عنه «من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر».

وإنما سأل ذلك دون الوقوع في الذنب جملة، لأنه متعذر من غير المعصوم كما قيل:

مَن ذا الذي ما ساء قط؟ ومن له الحسنى فقط؟[١]

وأجيب قائله بأن قيل له:

محمد الهادي الذي عليه جبريل هبط[٢]

ولما كان متعذراً من غير المعصوم، أثنى الله على من لم يصر بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥] ولم يقل تعالى «ولا يفعلون» مع أنه مظهر العفو والغفران.

---

(١) هذا البيت هو للشيخ عبد الغني النابلسي (١٠٥٠هـ ـ ١١٤٣هـ) والقصيدة هي من مجزوء الكامل: متفاعلن متفاعلن.

(٢) لم أعثر على قائله.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيَغفر لهم**»[(١)].

وفي دعاء لواضع الحزب رضي الله عنه «اللهم صلني باسمك العظيم الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء، وهب لي منه سراً لا تضر معه الذنوب شيئاً» يعني لعدم الإصرار ولاندراج أسمائه وصفاته في أسماء الحق وصفاته، فلا شعور له حينئذ بنسبة شيء إليه مما يجري عليه.

وإليه يشير قول الإمام الجنيد رضي الله عنه «وكان أمر الله قدراً مقدوراً» لما قيل له «أيزني العارف؟» وفيه إيماء لسر الفرق بين معصية الولي والفاجر.

وقد قال الشيخ سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه «إن الفرق بين معصية المؤمن والفاجر من ثلاثة أوجه:

* المؤمن لا يعزم عليها قبل فعلها.
* ولا يفرح بها وقت الفعل.
* ولا يصر عليها بعد فعلها.

والفاجر ليس كذلك.

وقال سيدي عبد الكريم الجيلي في قصيدة له عينية:

أراني كالآلات أنت محركي ... أنا قلم والاقتدار الأصابع
ولست بجبري ولكن مشاهد ... فعال مريد ما له من يدافع
فآونة يقضي عليَّ بطاعة ... وحيناً بما عنه تنهى الشرائع
كذلك تراني كنت أترك أمره ... وآتي الذي ينهاه والجفن دامع
ولي نكتة غراء سوف أقولها ... وحق لها أن ترعويها المسامع
هي الفرق ما بين الولي وفاسق ... تنبه لها فالأمر فيه بدائع
وما هو إلا أنه قبل وقعه ... يخبر قلبي بالذي هو واقع
فآتي الذي يقضيه في مراده ... وعيني له قبل الفعال تطالع

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب سقوط الذنوب..، حديث رقم (٢٧٤٩) [ج٤ ص٢١٠٦] والترمذي في جامعه الصحيح، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها، حديث رقم (٢٥٢٦) [ج٤ ص٦٧٢]. ورواه غيرهما.

فكنت أرى فيها الإرادة قبل ما ... أرى الفعل مني والأسير مطاوع
فآتي الذي تهواه نفسي ومهجتي ... لذلك في نار خبتها الأضالع
إذا كنت في حكم الشريعة عاصياً ... فإني في حكم الحقيقة طائع

يشير إلى مطالعة تنزل الأمر والقدر في الغيب قبل انتشار ذلك على الجوارح.

وبذلك يتضح لك حديث «فحج آدم موسى»[1] وأن الذي جرى عليه كان بمطالعة قدر سابق وأنه ليس ذلك لغيره، إلا لمن كان شبيهاً به منه، كأن يكون من أهل الغيبة في الباطن، بحيث يكون كالنائم، فإن لم يكن نائماً فيعذر لما قهره من وارد الحق، واصطلمه من تصرفات الجبر، وذلك خاص بأهله، فليسلم لهم في الجملة، على أنه قد يعمل بالقدر إن لم يكن على وجه الانتصار للنفس والاحتجاج لها لمناقضة ذلك بالعبودية، بل لمجرد إخبار عن قدرة الله تعالى عليه، ونفوذ تقديره فيه، مع شدة افتقار ودوام انكسار، وقد يحمل على ذلك حديث «حج آدم موسى».

وفي الحكم «إن القضاء والقدر غلباني اعتذاراً واعترافاً، والله عزّ وجل أكرم من أن يرد عذر من اعتذر إليه أو يخيب أمل من اعترف بذنبه أو أقر بعجزه إليه.

* * *

وقوله تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ [الأنعَام: ٥٤] افتتح بهذه الآية لما تعطيه من قوة الرجاء للمتوجهين القادمين، فهي في ذلك نظيرة حديث «من تقرّب إلي شبراً تقرّبت إليه ذراعاً» ولما قيل «من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه برحمته» ولمقتضى آية ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعرَاف: ٥٦] ففي ذلك ترغيب في التوجه إلى الله والإقبال عليه «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن»[2] الحديث.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب فلا يخرجنكما من الجنة..، حديث رقم (٤٤٦١) [ج٤ ص١٧٦٤] ومسلم في صحيحه، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، حديث رقم (٢٦٥٢) [ج٤ ص٢٠٤٢] ورواه غيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب في فضل التوبة..، حديث رقم (٣٥٣٨) [ج٥ ص٥٤٧] ومسلم في صحيحه، باب في الحض على التوبة..، حديث رقم (٢٦٧٥) [ج٤ ص٢١٠٢]، ورواه غيرهما.

اللهم إنك تعلم أني بالجهالة معروف وأنت بالعلم موصوف، وقد وسعت كل شيء من جهالتي بعلمك فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك واغفر لي إنك على كل شيء قدير.

يا الله يا مالك يا وهاب هب لنا من نعماك ما علمت لنا فيه رضاك، واكسنا كسوة تقنا بها من الفتن في جميع عطاياك وقدسنا عن كل وصف يوجب نقصاً مما استأثرت به في علمك عمن سواك.

إني بالجهالة معروف

- اعتراف العبد بجهالته
- وسع علمه كل شيء
- وسعت رحمته كل شيء
- دعوات المكروب
- دعاء فاطمة الزهراء
- العافية ومعناها
- لفظ الجلالة وحظ العبد منه
- أصدق كلمة قالتها العرب

(قوله: ﴿الٓر﴾ [يونس: ١] ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: ١] ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشورى: ١، ٢]) المتبادر أنه قصد فواتح السور القرآنية، ويحتمل أنه لم يقصد قرآناً، وإنما جرى على ما وافق نظم القرآن. وقال بعضهم «معرفة الحروف والأسماء من خصائص علوم الأنبياء من حيث كونهم أولياء». وكذلك تقع المشاركة في العلم بها بين الأنبياء والأولياء وهي من علوم الكشف، فلا فائدة للتصرف فيها والكلام عليها ببضاعة العقل. بل لا يعرفه من جهله، ولا يجهله من عرفه، وكل على حسب ما فتح له، ولذلك يتفاوت فيها أهلها، ويقع الاختلاف منهم فيما يشيرون إليه فيها، تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض.

* * *

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: ١] إن الكاف من (كافي) والهاء من (هادي) والياء من (حكيم) والعين من (عالم) والصاد من (صادق).

وقال بعضهم: وكما يستدل بالاسم على الذات، كذلك يستدل بكل حرف من حروف الاسم على حقيقة من حقائق الذات ووصف من أوصافها إذا أتى أو فعل ولا يقتصر في دلالة الحرف على صفة واحدة من الصفات بل كل صفة كانت مفتتحة بذلك الحرف دلّ عليها ذلك الحرف، وقاعدة ذلك إن كان اسم مدح فكل حرف من حروفه يدل على صفة شريفة، وإن كان اسم ذم فكل حرف منه يدل على صفة مذمومة وذلك من تيسير تعليم الله آدم عليه السلام الأسماء كلها ونطقه بها بجميع اللغات، فكل اسم فهو دال على ما وضع له بكلمة وببعضه والله أعلم.

وعن ابن عطية: سأل رجل النبي ﷺ عن (حم) فقال: «**بدء أسماء وفواتح سور**»[1] انتهى.

قال الهروي: وفي الحديث «**إذا بيتم فقولوا حم لا ينصرون**»[2] قال أبو عبيدة «كان المعنى اللهم لا ينصرون» انتهى.

وذكر في القوت[3] عن علي كرّم الله وجهه «يا كهيعص أعوذ بك من الذنوب

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.
(٢) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.
(٣) أي كتاب «قوت القلوب في معاملة المحبوب» لأبي طالب المكي.

التي توجب النقم وتغير النعم أو تهتك العصم، أو تحبس غيث السماء، أو تزيد من الأعداء. انصرنا على من ظلمنا» وهو مما يشير لكونها أسماء الله فيستغاث بها.

ونقل سيدي عبد النور عن سيدي عبد الله بن سلطان وكان من أصحاب الشاذلي رضي الله عنه أنه قال: «رأيت في النوم كأني أختلف مع بعض الفقهاء في تفسير قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: ١] ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشورى: ١، ٢] بما أجرى الله تعالى على لساني أو قاله فقلت هي أسرار بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ فكأنه قال (كاف) أنت كهف الوجود الذي يأوي إليه كل موجود (ها) هنيئاً لك الملك وهيأنا لك الملكوت (يع) يا عين العيون (ص) صفاتي أنت، من يطع الرسول فقد أطاع الله (ح) حبيناك (م) ملكناك (ع) علمناك (س) سررناك (ق) قربناك. قال: فنازعوني في ذلك ولم يقبلوا مني، فقلت: نسير إلى النبي ﷺ ليفصل بيننا فسرنا فلقينا النبي ﷺ فقال لنا: «الذي قال محمد بن سلطان هو الحق» (انتهى).

وفي نوادر الأصول[1]: أن فواتح السور فيها إشارة حشو ما في السور ولا يعلم ذلك إلا حكماء الله في أرضه وأوتاد أرضه، وصلوا إليه فيه ونالوا هذه الحكمة وهم نجباء الحكماء قوم وصلت قلوبهم إلى فردانية، تناولها هذا يعلم من الفردية وهو علم حروف المعجم وبهذه الحروف لغير العلوم كلها، وبالحروف ظهرت أسماؤه حتى غيّروها بالألسنة (انتهى).

وفي تفسير الورتجيني: الحروف المقطعة رموز معاني سور القرآن لا يعرف تلك الرموز إلا الربانيون (انتهى).

ويرد عليه أنه ورد رمز متحد في سور متعددة مختلفة المعاني نحو ﴿الٓر﴾ [الحِجر: ١] و﴿حمٓ ۝١﴾ [الشورى: ١] ونحو ذلك ويجاب بأن الرمز كالمشترك بين معان، وقد قيل في ختم ترجمة ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشورى: ١،٢] بالقاف أنه لما بسط رحمته وذكر ملكه وعظمته وسيادته وتقديسه طمعت القلوب في الأمن من مكره، فذكرهم قهره ليذكروا سطوته لتحصل لهم حالة بين الخوف والرجاء وتسمى الإشفاق، وجلب الحروف الأخرى مفتتحة (بالكاف) الدالة على الكفالة والكفاية والكرم ليعلمك أن أرزاق العباد مضمونة وأنهم عياله وأن من مقتضى كرمه دارت عليهم أرزاقهم و(بالهاء) الدالة على اسم الهادي إشارة إلى أنه يهدي من يشاء من عباده ثم ختم (بالصاد) الدالة على صدقه في إنفاذ ما قضاه من وعده ووعيده (انتهى).

---

(١) أي كتاب «نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول» للحكيم الترمذي.

وقال الشيخ البلخي في شرح حزب البحر: اعلم أن كل سورة من القرآن لا سيما السور المفضلة كالبقرة وآل عمران ويس والسجدة وتبارك وغيرها لها أنوار وحقائق يشاهدها أولياء الله تحيط بركتها وأنوارها وأسرارها بالمؤمنين، ولك سورة خصوصية خصها الله عزّ وجل بها وآثار من حفظه وبركته، وربما يأتي عذاب من فوقه فيكون نور ﴿يسٓ ۝١﴾ [يس: ١] وقاية له، وربما أحاط به فيكون نور ﴿تَبَارَكَ﴾ [الأعراف: ٥٤] مانعاً له، وربما قصده عبد بسوء فكفاه الله تعالى بـ ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: ١] وحماه بـ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشورى: ١، ٢]. وقد أعلم الله عزّ وجل أن العذاب مواجه للعباد من فوقهم ومن تحت أرجلهم لولا رحمته، والقرآن رحمة كما قال الله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأعراف: ٥٢] ثم قال: ويحتمل أن يكون الشيخ أراد بـ﴿يسٓ ۝١﴾ [يس: ١] حروف هجاء؛ غير قاصد التلاوة، وقد وقع في كلامه ذكر حروف هجاء في قوله «وحم سران من سرك» ونون صاد ونحوه، وهذا من معرفة خصائص الحروف، وعلمها المختص بها للأولياء. (انتهى).

ولكن يرجع قصده فواتح السور قوله في بعض أحزابه بحرمة السبعين والثمانية وأسرارهما، ثم قال: اكفني بهم السبعين والثمانية؛ فإن هذا العدد هو عدد فواتح السور كما ألهمت ذلك بحمد الله تعالى.

﴿الٓر﴾ [الحِجر: ١].

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريَم: ١].

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشورى: ١، ٢].

﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبيَاء: ١١٢].

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه: ١ ـ ٨].

أوائل السُّوَر

- ما قيل في أوائل السور
- فائدة نبوية عند لقاء العدو
- خصوصية وسر كل سورة وآية

قوله: «وقد وسعت كل شيء من جهالتي بعلمك فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك» هذا انعطاف منه ورجوع إلى ما افتتح به من صريح قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، واقتضاء لجميل وعده تعبداً له وتذللاً إليه وتملقاً بين يديه يعني اعترافه بالجهالة المؤدية لارتكاب السوء مع علمه تعالى، وتنزيهه عما اتصف به العباد من الجهل المطلق لاتصاله تعالى بالعلم الشامل المطلق ثم سأل الله تعالى أن يسع جهالته المطلقة برحمته المطلقة كما وسع ذلك بعلمه المطلق وذلك مقتضى لتغطية نقص العبد بكمال ربه فيصير به وإليه ومندرجاً في مادته بإمداده وتأييده كما قال: «وأدرج أسمائي تحت أسمائك» وصفاتي تحت صفاتك وكما في حديث التقريب، وكما قال في الحكم[1] «لو أنك لا تصل إليه إلا بعد محو مساويك، وترك دعاويك، لم تصل إليه أبداً، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطّى وصفك بوصفه ونعمتك بنعمته، فوصلك إليه بما منه إليك، لا بما منك إليه».

وفي بعض أدعية واضع الحزب رضي الله عنه «وأعطني من سعة رحمتك على سعة علمك وهي التي لم تدع للخير مطلباً، ولا للشر مهرباً» ويقول أثناء الحزب «أسألك أن تعطينا خير ما نفذت به قدرتك وتعلقت به مشيئتك وأحاط به علمك واكفنا شر ما هو ضد لذلك» وهو إشارة إلى أن يتولاه الله في جميع أموره حتى يكون قائماً بتدبيره مراعياً لشئونه ومغتنياً به في تحصيل خيوره ودفع شروره على وجه لا يكون في الإمكان أكمل وأليق لحاله منه.

ومن دعائه عليه الصلاة والسلام «اللهم كلاءة ككلاءة الوليد»[2].

ومن دعائه عليه الصلاة والسلام أيضاً: «اللهم يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» زاد في الحديث «ولا أقل من ذلك»[3].

وفي الحديث: «إذا سألتم الله فاسألوه العافية»[4].

---

(١) أي حكم الشيخ ابن عطاء الله السكندري المتوفى سنة ٧٠٩هـ.

(٢) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء...، حديث رقم (١٨٧٥) [ج١ ص٦٨٩]. والترمذي في جامعه الصحيح، حديث رقم (٣٥٢٤) [ج٥ ص٥٣٩] ورواه غيرهما.

(٤) رواه البخاري، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار...، حديث رقم (٢٨٠٤) [ج٣ ص١٠٨٢] ومسلم، باب كراهة تمني لقاء العدو...، حديث رقم (١٧٤٢) [ج٣ ص١٣٦٢]. ورواه غيرهما.

قال سهل بن عبد الله «أجمع العلماء رضي الله عنهم أن تفسير العافية أن لا يكل الله العبد إلى نفسه وأن يتولاه».

وفي الحديث أيضاً «اسألوا الله التمكين والعافية».

قال في نوادر الأصول «عليه العفو في الآخرة والعافية في الدنيا وكل واحد منها مشتق من صاحبه ومرجعهما إلى أن لا تخذل حتى تقع، وأن لا تصيبك الشدائد والبلاء والمكاره في الدنيا وكذا في الآخرة» انتهى.

وقد قال سيدي أبو العباس[1] رضي الله عنه «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه العافية من حيث يعلمها عافية».

وسيأتي «ولا نسألك دفع ما تريد ولكن نسألك التأييد» والكلام عليه مما ذكرناه أن مطلوبه رحمة خاصة مرجعها لمحبة الله لعبده واعتنائه في كل أموره التي من جملتها، بل وهو أهمها، تقريبه من جنابه وتأهيله لحضرة قدسه برفع حجابه وإدامة ذلك له حتى يكون في كل أموره بربه وحول الله وقوته لا بنفسه وقوته وحوله، وحينئذ يتضح ويتجه إفادة هذا الطلب وفائدته غاية ولا يتطرق إليه من تحصيل الحاصل لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وكذا قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] لأن هذا الوسع عام صادق بالإيجاد ثم بالإمداد العام، وما نحن فيه طلب إمداد خاص ثم مع كونه خاصاً مشروطاً فيه أن لا يكون ثم أخص منه لتعليقه على وسع العالم وإحاطته فلا يتصور أنفع من هذا الدعاء ولا أبلغ في الإفادة.

* * *

قوله: «يا الله» يجوز فيه قطع الهمزة في كل حال من نظم ونثر وهو مما اختص به هذا الاسم الكريم كما لا ينادى ما فيه الألف واللام إلا هو لما كثر تكراره في الكلام والدعاء جاز فيه ما لم يجز في غيره ثم ينبغي كما قال الإمام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه أن يكون حظ العبد من هذا الاسم التوله قال: وأعني أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله تعالى لا يرى غيره ولا يلتفت لسواه ولا يرجو ولا يخالف إلا إياه، وكيف لا يكون كذلك وقد فهم من هذا الاسم أنه الوجود الحقيقي وكل ما

---

(١) أي الشيخ أبو العباس المرسي المتوفى سنة ٦٨٦هـ.

سواه فان وهالك وباطل إلا به كما رواه ﷺ حيث قال: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1] متمثلاً بقول الشاعر ومصدقاً له.

* * *

قوله: «من نعماك» بضم النون والقصر وهي النعمة، قال الجوهري: وإن فتحت النون مددت، وسيأتي في الحزب وأوزعنا شكر نعمائك بالفتح والمد والله أعلم.

* * *

قوله: «واكسنا كسوة تقنا بها» الرواية جزم تقنا بحذف الياء على الجواب للدعاء، ونظيره قوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام في دعائه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القَصَص: ٣٤] وقوله تعالى إخباراً عن زكريا عليه السلام في دعائه أيضاً: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]﴿يَرِثُنِى﴾ [مريم: ٦] على قراءة الجزم فيهما؛ على أن الاجتزاء بالكسرة عن الياء كما في المعتل لغة ورد بها القرآن والله أعلم.

* * *

قوله: «واغفر لي» سقط عند سيدي عبد النور في خطه وثبت عند ابن الصباغ والله أعلم.

قوله: «وقدسنا عن كل وصف» في الصباغ وفي خط سيدي عبد النور أيضاً وقدسنا عن كل وصف، يعني بالكسوة.

قوله: «يوجد نقصاً» خفياً تختص بعلمه فضلاً عما كان جلياً. ومن دعائه: «اللهم اغفر لنا ما علمه البشر من خلقك، واغفر لنا ما استأثرت به عنا وعن جميع خلقك».

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب أيام الجاهلية، حديث رقم (٣٦٢٨) [ج٣ ص١٣٩٥] ومسلم في صحيحه، كتاب الشعر، حديث رقم (٢٢٥٦) [ج٤ ص٧٦٨] ورواه غيرهما.

يا الله يا عظيم يا علي يا كبير أسألك الفقر مما سواك والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك والطف بنا فيهما لطفاً علمته يصلح لمن والاك واكسنا جلابيب العصمة في الأنفاس واللحظات واجعلنا عبيداً لك في جميع الحالات. وعلّمنا من لدنك علماً نصير به كاملين في المحيا والممات.

اللهم أنت الحميد الرب المجيد الفعال لما تريد تعلم فرحنا، بما إذا ولماذا وعلى ما فرحنا وتعلم بما ولماذا وعلى ماذا حزننا كذلك وقد أوجبت كون ما أردته فينا ومنا ولا نسألك دفع ما تريد ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد كما أيدت أنبياءك ورسلك وخاصة الصديقين من خلقك إنك على كل شيء قدير.

الفقر والعصمة والعلم والتأييد

- الفقراء أغنى خلق الله
- لما افتقر أبو الحسن أخذ غنى الدنيا والآخرة
- هل تطلب العصمة من كل الذنوب؟
- العلم اللدني وكيف تصل إليه؟
- المرتبة العلمية التي وصل إليها علي كرّم الله وجهه
- لماذا العلم النافع؟.. العلم كالدراهم تضر وتنفع
- التأييد بروح منه

قوله: «نسألك الفقر مما سواك والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك» قال في القصد: قيل لي: أتريد أن يغنيك الله حتى يغني بك من أحب أو توسل أو دعا أو سأل؟ قلت: كيف لي بذلك؟ قال: لا تتخذ منهم عدواً ولا حبيباً، انظر تمامه.

وفي حزب النور له: حسبي الله وأنا بريء مما سوى الله.

وفي الحكم: تحقق بوصفك يمدك بوصفه، تحقق بفقرك يمدك بغناه.

يعني إن من صحّ فقره إلى الله بانقطاعه إليه وإياسه من سواه، ومن جملة ذلك نفسه وحوله صحّ غناه بربه، وذلك إنما يتحقق بغيبته عن فقره في فقره، وإلا كان معتمداً به ومنقطعاً عن الله بكسبه وإلى ذلك تشير حكاية سيدي عبد السلام أبي الحسن المشهورة وبالجملة فالغنى به تعالى يفيد العمل له لا لشيء والرجا منه لا بشيء ولا يرى للنفس نسبة لا في نفي ولا في وجود شيء، وقد لوّح إلى ذلك كله بقوله: حتى لا نشهد إلا إياك، والله أعلم.

قوله: «واكسنا جلابيب العصمة . . إلخ» هو كقوله في حزب البحر: نسألك العصمة في الحركات والسكنات. . . إلى آخر ما ذكرناه من أسباب الاحتجاب عن الغيب، ومراده العصمة اللغوية وهي المنع مما ذكر بالستر من الوقوع فيه، وذلك جائز في حق النبي وواجب له وللملائكة.

وقد قال العراقي ـ رحمه الله ـ على حديث «والسلامة من كل إثم»(١) «فيه جواز سؤال العصمة من كل الذنوب، وذلك جائز في حق غير الأنبياء وواجب لهم، وسؤال الجائز جائز» انتهى.

على أن العصمة في حق النبي لا تختص بما ذكر بل تعم كل ما لا يليق بمنصب نبوته الذي هو أخص منه حظ الولي مما ينافي ولايته فقط، ثم هذا الطلب من جملة ما يندرج فيما تقدم من طلب التقديس وغيره، ولكنه تفصيل بعد إجمال.

وسيقول أيضاً «واكسنا من نورك جلابيب العصمة» والجلابيب جمع جلباب وهي الملاءة، استعارة للستر العام والله أعلم.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، من كتاب صلاة التطوع، حديث رقم (١١٩٩) [ج١ ص٤٦٦]، والترمذي في جامعه الصحيح، باب ما جاء في صلاة الحاجة [ج٢ ص٣٤٤] ورواه غيرهما.

وقال الشيخ في شرح حزب البحر: عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واجبة لهم شرعاً، قال بعض العلماء: وعقلاً من دونهم ليس كذلك بل جائز، وأيضاً بأن عصمة غيرهم تُسأل لتُنال، وعصمتهم عليهم الصلاة والسلام حاصلة من غير سؤال بعد أن قرر أن الشركة في الألفاظ الإضافية والصفات الظاهرة لا يلتزم منها شركة بين المتصفين لتباين الوصفين حال قيامهما بالمتصفين، فكل على قدره، فلا مساواة. وفي الإحياء بعد كلامه رضي الله عنه على التأييد وأنه عبارة عن تقوية البصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج، فكأنه جامع للهداية التي مرجعها للبصيرة العلمية الكاشفة لما عليه الشيء في حقيقته، وللرشد الذي مرجعه إلى الإرادة الباعثة إلى جهة السعادة والتسديد الذي مرجعه إلى القدرة على توجيه الحركات إلى صوب المطلوب وتيسيرها عليه، قال: ويقرب من التأييد الجامع لما ذكر العصمة، وهي عبارة عن وجود إلهي يرسخ في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير، وتجنب الشر، حتى يصير كمانع في باطنه غير محسوس» انتهى حاصله.

* * *

قوله: «وعلمنا من لدنك علماً نصير به كاملين.. إلخ» رفع نصير على أن الجملة صفة لما قبله، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلِيًّا﴾ [الأحزاب: ١٧] على قراءة الرفع، لأنه لم يقصد به جواب الدعاء حينئذ، ولو قصده لجزمه كما تقدم له جزم (تقنا) على أن سر تخصيص كل بما اختص به صحة إسناد تقنا فيما تقدم إلى الله فيحسن فيه جواب الدعاء بخلاف نصير فيحسن فيه الوصف والله أعلم.

* * *

قوله: «ولا نسألك دفع ما تريد ولكن نسألك التأييد بروح من عندك.. إلخ» قال في القصد «رأيت كأني من النبيين والصديقين فأردت أن أكون معهم ثم قلت «اللهم أسألك بي سبيلهم مع العافية مما ابتليتهم فإنهم أقوى مني ونحن أضعف منهم» فقيل لي: قل وما قدرت من شيء فقلت «فأيدنا كما أيدتهم» انتهى.

وفي دعاء لواضع الحزب رضي الله عنه «وأيدنا بروح منك حتى لا نؤتي أنفسنا وأهواءنا ولا نتبع شيطاننا واجعلنا من حزبك فإن حزبك الغالبون» وكل ذلك موافق لآية ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] ومقتبس من نورها، والمراد به روح الوصلة واليقين، كما سيقول: وانصرنا باليقين والتوكل عليه.

وفي حزب الإمام البرزلي (وانصرني باليقين وأيدني بالروح الأمين) يعني جبريل عليه السلام.

وقد قيل في تفسير الآية أيضاً والتأييد التقوية وهو نافع في سر التجلي ونور الشهود لكونه حياة الروح وفيه قوتها.

وقد قال الورتجيني على قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجَادلة: ٢٢]: «أيدهم الله تعالى لتجلي ذاته لأرواحهم، وما أبقاهم في رؤية الصفات بل أغرقهم في قاموس الذات لوجدوا فيه أسرار جواهر الربوبية، وحقائق أنوار الألوهية وذلك الوجدان لأنه نفخ من روح الأزل في أرواحهم روح العارف فصارت أرواحهم مؤيدة بروح منه» انتهى.

وفي نوادر الأصول بعد ذكر التأييد بروح اليقين قال له القائل: ما روح اليقين؟ قال: «برد القربة من الرحمة والعطف فراحت بها من نور النفس وحرارتها وليس فيما قلت شفاء لأنك لم تصل إليه والشفاء لمن وصل واحتظى منه وذلك أن النفس خرجت من هوى المخلوقين إلى هوى القربة وكل الطيب هناك» انتهى.

وقال الكواشي في تفسير الآية عن بعضهم «حياة الروح بالتأييد، وحياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة الذكر بالذاكر، وحياة الذاكر بالمذكور» ثم قال «وأيدهم بروح منه» أي قواهم بنصره الحسي، سمي النصر روحاً لأن أمرهم يحيا به، والروح الإيمان أو القرآن أو الحجة أو الرحمة أو جبريل عليه السلا أيدهم الله به» انتهى.

واقتصر غيره على تفسير الروح بالنور في الآية.

* * *

اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فهنيئاً لمن عرفك فرضي بقضائك. والويل لمن لم يعرفك بل الويل ثم الويل لمن أقرّ بوحدانيتك ولم يرضَ بأحكامك. اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلاً تصحبه لطائف رحمتك وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقداً تصحبه أنوار محبتك فإنه قد ظهرت السعادة على من أحببته وظهرت الشقاوة على من غيرك ملكه فهب لنا من مواهب السداد واعصمنا من موارد الأشقياء.

هنيئاً لمن عرفك ورضي بقضائك

- الرضا بقضاء الله
- حكم بالذلة حتى عزوا
- حكم بالفقد حتى وجدوا
- سلب الولي بغير قطيعة
- طرد الابتلاء والامتحان

قوله: «بل الويل ثم الويل لمن أقرّ بوحدانيتك ولم يرضَ بأحكامك» لأن حكم الواحد لا مهرب منه، وقهره لا محيص عنه، إذ لا غيره يجير منه ولا يهرب إليه، فكان في قضية الإقرار بالوحدانية الاستسلام والتسليم والرضا بما يجري به القضا.

قال في القوت: وروينا في الخبر المشهور ما معناه «يقول الله عزّ وجل خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه والويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه وويل ثم ويل لمن قال لِمَ وكيف؟» انتهى.

وما ذكر في الحزب من الإقرار بالوحدانية مع عدم الرضا خرج مخرج الدليل والبرهان عن تأكيد الويل في حق من لم يسلم ويرضى مع ذلك لأنها مخالفة مع العلم، ويتضاعف الويل على من علم ولم يعمل لما في ذلك من الجراءة فتشتد الجراءة، نسأل الله تعالى العصمة.

* * *

«قوله اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا» هذا لأن تسلط الخلق على أولياء الله في مبدأ طريقهم سنة الله في أحبابه وأصفيائه وبذلك يتطهرون من البقايا وتتكمل فيهم المزايا، وكيف يساكنون الخلق باعتماد أو يميلون إليهم بإسناد، فإذا تمت أنوارهم، وتطهرت من البقايا أسرارهم، حكّمهم في العباد وأذلّهم لهم، فيكون العبد المجتبى سيفاً من سيوف الله ينتصر الله به لنفسه كما نبّه على ذلك في لطائف المنن، وذلك من أسرار عدم مشروعية الجهاد من أول الإسلام والأمر بالصبر تشريعاً لما ذكرنا وتحذيراً من الانتصار للنفس أو عدم تمحيص النصرة للخلق، وعند الرسوخ في اليقين والأمن من مزاحمة التصديق دفع في الإذن بذلك. هذا بالنسبة للصحابة الكرام رضي الله عنهم، وأما النبي ﷺ فكامل من أول نشأة على التقويم الأول في فطرته فذلك تشريع لا غير في حقه، وتعظيم وترفيع لرتبته.

على أنه قد تقدم: أتم طريق السلوك إلى الإمداد بأوصاف الخلق تحقق العبد بأوصافه، والذل من وصفه. فالحق تعالى يتولى تدريجه في ذلك فما يواجهه به من اقتضاء الخلق له وجفاهم، ليتأهل للاعتزاز بربه واليأس من خلقه. فسبحان المدبّر الحكيم اللطيف.

* * *

قوله: «وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا» وهذا أيضاً لأن من استحلى حالاً أو ساكن مقاماً، فمن سنّة الله مع أوليائه تشويش ذلك عليهم، وهو من غيرته تعالى على

قلوبهم لئلا تتأله لغيره، ولئلا تتغير بسواه. وقد تقدم في الحزب «واجعلنا عبيداً لك في جميع الحالات» وشتان بين من يعبد ربه لربه وبين من يعبده لقلبه.

وقد قال أبو الوفا الشريف المقدسي رضي الله عنه «قد يسلب الولي الحال بغير قطيعة من الحق ليزداد بذلك فقراً إلى الله عزّ وجل وتواضعاً وفاقة ومعرفة بعجزه وضعف نفسه وهو باب الفقه في علم الأحوال» انتهى.

قال في نوادر الأصول «عن أبي ذر رضي الله عنه أن الله يقول: يا جبريل انسخ من قلب عبدي المؤمن الحلاوة التي كان يجدها، قال: فيصير العبد المؤمن والهاً طالباً للذي كان يعهده من نفسه، نزلت به مصيبة لم ينزل به مثلها قط، فإذا نظر الله إليه وهو على تلك الحالة قال: يا جبريل رد إلى قلب عبدي ما نسخته منه فقد ابتليته فوجدته صادقاً وسأمده من قبلي بزيادة» انتهى.

* * *

قوله: «تصحبه أنوار محبتك» يعني أنه إن لم يكن كذلك، كان طرداً عن باب الله وإدباراً عنه، وهو غير السلب عياذاً بالله، كيف والعبد لا صبر له عنه ولا براح له عن بابه. واعتبر بالذي كان يقول مدة مديدة لبيك وسعديك، فيجاب بلا لبيك ولا سعديك، ومع ذلك لم يقطعه ذلك عن الإقبال والتمادي عليه في كل حال. ولكن الحق تعالى اختبره وأظهر صدقه في ذلك ظاهراً واجتذبه وأمدّه بتأييده باطناً، فلم يكن طرداً بل تخليصاً وتخصيصاً.

وقد قال سيدي علي بن وفا رضي الله عنه في جملة أبيات:

ونحن على العهد نرعى الذمام ... وعهد المحبين لا ينقضي
صددت فكنت مليح الصدود ... وأعرضت أفديك من معرض
وفي حالة السخط لا في الرضا ... يبين المحب من المبغض

وقال غيره:

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه ... وإن بات من ليلى على اليأس طاويا

وقال في لطائف المنن: «لا تفقد الوقت بظهور الواردات، ولا بكثرة الطاعات ولكن انظر إلى ثقتك بالله، وإجلاك لأوامر الله، وترك الاختيار مع الله، فإن وجدت ذلك عندك ـ ولا يوجد واحد منها إلا وجد بقيتها ـ فاعلم أن لله بك عناية أبداها، وودائع أخفاها، فاشكره على ما أسدى، واحمده على ما أهدى» انتهى.

يعني أن ذلك شواهد العبودية المطلوبة من العبد ظاهراً وباطناً، وذلك حق، والتطلع للوارد حظ العبد، وكونه بحظ ربه أولى وأسلم له من كونه بحظ نفسه، بل ربما كان ذلك ممكوراً به ومقتطعاً بسببه، اللهم سلّم سلّم يا سلام.

وقد قال عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]:

قال: «على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس»[١].

قال في نوادر الأصول[٢]: «فالبر ما افترض الله على العبد، والتقوى هو ما نهاه عنه، والتواضع أن يدع مشيئته لمشية الله عزّ وجل، وذلة النفس ترى المنى في عطاياه في الدرجات، وفي إقامة هذه الأربعة صفو العبودية، فهو عبد الله ورسوله، أرسله إلى الخلق على طريق العبودية لله، وذلك بالسلامة من الشعور بالنفس، فلا يتكلف من تلقاء نفسه شيئاً، ولا يريد لنفسه شيئاً، فهو لله وبالله» انتهى.

(١) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول، الأصل الخامس والخمسون والمائة في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عِمرَان: ٣١] [ج٢ ص٢١٦].

(٢) انظر الهامش السابق.

والسعيد حقًا من أغنيته عن السؤال منك والشقي حقًا من حرمته مع كثرة السؤال لك فأغننا بفضلك عن سؤالنا منك ولا تحرمنا من رحمتك مع كثرة سؤالنا لك إنك على كل شيء قدير.

ونسألك عز الدنيا والآخرة كما سألك نبيك سيدنا محمد ﷺ عز الدنيا بالإيمان والمعرفة وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة إنك سميع قريب مجيب.

اللهم إني أقدّم إليك بين يدي كل نفس ولمحة وطرفة يطرف بها أهل السموات وأهل الأرض وكل شيء هو في علمك كائن أو قد كان أقدم إليك بين يدي ذلك كله الله لا له إلا هو الحي القيوم.. إلخ.

روضة الحزب

- الغنى عن السؤال من الله... والسعادة الحقة
- متابع القرآن يجار من شقاء الدنيا والآخرة
- إحسان الظن بالله إذا تأخرت الإجابة
- عز الدنيا والآخرة
- روضة الحزب.. وآية الكرسي

قوله: «**والسعيد حقاً من أغنيته عن السؤال منك. والشقي حقاً من حرمته مع كثرة السؤال لك**» قال في نوادر الأصول «الشقاوة فراق العبد من الله، والسعادة اندساسه إليه» اهـ.

وفي دعاء لواضع الحزب رضي الله عنه «أسألك بذاتك سعادة لا شقاء معها بمطالعة غيرك إنك على كل شيء قدير» وسيأتي له آخر الحزب «واقرب مني بقدرتك قرباً تمحق به عني كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك، فلم يحتج لجبريل رسولك، ولا لسؤاله منك».

وقال في الحكم «وأغنني بفضلك حتى أستغني بك عن طلبي» ومدار السعادة على الجمع على الله، والغيبة عمن سواه، فيفنى العبد عن وجوده، ويبقى بربه، فيشغله استغراقه في شهوده عن الشعور بغيره وينمحي منه أمل كل شيء يرجى، أو خوف كل شيء يتقى، فليس له عن سوى الحق اختيار، ولا مع غيره قرار، وعندما حلّ بهذه الحضرة وظفر بِقُرّة عينه وحياة روحه وسر حياته لاي تصور منه سؤال ولا فوات مأمول «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك».

«**اشتاقت الجنة إلى علي وعمار وسلمان وصهيب وبلال**» كما في الأثر. نعم إن رد إليه يتصور منه الدعاء على وجه العبودية، وأداء الأمر وإظهار الفاقة والعجز لا على وجه الاقتضاء والسببية، بل حكم الأزل أن يضاف إلى الأسباب والعلل وعلى ما تقرر في العادة. فالشقاوة احتجاب العبد بوجوده عن شهوده، فلا ينفك عن أمل، ولا عن خوف عطب، فيستحسنه الطبع للسؤال جلباً أو دفعاً، وهو مع ذلك في شقاء، سواء أعطى أو منع لفقده قرّة عينه وراحة قلبه، لأسره في طبعه، ومكابدة أمره وهلعه، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعَارج: ١٩ر ـ ٢٣] فليس ينهش من ذلك الطبع ومكابدته وعناه، غير أهل الصلاة الدائمة وهم أهل الوجهة لله الموجهين بعناية الله المحققين بذكر الله وقد ورد «**هم القوم لا يشقى جليسهم**» فضلاً عنهم.

وعلى الجملة فالمراد بالشقاوة والسعادة في كلامه، الباطنة لا الظاهرة، والأمر القلبي لا القالبي، وإن كان قد يطلق في ذلك أيضاً «لكن لكل مقام مقال» وقد قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وقال في نوادر الأصول: تابع القرآن قد أجير من شقاء العيش في الدنيا لراحة قلبه من غموم الدنيا وظلماتها وسيره في الأمور بقلبه في راحة لأنه منشرح الصدر واسع البال، وبدنه في راحة لأنه ميسر عليه أمور الدنيا تتهيأ له في يسر لضمان الله له، واكتنافه به، وكذلك يجار في الآخرة من شقاء العيش في سجون النيران أعاذنا الله منها.

وإذا أحطت علماً بما ذكرنا، فلا التفات لمن تعقب على الإمام الشاذلي رضي الله عنه في قوله «فالسعيد حقاً من أغنيته عن السؤال منك» فإن الدعاء عبادة لا يستغني أحد عنها، ويكفي في الرد عليه حالة الخليل عليه السلام، وتحقيق الأمر أنه إن غلبت عليه الحقيقة لا يتصور سؤال، وإن غلبت عليه الشريعة أورد إليها سؤال العبد على وجه إظار العبودية في الخضوع لا على وجه الاقتضاء.

قال في نوادر الأصول: أهل اليقين قد يدعون ويلحون وهم في ذلك ساكنون مطمئنون ينتظرون مشيئة الله، فإن أجاب قبلوا، وإن تأخر صبروا، وإن منع رضوا وأحسنوا الظن، كما قال أبو حبيب البدوي لسفيان «منع الله إياك عطاء منه لك، وذلك أنه لم يمنعك من بخل ولا عدم، وإنما منعك نظراً واختباراً» انتهى.

وأما السؤال لا على وجه العبودية، فهو معلول عند العارفين الموحدين سواء كان متعلقاً بالحق أو بالخلق.

* * *

قوله: «كما سألك نبيك محمد ﷺ» ورد في غيرما حديث سؤال العِزّ والتعوذ من الذل وورد طلب النصر كثيراً والثناء على الله بكونه «نصر عبده وأعزّ جنده» وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: ٣].

وقال في نوادر الأصول: «على قدر تذلل العبد لله وترك مشيئته لمشيئة الله تعالى في الأحوال كلها يستوفي الحظ من تلك العزة والقوة» انتهى.

وفي الحكم: «تحقق بوصفك يمدك بوصفه»، وذلك ثمرة الإيمان وطريق المعرفة التي هي جزئية من الهوى.

وقد قال الإمام الشاذلي رضي الله عنه «سألت أستاذي عن قوله عليه السلام: **«المؤمن لا يذل نفسه»**[1] فقال: لهواه، بل يذلها لمولاه». وإليه يرجع كلام صاحب الحكم والله أعلم.

* * *

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

قوله: «اللهم إني أقدم إليك.. إلخ» قال في نوادر الأصول: لقي جبريل موسى عليهما السلام فقال جبريل: «إن ربك يقول لك من قال دبر كل صلاة مكتوبة مرة «اللهم إني أقدم إليك بين يدي كل نفس ولمحة وطرفة.. إلى العلي العظيم»، فإن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ليس منها ساعة إلا ويصعد إليّ منه فيها سبعون ألف حسنة حتى ينفخ إسرافيل في الصور وتشتغل الملائكة. قال أبو عبد الله الحكيم الترمذي جملنا حساب ليلة فبلغ ثمانمائة ألف ألف وأربعين ألف ألف وبالنهار مثله فذلك ألف ألف ألف وستمائة ألف ألف وثمانون ألف ألف. هذا ليوم وليلة فحقيق أن تشتغل الملائكة بذلك.

فأما معنى قوله «أقدم إليك بين يدي هذه الأشياء» أجمل ذكرها لعجزه عن إحصائها على الانفراد، فقال «أقدم إليك بين يدي هذه الأشياء أنه لا إله إلا هو» كأنه يؤدي معناه إلى أنه قديم لم يزل قد كان قبل هذه الأشياء التي أجمل ذكرها فقد كان يجمع هذه الصفات التي وصف بها نفسه في هذه الآية» ا.هـ.

ومقتضاه أن آية الكرسي كانت لموسى عليه السلام وهو خلاف حديث أبي أمامة عن علي عنه ﷺ قال: «أعطيت آية الكرسي من كنز تحت العرش ولم يؤتها نبي قبلي» أخرجه أبو القاسم بن الطيلساني في مسلسلاته.

ونقل عن سيدي أبي عبد الله بن عباد وهو الحاج الصالح الواعظ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم الأرموي الرندي رحمه الله قال: كنت مسنداً ظهري إلى مقام إبراهيم عليه السلام وذلك في يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وستمائة وأنا أقرأ هذا الحزب، فأغفيت أي نمت ونعست، فرأيت كأن نسختي التي حفظتها بين يدي، وإذا سطر مكتوب على هذا الفصل لم أعهده في نسختي فقرأته ولم يبقَ في خلدي منه يعني بالي بعد اليقظة إلا هذا الفصل «روضة هذا الحزب» وما بعده من كلام ذهب مني في اليقظة، فحدثت بذلك بعض إخواننا من أهل الخير فأثبتوها في نسخهم وأعجبوا بذلك وسُرَّ به شيخنا أبو الطيب سروراً عظيماً ومنتهاه عند قوله «فإنك بكل شيء عليم».

* * *

قوله: «وكل شيء هو في علمك كائن» يقرأ بجر «كل» كما رأيته مضبوطاً بخط سيدي عبد النور عطفاً على ما قبله المخفوض بإضافة (يدي) إليه.

أقسمت عليك ببسط يديك وكرم وجهك ونور عينيك وكمال أعينك أن تعطينا خير ما نفذت به مشيئتك وتعلقت به قدرتك وأحاط به علمك واكفنا شر ما هو ضد لذلك واكمل ديننا وأتمم علينا نعمتك وهب لنا حكمة الحكمة البالغة مع الحياة الطيبة والموتة الحسنة وتولَّ قبض أرواحنا بيدك وحل بيننا وبين غيرك في البرزخ وما قبله وما بعده بنور ذاتك وعظيم قدرتك وجميل فضلك إنك على كل شيء قدير.

أقسمت عليك..

- التوسل برسول الله
- صلاة الحاجة
- مالك بن دينار.. وتوسل العبد بحب الله له
- التوسل بالأولياء
- التوسل بصفات الله
- خطبة علي كرّم الله وجهه لبنت أبي جهل
- مقام الخلة والدلال
- حجاب الله عزّ وجل
- النبي وجبريل ليلة المعراج
- السيد البدوي ولثامه
- ما هي الحياة الطيبة
- الله يقبض أرواحنا بيده
- آية الكرسي دبر الصلوات
- طلب الاستغراق والشهود

(قوله أقسمت عليك) جاء في بعض الأحاديث أنه عليه السلام علّم الناس الدعاء فقال: «اللهم إني أقسم عليك بنبيك محمد نبي الرحمة».

قال عز الدين: فإن صحّ فينبغي أن يكون مقصوراً عليه لأنه سيد ولد آدم ولا يقسم على الله بغيره.

قال البرزلي «وكان شيخنا الفقيه ـ يعني ابن عرفة قدّس الله روحه ـ يختار الجواز، ويحتج بسؤال عمر رضي الله عنه بالعباس في قصة الاستسقاء ويقول العبد الذي استسقى بالبصرة بحبك لي إلا ما سقيتنا الساعة وقال الحطاب «إنما هذا توسل وهو عين القسم» انتهى.

ولعل موضوع الخلاف بينهما بعد اتفاقهما في حمل القسم في الحديث على التوسل، كما ورد في طريق آخر «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة. . .» أنه هل يجوز التوسل بغير النبي عليه السلام؟ فأجازه الإمام ابن عرفة محتجاً بقصة الاستسقاء وغيره، ومنعه ابن عبد السلام.

وأما القسم فلا يجوز بحال بغير الله خلافاً للإمام ابن حنبل ومن تبعه. وأما كلام الحطاب ففيه نظر من حيث جعل القسم على حقيقته وفهم أن الخلاف في ذلك، ولذلك ردّ استدلال ابن عرفة ويشهد لما ذكرناه من أن الخلاف إنما هو في التوسل بغير النبي ما وقع في المعيار في جواب لأبي القاسم العبدوسي بعد ذكره أن الحي ينتفع بالميت في الزيارة، قال «لكن هل يتوسل به إلى الله فيقول بحق هذا الصالح افعل بي كذا؟ هكذا نص معروف الكرخي رضي الله عنه في الحلية وإنما يعتقد أن البقعة بقعة مباركة يدعو الله فيها من غير توسل، هذا هو الذي عمل عليه الشيوخ. انتهى.

وعلى التوسل يحتمل ما في رسالة القشيري رضي الله عنه عن معروف الكرخي رضي الله عنه قال: «من كانت له إلى الله تعالى حاجة فليقسم عليه به».

وكذلك وجد بخط الإمام أبي العباس المرسي قدس الله سره عن شيخه الإمام الشاذلي أنه كان يقول له «إذا عرضت لك إلى الله حاجة فاقسم عليه بي».

كل ذلك بمعنى التوسل. . . وأما ما وقع في توسل الحزب من قوله (أقسمت عليك ببسط يديك وكرم وجهك. . إلخ) فهو قسم بصفات الله تعالى، فهو على

حقيقته، ولكنه خاص بالمحبوبين المدللين على الله عزّ وجل كما يشير إليه حديث «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه»[١].

ويحتمله حديث «والله لا تجتمع بنت عدو الله مع بنت حبيب الله أبداً»[٢] في قصة خطبة علي كرّم الله وجهه بنت أبي جهل على فاطمة البتول رضي الله عنها.

وقد قال الحاتمي رضي الله عنه «إن لله عباداً يتحكمون عليه فيما يخطر لهم فيجيبهم إلى ذلك، وذلك لمعرفتهم به حيث أحضر لهم ذلك، فهو المتحكم غيباً وهم المتحكمون عيناً» انتهى.

وقد نقل في القوت في آخر كتاب المحبة حيث تكلم عن الخلة عن الجنيد أن العبد في هذا المقام يعلم أن الله يحبه، ويقول العبد بحقي عليك وبجاهي عندك ويقول بحبك لي. قال: وهؤلاء مدللون على الله عزّ وجل، ومستأنسون به، وهم جلساء الله وقد رفع الحشمة بينه وبينهم، وزالت الوحشة بينه وبينهم، علموا أن الله يحبهم وأن لهم عنده جاهاً ومنزلة، فضلاً منه تعالى وفرط كرم أو كما قال وهذا خارج عن الفتوى ولا يعرفه غير أهله، وبالجملة فلا يكون الإدلال والقسم إلا عن استغراق واستهلاك في الحقيقة بحيث يكون صاحب تلك الحالة مترجماً عن ربه بربه، وليس لغيره ذلك إلا على سبيل التلاوة لأذكاره، والحكاية عنه. والله أعلم.

* * *

(قوله ببسط يديك) هذا الإطلاق معلوم من الشرع من قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ومن الحديث من قوله: «يا باسط اليدين بالرحمة» وغير ذلك. والتنزيه ونفي التشبيه معلوم، وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص: ٤]. ثم يبقى بعد ذلك، إما التفويض إن بقي بعد التنزيه وصف المعنى المستحيل في حقه تعالى أكثر

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب الصلح في الدية، حديث رقم (٢٥٥٦) [ج٢ ص٩٦١] ومسلم، باب إثبات القصاص. . ، حديث رقم (١٦٧٥) [ج٣ ص١٣٠٢]. ورواه غيرهما.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن أسامة بن زيد كان. . ، حديث رقم (٧٠٦٠) والنسائي في السنن الكبرى، ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لهذا الخبر، حديث رقم (٨٥١٨) ولفظ رواية ابن حبان هي: عن المسور بن مخرمة أن علياً خطب ابنة أبي جهل فوعد النكاح فأتت فاطمة النبي ﷺ فقالت: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك وإن علياً خطب بنت أبي جهل فقال النبي ﷺ: «إنما فاطمة بضعة مني وإني أكره أن يسوءها» وذكر أبا العاص بن الربيع فأحسن عليه الثناء وقال: «لا يجمع بين بنت نبي الله وبين بنت عدو الله».

من محمل واحد وهو المختار ومذهب السلف الصوفية، وإما التأويل وهو مذهب إمام الحرمين والخلف.

وعليه فإطلاق بسط اليدين تصوير لغاية الكرم وبمالغة في الوصف بالجود وتثنية اليد لإفادة الكثرة، إذ غاية البذل في السخي أن يعطي بيديه جميعاً.

* * *

(وأما قوله وكرم وجهك) فينبغي به جماله وكماله. ووجهه ما يعرف به من تجليات الذات لخصوص عباده.

هذا وقد قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٧].

وفي الحديث الصحيح **«حجابه النور - وفي رواية النار - ولو كشف عنها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره من خلقه»**(١) أي لأحرقت سطوة أشعة هذا النور الوجهي وقوة غلبة سناه لسلطنة وحدتها وجلالها وغلبة إطلاق جمالها نسبة وإضافة وكثرة منسوبة إليها، يدركها نور بصره الإلهي، إما إلى عدم محض من حيث الوجود ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] ولولا أن ربط الله على قلبه لزهقت روحه وتلاشى فؤاده، وانمحى حسبه ووجوده، لكنه تعالى برحمته، إنما وجّه قلبه باليسير من نور أحديته إبقاء عليه.

ثم المتجه في رواية النار أنها نار الشهوة والطبع المبعد للعبد من ربه، وأما رواية النور فقيل نور الجلال المانع من الابتذال.

والحاصل أن الحجاب، إما للنقص البشرى المشار إليه بالنار، وإما الكبرياء والجلال بعد الخروج من ذلك «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه» فلو كشف ذلك كشفاً تاماً لتدكدكت الموجودات بأسرها، وإنما يكشف من ذلك لمن يشاء بعد تقويته، وإمداده بنوره على حسبه وقدره والله أعلم.

قال الحاتمي: «اعلم أن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة، ولو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه. فلهذا نرى الحق من غير الوجه الذي يرانا، وإنما يقع الاحتراق والأثر إذا وقعت الرؤية من وجه واحد، وهو وقوع البصر منك على المبصر. وقد أوجد الله تعالى في هذه الدار مثلاً لهذا المقام على عزته وعلوه،

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

فخلق دابة تسمى (الصل) بكسر الصاد وهي حية إذا وقع بصر الإنسان عليها، ووقع بصرها عليه على خط واحد، فاجتمعت النظرتان، مات الإنسان من ساعته» انتهى.

لكن قال الإمام الأبي في شرح مسلم «ما يشار إليه من الحجب بالظلمة وتكثير الجب لم يروَ من طريق صحيح».

ثم قال ابن العربي رضي الله عنه ولم يصح في الباب غير ما في مسلم من كونه حجابه النور.

وفي رواية النار كما تقدم، قال الحسن: لا يدرك غيره لعدم صحته، وإنما تكلم العلماء عليها خوف اعتقاد ما لا يليق (انتهى).

ثم اتفق أهل العلم والمعرفة أن الحجاب على الخلق معنوي عقلي لا حسي، كما اتفقوا أنه لا يعرف بالكنه وإنما يعرف بوجه من التعريف لا بكيف، والله أعلم.

ثم إطلاق الوجه وارد كتاباً وسنة كما تقدم، وجاء في التعوذ في السنة «أعوذ بوجه الله الكريم»(١) وإنما اختلف المتكلمون في إطلاق ما ورد في القرآن من المشكل في غيره، وقد أجازه القلانسي وجماعة من المحدثين والفقهاء. فمن هنا جاز ذلك والله أعلم.

* * *

قوله: «ونور عينك» هو على التأويل أيضاً، إما عبارة عن إدراك البصر وكشفه، وإما عبارة عن الكلاءة والحفظ كما قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] أي على رعايتي وحفظي.

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى، ذكر ما يكب العفريت ويطفىء شعلته، حديث رقم (١٠٧٩٢) [ج٦ ص٢٣٧] والطبراني في المعجم الأوسط باب من يعرف بالكنى وغير ذلك، حديث رقم (٤٣) [ج١ ص١٨] ومالك في الموطأ، باب ما يؤمر به من التعوذ، حديث رقم (١٧٠٥) [ج٢ ص٩٥٠] ولفظ هذا الحديث هو: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ ليلة الجن وهو مع جبريل وأنا معه فجعل النبي ﷺ يقرأ وجعل العفريت يدنو ويزداد قرباً فقال جبريل للنبي ﷺ: ألا أعلمك كلمات تقولهن فيكب العفريت لوجهه وتطفىء شعلته قل أعوذ بوجه الله الكريم وكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار ومن شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمٰن فكبّ العفريت لوجهه وانطفأت شعلته».

وفي الحديث «اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام»[١].

وفي حزب البحر «وعين الله ناظرة إلينا».

والرواية هنا بإفراد «عين» لا بتثنيتها.

وقد قال ابن عطية «وقفت الشريعة على أعين وعين ولا يجوز أن يقال عينان من حيث لم توقف الشريعة على التثنية» انتهى.

* * *

«وكمال أعينك» جاء في تفسير قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القَمَر: ١٤] أي بأمرنا، وقيل بأوليائنا، والمقسم على الأول على حقيقته، وأما على الثاني فإما أن يحمل على التوسل كما تقدم، أو يقال إنما وقع القسم هنا بكمالهم، وهو ما انكشف لبصائرهم من جمال الحق وقدس كماله ووصفهم البشري، وهو مغمور ومغطى بذلك، وإلى ذلك يشير ما ورد من قولهم «الشأن أن تكون عين الاسم»، و«أصابتك عين من عيون الله»، والخطاب من عمر في حق علي رضي الله عنهما حيث أتاه رجل والدم يسيل من شجته، فقال: «ويحك من فعل بك؟» فقال «علي» قال علي «رأيته مفاوضاً امرأة فأصغيت إليهما فساءني ما سمعته فشججته» فقال عمر للرجل «أصابتك عين من عيون الله، وإن لله في الأرض عيوناً»، وفي رواية «فلم أملك حتى ضربته، فقال عمر: أيها الرجل... إلخ»[٢].

---

(١) رواه الأصفهاني في حلية الأولياء [ج٨ ص٤]. وهو من كلام إبراهيم بن أدهم ونصه: عن خلف بن تميم قال: كنا مع إبراهيم بن أدهم في سفر له فأتاه الناس فقالوا: إن الأسد قد وقف على طريقنا قال: فأتاه فقال: يا أبا الحارث إن كنت أمرت فينا بشيء فامض لما أمرت به وإن لم تكن أمرت فينا بشيء فتنح عن طريقنا قال: فمضى وهو يهمهم فقال لنا إبراهيم بن أدهم: وما على أحدكم إذا أصبح وإذا أمسى أن يقول: اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واحفظنا بركنك الذي لا يرام وارحمنا بقدرتك علينا ولا نهلك وأنت الرجاء، قال: إبراهيم: إني لأقولها على ثيابي ونفقتي فما فقدت منها شيئاً حدثنا أبو محمد بن حيان ثنا أحمد بن الحسين ثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ثنا خلف بن تميم حدثني عبد الجبار بن كثير قال: قيل لإبراهيم بن أدهم هو هذا السبع قد ظهر لنا فقال: أرنيه قال: فلما نظر إليه ناداه يا قسورة إن كنت أمرت فينا بشيء فامض لما أمرت به وإلا فعودك على بدئك قال: فضرب بذنبه وولى ذاهباً قال: فعجبنا منه حين فقه كلامه ثم أقبل علينا إبراهيم فقال: قولوا اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام اللهم واكنفنا بكنفك الذي لا يرام».

(٢) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول [ج٢ ص٢٣٦].

وورد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في قصة أخرى «لا أقيه من وزغة الله».

وذلك إشارة منهم لرجال القبضة المتصرفين بالله، وأهل البصائر الأمناء على أسرار الله في خلقه ومملكته.

وقد أورد ذلك صاحب نوادر الأصول في حديث التقرب، وأنه يشير لقبضته تعالى، فيستعمل أهله بالرحمة تارة وبالعدل والحق تارة أخرى. وكان أبو بكر رضي الله عنه من أهل الرحمة، ولذلك ورد أنه يقف عند باب الجنة يدخل الناس، وكان عمر رضي الله عنه من أهل العدل والحق، ولذلك ورد أنه يقف عند الميزان ثم قال: ومن معنى الحديث قول عمر رضي الله عنه، ثم ذكر عنه ما تقدم في حق علي كرّم الله وجهه.

* * *

قوله: «حكمة الحكمة البالغة» هي العلم النافع المؤدي إلى العمل والإصابة في الأمور.

* * *

قوله: «مع الحياة الطيبة» قيل القناعة والرزق الطيب الحلال والصواب كونها أعم حتى تصدق بسقوط الخوف بالنظر إلى الحق دون ما سواه والرضا به وعنه، ووجود الكفاية وتحقق الخلافة بإعطاء الكرامة والتمكين في الأرض على حسب المراتب والله أعلم.

* * *

قوله: «وتول قبض أرواحنا بيدك» هذا كما قيل في الأخفياء من الأولياء الذين يختص الله تعالى بعلمه أن يتولى قبض أرواحهم بيده فتطيب أجسادهم به فلا يعدي عليها حتى يبعثوا بها مشرقة بنور البقاء المجبول فيهم ببقاء الأبد مع الباقي الأحد عزّ وجل.

وقد ورد في الخبر «من واظب على قراءة آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة ـ وسقط لفظ مكتوبة في نوادر الأصول ـ كان الذي يتولى قبض روحه ذو الجلال والإكرام سبحانه» والمراد بذلك صفاؤها بالتجلي واستغراقها في الشهود واستهلاكها في الحب واستئصالها بالغيبة وسلب الشعور بالغير، وفي ذلك غاية منتهى أمنيتها كما أشار بذلك العارف ابن وفا رضي الله عنه بقوله:

من مات قبل الهنا ولـه الحياة بلا عنا
إن المنية في الهوى عند المحب هي المنى

وله أيضاً رضي الله عنه:

إن الذين أحبهم أهل الوفا من مات فيهم عاش عيش وفاء
تلقى بهم سبب الحياة بروحهم يا حبذاك منيتي بمناء

وله أيضاً رضي الله عنه:

يا فنائي وسلوي جملة لكما ما دون حبي فخذا
ليس لي في غير حبي حاجة أيها الغير تنحى هكذا
أنا وصلي بحبيبي راحتي فالذي يشغلني عنه إذا
فإذا غبت عن الغير بمن هو محبوبي تحققت إذا
لم يكن في الحي حي بعد من روحه تنشق من حبي شذا
كل شيء دون حبي هالك فحياة الكل حبي حبذا
يا حبيبي ووجودي والذي بوفاه لفؤادي آخذا
أنت لي روح وحب وهوى وحياة وشراب وغذا

* * *

قوله: «وحل بيننا وبين غيرك.. إلخ» هو كقول شيخه وأستاذه عبد السلام رضي الله عنهما في صلاته المشهورة «واجمع بيني وبينك وحل بيني وبين غيرك» وذلك يكون بغيبة العبد عن وجوده واستغراقه في نور شهوده كما أشار إلى ذلك الإمام الجنيد رضي الله عنه بقوله:

وجودي أن أغيب عن الوجود لما يبدو عليّ من الشهود

وللأستاذ رضي الله عنه في مقطعاته وأزجاله:

أنا حين أخلو بمحبوبي أغيب عن الوجود
وأقرأ سر مكتوبي في سورة العقود

يعني قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤] لأن جميع ما يشيرون إليه ويغتبطون به إنما هي أسرار المحبة الحقيقية وفيها ما يدق ويضيق عنه نطاق البيان وإنما هي رموز وإشارات يعرفها أهلها ذوقاً ووجداً إلا أنها توجد فتعلم، ولا تعلم

فتوجد وإنما سبيل غيرهم أن يسلم لهم، ويؤمن بمواهب مولاهم لهم، وتخصيصهم بما به تولاهم، رزقنا الله حبهم، ومَنَّ علينا بالانتظام في سلكهم والسكون معهم.

* * *

قوله: «بنور ذاتك» يعني بظهورها للبصائر وتمكن سرها من الذوات الكوامل وذلك بنفي الشعور بالإثنينية كما أشار إلى ذلك ابن وفا رضي الله عنه بقوله:

إن تلاشى الحجاب عن عين كشفي ... شهد السر غيبه في بياني
فاطرح الكون عن عيانك وامح ... نقطة الغين إن أردت تداني

فقد لوّح إلى سر العيان، وهو ما يخرس عنه اللسان، وهذه الأسرار بذل الأرواح فيها أقل مهرها.

هب لنا مشاهدة تصحبها مكالمة، وافتح أسماعنا وأبصارنا، واذكرنا إذا غفلنا عنك بأحسن مما تذكرنا به إذا ذكرناك وارحمنا إذا عصيناك بأتم مما ترحمنا به إذا أطعناك. واغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها وما تأخر والطف بنا لطفاً يحجبنا عن غيرك ولا يحجبنا عنك.

اللهم إنا نسألك لساناً رطباً بذكرك وقلباً منعماً بشكرك وبدناً هيناً ليناً بطاعتك.

وأغننا بلا سبب واجعلنا سبب الغنى لأوليائك، وبرزخاً بينهم وبين أعدائك.

المشاهدة والمكالمة.. والكرامات الثلاث

- مقام المشاهدة والمكالمة
- أبو يزيد يفتش عن أبي يزيد
- كيف يُسمع الله كلامه لأوبيائه وأوليائه
- الولي يأخذ بواسطة روحانية النبي ﷺ
- سؤال الفضل بلا علة
- الكرامات الثلاث
- غنى بلا سبب وبرزخ بين الأولياء والأعداء
- ذو القرنين وأهل التمكين أو التصريف
- درجة الاتحاد والإنصاف.. ودرجة الكمالات والكرامات

قوله: «وهب لنا مشاهدة تصحبها مكالمة» قال الإمام القشيري في تفسيره «اعلم أن علم العبد بنفسه ضروري وعليه ينبني كل علم استدلالي، فإذا غلب ذكر الله عليه تناقض علمه بنفسه وصار علمه بالله تعالى ضرورياً لانتهائه لحالة المشاهدة، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه، ويقل عند ذلك إحساسه بنفسه حتى يصير علمه بنفسه، كالاستدلال لما صحبه من الغفلة عن نفسه والنسيان لها، كالغريق في الشيء إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه ومستهلك لديه» انتهى.

وإلى هذا المعنى تشير حكاية أبي يزيد[1] المشهورة حيث سئل عن نفسه فقال (أنا أفتش عن أبي يزيد) فبلغ ذلك بعضهم فقال «ذهب أبو يزيد في الذاهبين إلى الله تعالى» يعني كما قال الخليل عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصَّافات: ٩٩] فأخبر بأن الهدى بعد ذلك. وإنما الهدى هدى الله، فيكون في أول الأمر ذاهباً إلى الله عزّ وجل عن عوامل البشرية والشعور بالغير كسير البرد على السحاب، ثم بعده الذهاب في الله وهو الاستغراق فيه، ولكنه يكون أولاً كالبرق الخاطف لا يدوم، فإن دام طولع بالوجود الحقيقي وكوفح بشهود الحق على الإطلاق.

* * *

هذا وقد قال الورتجيني في تفسيره «إذا أراد الله عزّ وجل أن يسمع كلامه أحداً من أنبيائه وأوليائه أعطاه سمعاً من أسماعه، فيسمع كلامه، كما حكى عليه الصلاة والسلام عن ربه عزّ وجل أنه قال: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به»[2] وليس هناك الحروف والأصوات بل يسمعه بحروف القدرة وصوت الأزلية الذي هو منزّه عن همهمة الأنفاس وخطرات الوسواس، وليس في ولاية الأزل من رسوم أهل الإجلال شيء حتى أن هناك السامع والمسمع واحد من حيث المحبة لا من حيث الجمع والتفرق» انتهى. يعني أن مدد الحب يسلب غلبة حكم الامتياز والغيرية.

وبالجملة فإمدادات الغيب الجارية في العبد وعليه، منها الخطاب وبها الجواب، كان المكلِّم والكليم واحداً، ولا شعور للعبد بذلك ولا نسبة له فيما هنالك إلا كالمرآة المعلقة إن فرضت لها شعوراً بما يظهر فيها مثلاً، فإنها آلة لا غير ومظهر لما يلوح فيها.

* * *

(١) أي أبا يزيد البسطامي طيفور بن عيسى المولود سنة ١٨٨هـ والمتوفى سنة ٢٦١هـ.
(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

وقد نبّه الحاتمي رضي الله عنه على نكتة ينبغي الاحتفاظ عليها حيث قال:

«اعلم أن كل ولي لله تعالى فإنه إنما يأخذ ما يأخذ بواسطة روحانية النبي ﷺ، فمنهم من يعرف ذلك، ومنهم من لا يعرفه ويقول قال لي الله وليس غير تلك الروحانية» انتهى.

وهو موافق لما أشار إليه سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه حيث قال: «إن الولي إنما يكاشف بالمثال، يعني كما يرى مثال البدر في الماء بواسطته، وكذلك الحقائق الغيبية والأمور الإشهادية مجلوة وظاهرة في بصيرة النبي ﷺ وله عياناً لا مثالاً، والولي لقربه منه ومناسبته له ولهديه بهديه، ومتابعته له يكاشف بمثال ذلك فيه، فظهر الفرق وثبتت مزية النبي عليه السلام وانتفى اللبس بين النبوة والولاية، وصحّ ما أطلق عليه الأولياء من المحادثة والمكالمة، وقولهم: «قيل لي ونوديت في سري» وقد أشرنا إلى هذا المعنى في الكلام على الإذن ووعدنا باستيفائه، وإذا أحطت بهذا كله علماً، تحققت واسطة النبي ﷺ وبرزخيته على الإطلاق في الغيب والشهادة، وذلك معلوم لأهل الله ذوقاً، ومتحقق عندهم كشفاً، والله أعلم.

هذا وإنما طلب واضع الحزب رضي الله عنه مصاحبة المكالمة للمشاهدة لعزازة ذلك واختصاصه بأهل الكمال من الأولياء، والغالب من أحوال الأولياء انفراد أحدهما عن الآخر أو تعاقبهما كما هو مشاهد من أحوال الفقراء بالاستقراء هذا وقد قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٦] قال بعض العارفين من المفسرين: جنة المشاهدة وجنة المكالمة في الدنيا، ومرجع ذلك لفتح الشريعة والحقيقة والله أعلم.

* * *

قوله: «واذكرنا إذا غفلنا عنك بأحسن مما تذكرنا به إذا ذكرناك وارحمنا إذا عصيناك.. إلخ» يعني لنشهد بذلك وصف الفضل منك بلا علة ومن غير استحقاق فتفتننا بك لا بالأغيار ونزداد محبة فيك وغبطة بك واعتماداً عليك، ونبرأ من الاعتداد بالأحوال والاعتماد على الأعمال وسائر الأسباب.

وقد قال واضع الحزب رضي الله عنه «ما سألت الله شيئاً إلا قدّمت إساءتي بين يديه» يعني ليكون طالباً لفضله تعالى بفضله لا بالاستحقاق، وذلك من التحقق بالفناء به تعالى وقطع الإياس من غيره الذي مرجع الاضطرار إليه، وهو كفيل بالإجابة، والله أعلم.

* * *

قوله: «والطف بنا لطفاً يحجبنا عن غيرك ولا يحجبنا عنك» يعني لأن السكون إلى اللطف حجاب عن اللطيف، وليس الشأن الغيبة عن اللطف في اللطف وشهود اللطف إذ الشأن في النعمة أن يكون غنياً فيها بشهود المنعم.

قوله: «اللهم إنا نسألك لساناً رطباً بذكرك وقلباً منعماً بشكرك وبدناً هيناً ليناً بطاعتك» قال الشيخ الكبير العمدة سيدي أحمد زروق رحمه الله:

هذه الثلاثة الأمور هي الكرامات.

فيثمر ذكره ثلاثاً: تنوير القلب، وتحقق المعرفة، واتساع الحال.

ويثمر الشكر ثلاثاً: طيب الحياة بالرضا، ومزيد النعمة ودوام العوافي.

ويثمر لزوم الطاعة ثلاثاً: حلاوة المناجاة، ودوام العز بالله في جميع الحالات، والنجاة من العلل والآفات. انتهى.

* * *

قوله: «واغننا بلا سبب واجعلنا سبب الغنى لأوليائك» قد تقدم «والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك» وما هنا أخص لأنه طلب التلقي من حضرة الحق بلا واسطة، وكونه واسطة وسبباً في الإمداد، في ذلك لسائر الأولياء، على ما هو شأن القطب من كونه مظهر الحق من خلقه ومرآة تجليه، فهو في ذلك الكون بمنزلة إنسان العين من العين عليه المدار ومن فيض نوره تستمد جميع الأنوار وقد كان رضي الله عنه شهيراً بذلك من الأولياء.

* * *

قوله: «وبرزخاً بينهم وبين أعدائك».

يعني حاجزاً لهم ومانعاً من تسلط أنفسهم وأهوائهم وشياطينهم وسائر قواطعهم عن كمالهم واتصالهم بربهم، وذلك بقوة ربانية وبصيرة نورانية كما هو شأن أهل التمكين والرسوخ في الولاية ومرتبة أهل الإمامة ومقام أهل الإرشاد والهداية ومحل الحفظ والرعاية إما للكفاية وهي رتبة القطب أو للبعض وهي رتبة من دونه من الخلفاء والأمناء أهل الغنى بالله رضي الله عنهم وقد قالوا «ليس الرجل من كمل في نفسه بل من كمل به غيره ولا من زال الخوف عنه في نفسه ولكن من زال به الخوف عن غيره».

وقال السيد عبد القادر الجيلاني:

أنا من رجال لا يخاف جليسهم ... ريب الزمان ولا يرى ما يرهب

وقد ورد «هم القوم لا يشقى جليسهم»[(١)] وقيل «إن لله رجالاً إذا نظروا للمرء أكسبوه سعادة».

وقد أشار سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه لنفسه بذلك وشهد له شيخه بذلك كما يوقف عليه في لطائف المنن وذلك مستمر في مشايخ كل زمان وكما هو مشاهَد.

قال القشيري رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى في شأن ذي القرنين رضي الله عنه ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤] «إن ذا القرنين مكن في الأرض جهراً فكانت تطوى له إذا قطع أجوازها ويسهل عليه إدراج مشارقها ومغاربها ويخطو أقطارها ومناكبها، ومن كان في محل الأمانة من الأولياء فالحق سبحانه يمكنه في المملكة، ليحصل عنده همة ما أراد، من حصول طعام أو شراب أو غيره، ومن قطع مسافة، أو استتار عن أبصار، وتصديق مأمول، وتحقيق سؤال، وإجابة دعاء، وكشف بلاء وفوق ذلك يمكنه من تحقيق همة له في أمره، ثم فوق ذلك في التمكين في أن يخص بهمته قوماً بما شاؤوا ويمنع قوماً عما شاؤوا، فلهم من الحق تحقيق أصل إذا تصرفوا في المملكة بإرادة في سوانح وحادثات، وفوق هذا التمكين إيصال قوم إلى منازل ومحال فالله يحقق فيهم همتهم» انتهى.

وقال الورتجيني في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠] «كان القائل به في درجة الاتحاد والأنانية والإنصاف وعين الجمع وجمع الجمع، لأن المتصف بالقدرة تجري عليه تصاريف الملك لغيره رجوعاً إلى الله

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل مجالس الذكر، حديث رقم (٢٦٨٩) [ج٤ ص٢٠٦٩] ولفظه: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيّارة فضلاً يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم وحفّ بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء قال: فيسألهم الله عزّ وجل وهو أعلم بهم من أين جئتم فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا أي رب قال: فكيف لو رأوا جنتي قالوا: ويستجيرونك قال: ومم يستجيرونني قالوا: من نارك يا رب قال: وهل رأوا ناري قالوا: لا قال: فكيف لو رأوا ناري قالوا: ويستغفرونك قال: فيقول قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا قال: فيقولون رب فيهم فلان عبد خطاء إنما مر فجلس معهم قال: فيقول وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم».

بنعمة العبودية والخضوع والدعاء، كصنع من كان في محل العبودية، لأن من شاهد الربوبية تجري عليه أوصاف الربوبية بغير اختيار وتكلف، وإذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فإذا سأل أجيب فيحصل مراده بالدعاء فهو في درجة الكمالات والكرامات لا في درجة الاتحاد والاتصاف» اهـ.

وقال الأستاذ أبو المكارم سيدي محمد البكري الصديقي رضي الله عنه «وعند الوصي من ألواح النسب الوجودية بالغرقة في الأنوار الشهودية كل شيء كنت فيه غائباً فالحق عن ذلك الشيء فليس لك إفاقة أو تنفيه فشأنك والحال ما ذكر شأن الهوية الحاكمة القاهرة الغالبة على الأوصاف الكونية» اهـ. وأشار بقوله «شأنك والحال ما ذكر شأن الهوية» إلى ما نبّه عليه الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه بقوله «العزيز من الناس من رسخ في علم الهوية وتصرف في حكم المشيئة لا بالهوى والشهوة والطبيعة» اهـ.

اللهم إنا نسألك إيماناً دائماً ونسألك قلباً خاشعاً ونسألك علماً نافعاً، ونسألك يقيناً صادقاً، ونسألك ديناً قيماً، ونسألك العافية من كل بلية، ونسألك تمام العافية، ونسألك دوام العافية، ونسألك الشكر على العافية، ونسألك الغنى عن الناس..

ونسألك المحبة الجامعة..

وفك وثاقنا من المعصية، ورهاننا من النعمة بمواهب المنّة..

ونعوذ بك من المعصية وأسبابها..

وارأف بنا رأفة الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها..

خاتمة الفرج

- دعاء أبي ذر بكلمات عشر
- المحبة الجامعة.. ووثاق المعصية.. ورهان النعمة
- ستر الخاصة وستر العامة
- رأفة الحبيب بحبيبه
- الإحسان مع البغض.. والإساءة مع الحب
- يؤيد الله الدين بالرجل الفاجر
- قصة بلعام بن باعوراء.. وبرصيصا
- إذا أحبّ الله عبداً لم يضره ذنبه
- الوجوه المسفرة

قوله: «اللهم إنا نسألك إيماناً دائماً . . إلى قوله الغنى عن الناس» هو خاتمة الفرج الذي رواه جعفر الصادق رضي الله عنه وعن أسلافه الكرام.

وقال في نوادر الأصول بسنده عن رسول الله ﷺ أنه أتى جبريل عليه السلام، فبينما هو عنده إذ أقبل أبو ذر رضي الله عنه، فنظر إليه جبريل عليه السلام قال: قلت: يا أمين الله أتعرفون اسم أبي ذر؟ قال: نعم. والذي بعثك بالحق إن أبا ذر أعرف في السماء منه في الأرض وإن ذلك بدعاء يدعو به في كل يوم مرتين تعجبت الملائكة منه فادع به واسأله عن دعائه. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر دعاء تدعو به في كل يوم مرتين» فقال: نعم فداك أبي وأمي ما سمعته من بشر وإنما هي عشرة أحرف ألهمني ربي إياها إلهاماً وأنا أدعو به في كل يوم مرتين أستقبل القبلة فأسبّح الله مليًا وأحمده مليًا وأكبّره مليًا ثم أدعو بتلك العشر كلمات «اللهم إني أسألك إيماناً دائماً وأسألك قلباً خاشعاً، وأسألك علماً نافعاً وأسألك يقيناً صادقاً وأسألك ديناً قيماً وأسألك العافية من كل بلية وأسألك تمام العافية وأسألك دوام العافية وأسألك الشكر على العافية وأسألك الغنى عن الناس. قال جبريل عليه السلام: «يا محمد والذي بعثك بالحق لا يدعو أحد من أمتك بهذا الدعاء إلا غفرت ذنوبه وإن كانت أكثر من زبد البحر أو عدد تراب الأرض ولا يلقى الله أحد من أمتك وفي قلبه هذا الدعاء إلا اشتاقت إليه الجنان واستغفر له المكان وفتح له أبواب الجنة فنادته الملائكة يا ولي الله ادخل من أي باب شئت».

قال الحكيم الترمذي قوله «إيماناً دائماً» والدوام على وجهين: وجه أن يدوم له توحيده حتى يختم له بذلك، فلا يسلبه، فيلقي ربنا بإيمانه فيدوم له ذلك أبداً والوجه الآخر أن يكون بعين بصيرته أمور لا على المعاينة ولا ينقطع ذكر الله عن قلبه على كل حال. ومنه قول أبي الدرداء رضي الله عنه حيث بلغه أن فلاناً أعتق ألف رقبة فقال «إيماناً ملزوماً بالليل والنهار ولساناً رطباً بذكر الله أفضل من ذلك» قال ابن رواحة «الإيمان مثل قميصك بين أنت لبسته إذ أنت نزعته وبين أنت نزعته إذ أنت لبسته فإذا دام الإيمان على القلب دام الذكر».

ومن هاهنا قال معاذ رضي الله عنه: «تعال حتى نؤمن ساعة» فكان القوم يطلبون دوام الإيمان على قلوبهم. ومن هاهنا قال رسول الله ﷺ: «أشد الأعمال ذكر الله على كل حال»[1] فكان القوم يتفقدون هذا من أنفسهم أن تكون كما أمر لأن النعمة من

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، باب ما ذكر عن نبينا ﷺ في الزهد، حديث رقم (٣٤٠٤٣) [ج٧ ص٨٠]، ولفظه: «أشد الأعمال ثلاثة: ذكر الله على كل حال والإنصاف من نفسك والمواساة في المال».

الله تعالى أن يجدوا دوام ذلك الإيمان على قلوبهم في وقت النعمة وكذلك في البؤس والشدة فيكونوا عند أحكامه عليهم في الأحوال مطمئنين به كما اطمأنوا به رياً، فهذا دوام الإيمان.

وقال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه «ليأتين على الرجل أحايين وما على جلده موضع إبرة من الإيمان» معناه ما وصفناه بدءاً أنه يصير قلبه خالياً من ذكر كل شيء، وينفرد بالفرد الواحد فيأنس به فيطمئن إلى حكمه فلم يبقَ شيء من النفاق وإذا غلبت عليه شهوته أو رغبته أو رهبته أو عمّت فملكته نفسه صار إيمانه في قلبه كشمس قد انكسفت فذهب ضوؤه فجاءت النفس بظلمتها ودواعيها فإنما سأل إيماناً دائماً أي يدوم له شمسه فلا ينكسف حتى يكون صدره مستنيراً بنور اليقين في كل الأمور، ا.هـ.

* * *

قوله: «قلباً خاشعاً» فهو الذي قد ماتت شهواته فذلت النفس لله وخشع القلب بما طالع من جلال الله تعالى وعظمته.

* * *

قوله: «علماً نافعاً» فهو العلم الذي قد تمكن في الصدر وتصور أن ذلك النور إذا أشرق في الصدر تصورت الأمور حسنها وسيئها ووقع لذلك ظل في الصدر فهو صورة الأمور، فيأتي حسنها ويجتنب سيئها. فبذلك العلم النافع من نور القلب خرجت تلك العلائم إلى الصدور وهي علامات الهدى. والعلم الذي قد تعلمه فذلك علم اللسان، إنما هو شيء قد استودع الحفظ، والشهوة غلبت عليه وأحاطت وأذهبت بظلماتها ضوءه.

قوله: «ويقيناً صادقاً» فاليقين على وجهين أن يوقن يقيناً ينفي الشك ولا يغلب الشهوة وهو يقين التوحيد. واليقين الآخر نور مشرق للصدر غالب للشهوات صارت له أمور الدنيا والآخرة وأمر الملكوت معاينة قد ورث قلبه الخشية والمحبة والهيبة والتعظيم لله.

* * *

قوله: «وديناً قيماً» فالدين القيم الخضوع لله بأمره ونهيه وأن يكون سيره إليه في الشريعة على سبيل الاستقامة لا زيغ فيها ولا بدعة كما وصف الله عزّ وجل في التنزيل

فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البَيِّنَة: ٥] فأمروا أن يعبدوا الله فيحلوا ما أحله ويحرموا ما حرمه ويؤدوا الفرائض ويجتنبوا المساخط فإذا دان لله بغير ما شرعت الشريعة لم يقبل منه وليس ذلك بالدين القيم بل هو ساقط، هذا أدناه. وأعلاه أن يدين لله تعالى فلا يلتفت إلى أحد سواه، فيكون هو ثقته وملجأه ومفزعه، ولا يطمئن إلى أحد سواه، فيكون هو متعلّق قلبه، فهذا هو الدين القيم.

* * *

قوله: «ونسألك العافية من كل بلية» والبلاء على ثلاثة أضرب:

منها تعجيل عقوبته للعبد، ومنها امتحانه ليبرز ما في ضميره فيظهر لخلقه درجته أين هو من ربه، ومنها كرامة ليزداد عنده كرامة وقربة. ثم ضرب لذلك أمثلة ثم قال «ونسألك العافية من ذلك» كله.

* * *

والعافية: أن يكون في كل وجه من هذه الوجوه إذا حلّ به شيء من ذلك أن لا يكله إلى نفسه ولا يخذله وأن يكلأه ويرعاه في كل هذه الوجوه. هذا وجه.

والوجه الآخر أن يسأله أن يعافيه من كل شر وشدة فإن الشدة إنما يحل أكثرها من أجل الذنوب فكأنه سأله أن يعافيه من البلاء ويعفو عن الذنوب التي من أجلها تحل الشدة بالنفس فقد قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [السَّجدَة: ٢١].

* * *

قوله: «ونسألك دوام العافية» بأن تدوم له ولا تنقطع و«تمام العافية» بأن تكون العافية عافية المزيد بل لا شوب فيها.

* * *

و «الشكر على العافية» فإن الشكر، به ترتبط النعمة، ويجلب المزيد.

* * *

قوله: «والغنى عن الناس» وإنما يستغني عن الناس إذا استغنى بالله ففيه الخروج من الرق إلى الحرية ومن لم ينقطع طمعه عن الخلق فهو على خطر عظيم من أمر الله وهو مفتون اهـ. كلام الإمام الترمذي والله أعلم.

* * *

قوله: «والمحبة الجامعة» يعني السالبة للتفرقة والبينونة بما تقتضيه من المعية والوصلة واعتبر بحديث التقرب وفي بعض رواياته فإذا أحببته كنت له إلخ وأما حديث «المرء مع من أحب»[1] فهو شهير.

* * *

قوله: «وفك وثاقنا من المعصية ورهاننا..» يحتمل العطف على المنصوب قبله فيكون اسماً ويحتمل كونه فعل أمر فهو من عطف المفرد على الأول ومن عطف الجمع على الثاني وبحسب ذلك فما بعده إما منصوب على المفعولية أو مخفوض بالإضافة كما هو ظاهر.

ثم إن المعصية بصورتها تمنع من النهوض والإقبال على الحق لتشديدها، ومن السير لتقييدها وتثبيطها عياذاً بالله الكريم من ذلك.

ثم إن الوقوف مع النعمة حجاب عن شهود المنعم كما قال الإمام الجنيد رضي الله عنه «حجاب قلوب الخاصة المختصة، برؤية النعم، والتلذذ بالعطاء، والسكون إلى الكرامات» اهـ.

وفي كل من ذلك شؤم القطيعة والتفرقة، لكنه في المعصية أشد فلذلك استعار لها الوثاق وللأخرى الرهان، والمخلص من ذلك كله عناية الله لعبده، ثم اللجؤ إلى الله وصدق الافتقار إليه والفرار مما سواه ورؤية النعم منه والفزع إليه في أداء شكره، ذلك كله من عبده بجوده.

قوله: «ونعوذ بك من المعصية وأسبابها.. إلخ» أنبأ في هذا الطلب عن حال الخُلَّص الذين مقصدهم التخلص والإخلاص ووجود السلامة من أسباب الانتقاص وقد قال في الحكم «الستر على قسمين ستر عن المعصية وستر فيها فالعامة يطلبون الستر من الله فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق، والخاصة يطلبون الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحق».

* * *

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب علامة حب في الله عزّ وجل..، حديث رقم (٥٨١٦) [ج٥ ص٢٢٨٣]، ومسلم في صحيحه، باب المرء مع من أحب حديث رقم (٢٦٤٠) [ج٤ ص٢٠٣٤] ورواه غيرهما.

قوله: «وارأف بنا رأفة الحبيب بحبيبه» قال الجوهري «الرأفة أشد من الرحمة» قال أبو زيد «رؤفت بالرجل أرؤف به رأفة ورآفة ورأفت به ورئفت به أرأف كل من كلام العرب فهو رؤوف على فعول» اهـ.

فاقتضى أنه مثلث الماضي وأن مضارعه بالضم في فعل المضموم وبالفتح في الباقي والأمر جار على المضارع فيضبط الأمر الواقع هنا بالضم والفتح.

* * *

قوله: «فالإحسان لا ينفع مع البغض منك».

شاهده أن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وغير ذلك كقصة بلعام وبرصيصا[1] وما يحكى عن شيخ قضيب البان من سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى.

---

(١) أما قصة بلعام فهي على النحو التالي:

عن أبي سعيد الأعور عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] قال: هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن وكانت له امرأة له منها ولد فقالت: اجعل لي منها واحدة، قال: فلك واحدة، فما الذي تريدين؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئاً آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت وذهبت الدعوات الثلاث وتسمى البسوس غريب وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعام وكان يعلم اسم الله الأكبر وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف كان مجاب الدعوة ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه وأغرب بل أبعد بل أخطأ من قال كان قد أوتي النبوة فانسلخ منها حكاه ابن جرير عن بعضهم ولا يصح، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتاه يعني بلعم أتاه بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥] الآية وقال السدي: لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦] بعث يوشع بن نون نبياً فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبي وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين فبايعوه وصدقوه وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام فكان عالماً يعلم الاسم الأعظم المكتوم فكفر لعنه الله وأتى الجبارين وقال لهم لا ترهبوا بني إسرائيل فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون وكان عندهم فيما شاء من الدنيا =

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «والأعمال بالخواتيم»[(١)].

= غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء لعظمهن فكان ينكح أتانا له وهو الذي قال الله تعالى فانسلخ منها وقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥] أي استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] أي من الهالكين الحائرين البائرين (تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٦٦).

وأما قصة برصيصا فهي على النحو التالي:

عن عبد الله بن نهيك قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: إن راهباً تعبّد ستين سنة وإن الشيطان أراده فأعياه فعمد إلى امرأة فأجنها ولها إخوة فقال لإخوتها عليكم بهذا القس فيداويها قال: فجاؤوا بها إليه فداواها وكانت عنده فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته فأتاها فحملت فعمد إليها فقتلها فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب أنا صاحبك إنك أعييتني أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك فاسجد لي سجدة فسجد له فلما سجد له قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين فذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦] وقال ابن جرير: حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي حدثنا أبي عن أبيه عن جده عن الأعمش عن عمارة عن عبد الرحمٰن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦] قال: كانت امرأة ترعى الغنم وكان لها أربعة إخوة وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب قال: فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل مصدق يسمع قولك فقتلها ثم دفنها قال: فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك قالوا: لا بل قصها علينا قال: فقصها فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك قالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء قال: فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه قال: فسجد له فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل (تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٢).

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب العمل بالخواتيم..، حديث رقم (٦٢٣٣) [ج٦ ص٢٤٣٦] ولفظه: عن سهل أن رجلاً من أعظم المسلمين غناء عن المسلمين في غزوة غزاها مع النبي ﷺ فنظر النبي ﷺ فقال: «من أحب أن ينظر إلى الرجل من أهل النار فلينظر إلى هذا» فأتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشد الناس على المشركين حتى جرح فاستعجل الموت فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه حتى خرج من بين كتفيه فأقبل الرجل إلى النبي ﷺ مسرعاً فقال: أشهد أنك رسول الله، فقال: «وما ذاك؟» قال: قلت لفلان: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه وكان من أعظمنا غناء عن المسلمين فعرفت أنه لا يموت على ذلك فلما جرح استعجل الموت فقتل نفسه فقال النبي ﷺ عند ذلك: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار الأعمال بالخواتيم» ورواه ابن حبان في صحيحه عائشة أن النبي ﷺ قال: «إنما الأعمال بالخواتيم» والحديث رواه غيرهما.

وفي الحِكَم «لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله».

وفي الحديث «من نوقش الحساب عذب»[١].

* * *

قوله: «والإساءة لا تضر مع الحب منك وقد أبهمت الأمر علينا» شاهده حديث «إذا أحبّ الله عبداً لم يضره ذنبه» ذكره في القوت في كتاب المحبة.

وفي الصحيح «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم»[٢] وسببه معلوم.

وفي القوت أيضاً عن زيد بن أسلم «إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له اصنع ما شئت قد غفرت لك».

وفي نوادر الأصول على حديث «هؤلاء للجنة ولا أبالي في قبضة اليمين، وهؤلاء للنار ولا أبالي في قبضة الشمال»؟ قال: «يريد ـ والله أعلم ـ بقوله ولا أبالي أي لا أبالي بما يعملون من خير أو شر، فأقبل خيرهم وأغفر شرهم كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف: ١٦] وهو الوعد الذي وعدهم حيث ضرب بيده إليهم جلّ ثناؤه ثم قال لهم «أنتم لي عملتم أو لم تعملوا»، وكان أيضاً النور الذي ألقي عليهم في البدء دون الآخرين» اهـ.

قال في القصد «يبلغ الولي مبلغاً يقال له أصحبناك السلامة وأسقطنا عنك الملامة فاصنع ما شئت». ومصداقه قوله تعالى في حق سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص: ٣٩]. وهذا وإن كان للنبي من حيث العصمة، فلمن كان من الأولياء في مقام الأمانة فسقط منه من أجل الحفظية.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب فسوف يحاسب حساباً يسيراً، حديث رقم (٤٦٥٥) [ج٤ ص١٨٨٥] ورواه مسلم في صحيحه، باب إثبات الحساب، حديث رقم (٢٨٧٦) [ج٤ ص٢٢٠٤] ورواه غيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب من نظر في كتاب يحذر على المسلمين. . ، حديث رقم (٥٩٠٤) [ج٥ ص٢٣٠٩]. ورواه مسلم في صحيحه، باب من فضائل أهل بدر، حديث رقم (٢٤٩٤) [ج٤ ص١٩٤١] ورواه غيرهما.

وقد قال واضع الحزب رضي الله عنه في دعاء له «وأدرج أسمائي تحت أسمائك وصفاتي تحت صفاتك، وأفعالي تحت أفعالك، درج السلامة وإسقاط الملامة وتنزل الكرامة وظهور الأمانة». يعني ليكون بالله فيما يأتي ويذر ما نبّه عليه حديث التقرب، ورجاله رجال القبضة الذين هم بالله فيما يأتي ويذر كما نبّه عليه حديث التقرب، ورجاله رجال القبضة الذين هم بالله عزّ وجل تصريفاً وتكليفاً وقد تقدمت الإشارة إلى هذا في الفرق بين معصية الولي وغيره، وحاصل ذلك عدم العزم على القبيح ابتداء، ونفي الإصرار عليه انتهاء، فالتوبة لازمة لا تنفك عنه، وهي ماحية للذنوب ما حصلت قبل الموت. فلا تضر معها الذنوب الماضية. وقد تقدم سؤال سر الأسرار المانع من الإصرار وعليه يصدق قوله عليه السلام: «إذا أحبّ الله عبداً لم يضره ذنب»[1].

وفي نوادر الأصول أيضاً «من خصه من أهل بالتقرب بالجلال والجمال وقد أقيم في الهيبة والأنس قدراً غاب عن خوف العقوبة ولكن يخاف التحويل والهوى والسقوط لما ركب في نفوس بني آدم من الشهوات، فهو أبداً يهوى بما أحبه عن الله إلى الإخلاد والبطنة، وإنما يسكن خوف التحويل إلا إذا خلص إلى الفردانية، وتعلق بالوحدانية ليتلاشى الهوى منه والشهود بكشف الغطاء ولا يذهب خوف ذلك وإن سكن لبقاء خيال ذلك في حق غير الأنبياء أما الأنبياء فلم يبقَ لهم ظل الهوى، فبشروا بالنجاة فلم تضرهم البشرى لأنهم لم يبقَ لهم نفوس فتثور وتجردت إذ أمنت السقوط، ومن بعدهم بقي لهم في نفوسهم شيء فمنعوا البشرى وأبهم عليهم الأمر منعاً لهم ونظروا في أحوالهم لتكون أنفسهم منقمعة بخوف الزوال، هذا هو الأصل فافهمه، هذا بعد أن قرر أن الشوق وحزن القلب من أجله لا يذهب عن المجذوب المحدَّث، وإن كان بينه وبين مولاه من الأسرار ما يسكن عنه خوف التحويل، وإنما يتوهم ذلك من وقف في الجلال والجمال فسكن شوقه بلذة ما نال من القرب فانظره.

* * *

(١) ورد بلفظ: «إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء» [الترمذي باب ما جاء في الحمية، حديث رقم ٢٠٣٦، والحاكم في المستدرك كتاب الطب، حديث رقم ٧٤٦٤].

قوله: «وأسفر وجوهنا بنور صفاتك» يعني أضئها وشرقها بنور أوصافك حتى تنظر إليك وبك وتبقى ببقائك.

قال ابن عطية على قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [عَبَسَ: ٣٨]. أسفر تلك الوجوه نظرها إلى مولاها وأضحكها رضاه عنها.

قال ابن طاهر «كشف عنها ستور الغفلة فضحكت بالدنو من الحق واستبشرت بمشاهدته».

* * *

قوله: «ولا أقل من ذلك» الواقع في الحديث «طرفة عين»[١] وأما «ولا أقل من ذلك» فهي وإن لم تقع فهي مرادة له ومنه، لأن مقصوده دوام الكلاءة والحفظ على الإطلاق.

(١) والحديث هو: «عن عطية عن جعفر بن ميمون حدثني عبد الرحمٰن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت» [ابن حبان، ذكر وصف دعوات المكروب، حديث رقم ٩٧٠، [ج٣ ص٢٥٠]، والحاكم في المستدرك كتاب الدعاء والتكبير..، حديث رقم ٢٠٠٠ [ج١ ص٧٣٠] ورواه غيرهما.

يا من هو هو، هو في علوه قريب.

يا محيطاً بالليالي والأيام. أشكو إليك من غم الحجاب، وسوء الحساب، وشدة العذاب، وإن ذلك لواقع ما له من دافع إن لم ترحمني.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ولقد شكا إليك يعقوب فخلّصته من حزنه ورددت عليه ما ذهب من بصره..

هأنذا عَبدُك

- الإشارة إليه تعالى باسم «هو»
- تنزيه الله عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة
- وصية عبد السلام بن مشيش لأبي الحسن الشاذلي
- أشرق نور الله في قلوب أوليائه
- إحاطته بالليالي والأيام
- الشكوى من غم الحجاب
- سؤال الرحمة
- دعاء ذي النون
- فضل الله على أنبيائه وأصفيائه
- كلام في حال البسط والإدلال
- من دعوات أبي العباس المرسي
- دعاء الحسن بن علي عند باب المسجد

قوله: «يا من هو هو» قال القشيري في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] «يقال كاشف تعالى الأسرار بقوله هو، والأرواح بقوله الله، وكاشف القلوب بقوله أحد، وكاشف نفوس المؤمنين بباقي السورة، ويقال خاطب الوالهين بقوله هو، والموحدين بقوله الله، والعارفين بقوله أحد، والعلماء بقوله الصمد، والعقلاء بالباقي».

ثم قال «ويقال خاطب الذين هم خاصة الخاصة بقوله هو فاستبقوا، ثم خاطب الخواص بقوله الله فاستقلوا، ثم زاد في البيان من نزل عنهم فقال أحد، ثم لمن نزل عنهم بالصمد، كذلك لمن دونهم» اهـ.

ثم قال «وفي نوادر الأصول» هو اسم لا صفة من الهوية وخرجت الصفات أي «هو» إشارة القلب إلى المعروف الموصوف. ألا ترى إلى قوله (هو) ثم قال (الله الذي لا إله إلا هو) ثم قال الخالق فهو أصل الأسماء وإليه يشير القلب لأنه الباطن الذي لا يدرى كيفاً ولا يدرك اهـ.

والحاصل أن الإشارة بهو مختصة بأهل الاستغراق والتحقق في الهوية الحقيقية فلا يطابق بحر الأحدية عليهم وانكشاف خط بحر الوجود الحقيقي لديهم فقدوا من يشار إليه بهو إلا هو لأن المشار إليه لما كان واحداً كانت الإشارة مطلقة لا تكون إلا إليه لفقد ما سواه في شعورهم، لفنائهم عن الرسوم والبشرية بالكلية وغيبتهم عن وجودهم وعن إحساسهم وأوصافهم الكونية وذلك غاية في التوحيد والإعظام، منحنا الله ذلك على الدوام وجعلنا من أهله ببركة رسوله عليه الصلاة والسلام.

* * *

قوله: «هو في علوه قريب» يعني لإحاطته بالأشياء بنعت كونه «الأول والآخر والظاهر والباطن».

قال بعضهم «الحق تعالى منزّه عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ولا كم ولا كيف ولا جسم ولا جوهر ولا عرض لأنه للطفه سار في كل شيء، ولنورانيته ظاهر في كل شيء ولاطلاعه إحاطته بكل شيء فكيف بكل كيف غير متقيد بذلك ومن لم يدرِ هذا ولم يشهده فهو أعمى البصيرة محروم عن مشاهدة الحق» اهـ.

وقال سيدي محمد وفا رضي الله عنه:

تعالى الله قيوم البرايا ... مفيض الكل في الجزء المفيد

تجلى في تمثله بوجه — نزيه في المراد وفي المريد
هو الحق المحيط بكل شيء — هو الرحمٰن ذو العرش المجيد
هو النور المبين بغير شك — هو الرب المحجب في العبيد
هو المشهود في الأشياء يبدو — فيخفيه الشهود عن الشهيد
هو العين العيان بكل غيب — هو المقصود في البيت القصيد
جميع العالمين له ظلال — سجود في القريب وفي البعيد
وهذا القدر في التحقيق كاف — فكف النفس عن طلب المزيد

وقال الشيخ القطب سيدي عبد السلام رضي الله عنه مخاطباً لوارثه رضي الله عنه في وصية له وحده «انظر ببصر الإيمان تجد الله تعالى في كل شيء وعند كل شيء ومع كل شيء وقبل كل شيء، وبعد كل شيء وفوق كل شيء وتحت كل شيء وقريباً من كل شيء، ومحيطاً بكل شيء بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعته، وعُدْ عن الظرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات وعن الصحبة والقرب والمسافات، وعن الدور بالمخلوقات وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن وهو هو هو كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما هو عليه كان» اهـ.

ونبّه بقوله وعد إلخ على أن ما جرى في كلامه من الظروف ليست بزمانية ولا مكانية لأنها من جملة الأكوان وإنما هي أمور دقيقة فاعتقد كمال التنزيه وبطلان التشبيه وتمسك بقوله عزّ وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وسلّم ذلك لأهله لأنهم على بصيرة فيما رمزوا إليه مما ذاقوه ووجدوه بل هو من محيض الإيمان وخالص العرفان وهو حقيقة التوحيد وصفو الإيمان. وأما قوله «وهو الآن على ما هو عليه كان» وإن لم يرد في الحديث فهو صحيح من جهة أن الشيء إنما يتعدد بوجود مثله ويشفع بشكله. وفي الحقيقة لا وجود للأشياء معه تعالى وإنما هي كالخيال ووجود الظلال فلا تنسخ أحديته ولا تدفع فردانيته وبالجملة فمن غلب عليه شهود الأحدية وكوشف بسر الوحدانية واستغرق في الحقيقة العيانية انقطع عن الشعور بنفسه وغاب عن السوى بالكلية وإن رد إلى الشعور به رآه قائماً به وظاهراً فيه وبه وحكماً من أحكامه.

وقد نبّه على ذلك في الحكم بقوله «الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه فمن رأى الكون ـ بغير أن رد إلى رؤيته ـ ثم لم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أوزعه بل أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار».

وقوله في لطائف المنن بعد كلام «أشرق نوره في قلوب أوليائه واستنارت به سموات أرواحهم وأرض نفوسهم وأشباحهم إليه دون السموات والأرض نوّر سموات الأرواح بمشاهدته ونوّر أرض النفوس بمطالعته وخدمته وجعل قلوبهم مجالات لذاته ولظهور صفاته وأظهرهم ليظهر فيهم بأنواره وأسراره كما ظهر فيهم وفيما عداهم بقدرته واقتداره اهـ.

وقال الشيخ أبو زيد البخاري في كتابه (شمس القلوب) وإذا صحب القلب التوفيق صار مسرجاً يستصبح فتيلته من أنوار الكرامة فترق الزجاجة بعد كثافتها ويظهر النور من جوانبها من شدة رقة صورتها فتحسبه نوراً بلا زجاجة لما رقت صورة الزجاجة وبرقت تشاكل، تميز صورة الزجاجة من النور فلما غاب الفهم عن تمييز الزجاجة من النور امتحق الشعور بالفناء ولما ظهر النور من جوانبها وفاض وقع فناء الشعور بالفناء في فناء آخر وفقد الشعور بهما جميعاً فغاب كل محدث وبقي كل من لم يزل فالنور إذا ظهر من جوانب الزجاجة وفاض لم يحجبه عن الله سماء ولا أرض ولا كرسي ولا عرش ولا شيء من الحوادث وإنما تحجبه كثافة صورة الزجاجة لا غير فإذا ظهر النور من جوانبها ضاها في المثل نور العين إذا انفتحت جفونها، واقتباس نور الزجاجة من النور الأعلى ومنه كان اقتباس كل قلب أيد بالخصوصية فمنه اقتبس الرسل عليهم الصلاة والسلام فأورثهم منصب النبوة والرسالة، ومنه اقتبس الأولياء رضي الله عنهم فأورثهم درجة الولاية. فالرسل في المثل شمس والنبيون قمر والأولياء كواكب. فبالشمس يستضاء وبالقمر يستنار وبالنجم يهتدى فالرسل حجة الله على عباده وأمناؤه في أرضه، والأولياء رحمة منه على خلقه. اهـ.

وما أوضحه من التمثيل بالزجاجة سبقه إلى مثله الجنيد فقد سئل عن التوحيد فأنشد في المعنى:

رق الـزجـاج وراقـت الـخـمـر ... فـتـشـابـهـا فـتـشـاكـل الأمـر
فـكـأنـمـا خـمـر ولا قـدح ... وكـأنـمـا قـدح ولا خـمـر

والبيت الأخير يشير إلى الغيبة والحضور وعلى الجملة فكل ذلك مقتبس من القرآن، وضرب المثال لنوره تعالى في قلب المؤمن بالمصباح في الزجاجة وهو جلي عند كل ذائق فاض سره وأشرق قلبه وتجلّى له ربه. وفي مقطعات التستري وأزجاله كثير من الإشارة إلى مراده.

* * *

قوله: «يا محيطاً بالليالي والأيام» منادى منصوب لأنه شبيه بالمضاف فتعلق المجرور به وإحاطته تعالى بالليالي والأيام وبكل شيء معلومة فقد قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فُصّلَت: ٥٤] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطّلَاق: ١٢] ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجنّ: ٢٨] وقد قال واضع الحزب يوماً بين يدي أستاذه رضي الله عنهما «اللهم اغفر لي يوم لقائك» فقال له: هو أقرب إليك من ليلك ونهارك ولكن الظلم أوجب الضلال وسبق القضاء حكم بالزوال عن درجات الأنس ومنزلة الوصال وللظالم يوم لا يرتاب فيه ولا يحتال والسابق من ضلّ في الحال ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مريَم: ٣٨].

* * *

قوله: «أشكو إليك من غم الحجاب» أي أستعيذ بك من وقوعه وأستعيذ بك منه وهو حقيق أن يستجار بالله منه وأن يلجأ إلى الله في رفعه ودفعه لأنه مانع للعبد من سعادته وكماله، وقطع له عن حياته ووصاله وحط له عن أوج ارتفاعه في أطوار ارتقائه وإلى حضيض دركات طبعه وانتقاله في شهواته وهواه وحظوظه وبُعده عن استقامته في فطرته. وفي الحكم «النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه فسبب العذاب وجود الحجاب وإتمام النعيم بالنظر إلى وجه الله الكريم».

* * *

قوله: «وإن ذلك لواقع ما له من دافع إن لم ترحمني» يعني أن الحجاب وما ذكر معه وتسبب عنه من كل عذاب يواجهه العباد واقع بهم إن لم تدركهم الرحمة منه تعالى وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النّور: ٢١] الآية وفي الحديث «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»(١). وفي الحكم «لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك وترك دعاويك لم تصل إليه أبداً ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه».

* * *

(١) رواه مسلم بلفظ: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسدّدوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله» قالوا: يا رسول الله ولا أنت؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» ورواه غيره.

قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٨٧] أتى بهذه الآية عقب شكواه من غم الحجاب وما ذكر معه، لما ورد أنه لم يدع بهذا رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له وأنه لكل من المؤمنين إذا أصابه هم أو استقبله غم نجّاه الله منه كما نجّى ذا النون لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٨٨] وفيه إشارة إلى أن الإيمان كان في الاتجاه مع اللجأ والاعتراف والاستسلام وقال في نوادر الأصول «أنه ما دعا بدعاء ذي النون هذا مسلم في شيء إلا استجيب له» كما ورد في الحديث. ثم قال: وهذا لمن أصابه غم الذنب، فنادى من الغم كما ناداه العبد الصالح فنجّاه من الغم فمن لم يكن له غم الذنوب فنادى بها لم يدخل عندنا في الوعد الذي قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٨٨] إلا أن يتفضل الله والله أعلم.

* * *

قوله: «ولقد شكا إليك. . . إلخ» كل ما ذكره معلوم من قصص القرآن ولكن استشهد به لسابق حسن عوائده تعالى مع أنبيائه وأصفيائه استجلاباً لفضله تعالى في تذكر سابق فضله تعالى وكرمه، مع ما يثيره من قوة الرجاء من العبد في ربه وحسن الظن به لوفور جوده وكرمه وحسن معاملته مع عباده بمحض الفضل الذي لا يتخلف لعلة ولا سبب. ولقد قال تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ [مريَم: ٤] يعني أنك عودتني الإجابة فيما سبق فكما لم تخيبني فيما مضى فلم تخيبني فيما يأتي؟ أي لم تكن تشقني بالرد فإنه يقال لكل من سعى في أمر فبطل سعيه فقد شقي وإذا أدرك فقد سعد به وهو توسل لفضله تعالى كما تقول «أحسن إلينا كما أحسنت إلينا عام أول» لأن ذلك ـ أعني الجود ـ وصفك ففيه الثناء بوصف الجود. وذلك يقتضي العطاء لما فيه من الاستعطاف وما تضمنه من الاعتراف الذي هو حقيقة الشكر الكفيل بالمزيد. هذا وقد تقدم «والشقي حقاً من أحرمته مع كثرة السؤال لك» والكلام عليه.

* * *

قوله: «فأنا حقيق به» يعني لما علم ما جبل عليه العبد وطبع من غاية النقص الذاتي المناسب لغاية الإقصاء والإبعاد من جانب الحق وحضرة قدسه ومنحل قربه لولا عنايته تعالى وتدارك رحمته. على أنه بكل حال لا يقدر قدر ربه فهو من أجل

ذلك يستحق المقت والعذاب فيما يظن أنه عين الأدب، ويستجلب العطب فيما به قد يتقرب لأن عبادة العالم بأسره بالنسبة لعظمة المعبود وما هو عليه من الرفعة والجلال وما يقتضيه من الإعظام، كمن يقتصر في خدمة ملك من الملوك يستحق أن يخر له على وجهه على أن يشير إليه بأصبعه. ولذلك شرع «الله أكبر» في الصلاة مع تضمينها الخضوع للمعبود وتعظيمه إشارة إلى أنه أكبر من ذلك العظيم. ولكنه تعالى برأفته ورحمته رضي من العبد بما هو منه، ويستحيل أن يصل نفعه إليه. هذا في الطاعة فكيف بالمعصية فهو أجدر بالمقت من أجلها. على أن الكل ملك له تعالى ولا حجر عليه في تصرفه في ملكه بما شاء وكيف شاء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبيَاء: ٢٣]. وقد قال مخبراً عن عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المَائدة: ١١٨]. هذا وقد تقدم أن الحجاب سبب في كل عذاب والنقص البشرى سبب له لزوماً لولا تدارك الرحمة الإلهية التي لا علة لها والله أعلم.

* * *

قوله: «إلا لمن أحسن إليك» رأيت بخط سيدي عبد النور رحمه الله تعالى على قوله (إليك) «هذا وكذا على قوله أساء إليك بعدما صورته كذا، وذلك لأنه محل الإشكال، وتوهم المخالفة لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسرَاء: ٧].

وكذا وجدت منسوباً لسيدي عبد الله بن عياد ما نصه: ينبغي أن يسقط إليك من قوله «أحسن وأساء» لأنه لا يحسن أحد إلى الله ولا يسيء إليه. بدليل قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسرَاء: ٧]. غير أنه لا يقدر أحد أن يبدل لفظ الشيخ رضي الله عنه. لأنه يرى بنور الولاية ما لا يراه غيره».

وقد قال رضي الله عنه أيضاً: «كثيراً وما رأيت في النسخ الصحيحة مكتوباً على هذا الفصل «من كان له مع الله بسط حال إدلال فليتم بهذه الكلمات ومن ليس له ذلك فليجاوزها إلى ما بعدها من قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعرَاف: ٢٣]» اهـ.

وقال البرزلي «رأيت في بعض النسخ على هذا الموضع وهي التي قد أخذناها عن شيخنا الحسن البطويني عن الشيخ أبي العزائم سيدي ماضي عن الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه يسلّم لهذا الشيخ في هذا الموضع ولا يقاس عليه» اهـ.

هذا وقد يقال: قد أومأ الشيخ في هذا المحل لدفع هذا الوهم والمخالفة بقوله «وأنت المفضال الغني» وإنما جاء الكلام كذلك على سبيل الفرض بالنظر لصورة الحال وما يقصده العبد من النصح لجناب الحق والوفاء لما يستطيعه ويقدر عليه في عزمه وصميمه ووجود ضد ذلك منه فقد جاء النظر لصورة الظاهر واعتباره في الشرع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧] الآية مع أن إطلاق ذلك في حقه تعالى إنما هو على سبيل المجاز لتعذر الحقيقة في ذلك ويشهد لذلك الحديث الإلهي «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني»[(١)] الحديث.

وقال في نوادر الأصول «النصح لله تعالى هو الإقبال عليه بالعبودية فإن من شأن العبد أن يرفض جميع مشيئاته لمشيئة مولاه» ثم قال «فيكون في سره وعلانيته قد آثر الله على هواه وآثر حق الله على شهوات نفسه وهذا النصح لله» فإذا خالط فيه ما ليس منه، كانت العبودية لله مغشوشة والغش ضد النصح. ثم قرر أن هذا التعريف في حق المقتصد، وأما المقرب الملاحظ في الأمور لله لما هو عليه من ذكر الله، فالحظوظ في حقه حقوق لأنه مع تدبير الله. اهـ.

هذا وفي دعاء لواضع الحزب رضي الله عنه «واجعلنا برحمتك جميعاً من المقبولين وإن كنا زائغين فإن النقاد يسمحون وإن كانوا عارفين فأنت أولى بذلك منا وأنت أكرم الأكرمين وأجود الأجودين».

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٧٧) [ج٤ ص١٩٩٤] ونصه: عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» قال سعيد: كان أبو إدريس الخولاني إذا حدّث بهذا الحديث جثا على ركبتيه».

وفي حزب وارثه سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه «إلهي كم من حسنة ممن لا تحب لا أجر لها وكم من سيئة ممن تحب لا وزر لها فاجعل سيئاتي سيئات من أحببت ولا تجعل حسناتي حسنات من أبغضت فإن كرم الكريم مع السيئات أتم منه مع الحسنات فأشهدني كرمك على بساط رحمتك» وهو قريب من الواقع هنا في الحزب والله أعلم.

وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] وفي الصحيح قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أتى الله عزّ وجل بعبد من عباده آتاه مالاً فقال له ماذا عملت في الدنيا ولا يكتمون الله حديثاً. قال: يا رب آتيتني مالك فكنت أبايع الناس وكان من خلقي الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر» وفي رواية كان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، فقال الله عزّ وجل: «أنا أحق بهذا منك تجاوزوا عن عبدي فتجاوزوا عنه»[1].

وجاء في الحديث الدعاء بيا حَسَن التجاوز وغير ذلك وفي القرآن ﴿خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما إذا أتى بباب المسجد رفع رأسه وقال «إلهي عبدك ببابك. يا محسن قد أتاك المسيء، وقد أمرت المحسن منا أن يتجاوز عن المسيء، فأنت المحسن وأنا المسيء، يا متجاوز تجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم» اهـ.

فإذا علم هذا ومثله من موارد الشرع في حقه تعالى ووعده تعالى بذلك وإخباره به عن نفسه فسؤال ذلك وحكايته والإخبار بحقيقته وتصوير حقيقته والتعلق بذلك الفضل الموعود به الذي هو أحق به بل هو أحق به بل لا ينبغي لغيره، وإنما خلقه في غير دلالة عليه وتصويراً لفضله مع كونه أثراً من آثار رحمته لأدرك على مستعمله ولا خلل يتوهم عليه على أن الكلام خرج مخرج الدلالة لما قبله فكأنه قال «ليست رحمتك موقوفة على الطاعة ولا كرمك مخصوصاً بالمطيع» توقف المسبب على السبب وترتبه عليه واختصاصه به عقلاً جلّ حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل وتقدس فضله وغناه عن خلقه وعن أعمالهم عن ذلك وأشار إلى ذلك بقوله «وأنت المفضال

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب من أنظر موسراً، حديث رقم (١٩٧١) [ج٢ ص٧٣١]، والحاكم في المستدرك، كتاب البيوع، حديث رقم (٢٢٢٦) [ج٢ ص٣٤] ورواه غيرهما.

الغني» وكذا «الرحيم العلي» ففي ذلك التنزيه اللائق به تعالى من رحمته لعبده في غيب علوه واقتداره مع عصيانه وعدم اختصاص رحمته وفضله بالمطيع لغناه عن طاعته وهذا كله تصوير لغاية المجد والكمال.

وفي حديث مسلم فيما يرويه عليه الصلاة والسلام عن ربه «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**» ثم قال: «**إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**». وفي التفسير في قوله تعالى إخباراً عن عيسى عليه السلام: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل الغفور الرحيم، قال: «**لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد حكمه**» وهو العزيز أي الغالب. ثم وجب أن يوصف بالحكيم على سبيل الاحتراز، لئلا يتوهم أنه خارج عن الحكمة، يعني ما في ذلك من الإشارة للإضراب عن الأسباب والعلل في بساط التحقيق حيث لم يقل إن تعذبهم فقد استحقوا ذلك واستوجبوه بإساءتهم والله أعلم.

يا هو يا هو يا هو..

إن لم نكن لرحمتك أهلاً أن ننالها، فرحمتك أهل أن تنالنا..

يا رباه.. يا رباه.. يا رباه..

أغثنا.. أغثنا.. أغثنا... يا رب يا كريم..

وارحمنا يا بر يا رحيم.. يا من وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم

رحمتك أهل أن تنالنا

- «هو».. نهاية التحقيق
- الإشارة بـ«هو» مختصة بأهل الاستغراق
- رحمة الله أهل أن ينالها العصاة
- أحب صوت إلى الله.. صوت عبد لهفان ينادي «يا رباه»
- سبب دعاء أبي الحسن الشاذلي «يا من وسع كرسيه..»
- مقام المشاهدة والمراقبة والحضور..

قوله: «يا هو» قال صاحب التحبير[١]: اعلم أن هذا الاسم موضوع للإشارة و«هو» عند الطائفة إخبار عن نهاية التحقيق و«هو» يحتاج عند أهل الظاهر إلى صفة تعقبه ليكون الكلام مفيداً لأنك إذا قلت هو ثم سكت لا يكون الكلام مفيداً حتى تقول قائم أو قاعد أو حي وما أشبه ذلك. فأما عند القوم إذا قلت «هو» فلا يسبق إلى قلوبهم غير ذكر الحق جلّ جلاله فيكتفون به عن كل بيان لاستهلاكهم في حقائق القرب وذلك باستيلاء ذكر الله على أسرارهم وامتحائهم عن شواهدهم فضلاً عن إحساسهم بمن سواه. اهـ.

قال القشيري: وقد قدمنا أن الإشارة بهو مختصة بأهل الاستغراق والتحقيق في الهوية الحقيقية فلا نطابق بحر الأحدية عليهم وانكشاف الوجود الحقيقي لديهم فقدوا من يشار إليه بهو إلا هو، لأن المشار إليه لما كان واحداً كانت الإشارة المطلقة لا تكون إلا إليه لفقد ما سواه هذا مقتضى حال القوم من وجدانهم وذوقهم فهو عندهم اسم مستقل بمعناه لا ضمير غيبة كما هو موضوع في أصله بل نقل وصار العرف عندهم بإطلاقه على الله كإطلاق سائر الأسماء الظواهر. ولذلك ساغ نداؤه وإدخال «يا» عليه وليس هو عندهم ضمير غيبة فيعترض بأنه لم يسمع في كلام العرب إلا نداء ضمير الخطاب على خلاف فيه حتى قال الإمام أبو حيان في شرح التسهيل «فكلام جهلة الصوفية في قولهم (يا هو) و(يا ذا) ليس جارياً على كلام العرب وذلك بناء منه على أنه ضمير غيبة في كلامهم لجهله بحالهم ومقاصدهم والحكم على الشيء فرع عن تصوره ومن جهل شيئاً عاداه. وقد قيل: لا تجعلوا لأهل الظاهر حجة على أهل الباطن، فمن نسبهم إلى الجهل فهو أحق به لأنه كذب بما لم يحط به علماً. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسرَاء: ٣٦]. فمن اعترض عليهم من غير ذوق لحالهم فقد تعدّى طوره وجهل قدره.

* * *

قوله: «إن لم نكن لرحمتك أهلاً أن ننالها فرحمتك أهل أن تنالنا» يعني إن لم يكن لنا وصف الاستحقاق لنيل الرحمة من جهة النقص الذاتي لنا، فلرحمتك أهلية الإنالة لإطلاقها وعدم تعليقها. وتلخيصه أن عدم الأهلية كما هو ذاتي في العبد لنقصه فكذلك أهلية الرحمة للإنالة المطلقة ذاتي لكماله تعالى وغناه على الإطلاق.

---

(١) كتاب «التحبير في التذكير» ومؤلفه الإمام عبد الكريم القشيري المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٥هـ.

قال في نوادر الأصول «إن لم نكن معشر العصاة المذنبين أهلاً لرحمته أن ننالها فرحمته الواسعة أهل أن تنالنا».

* * *

قوله: «يا رباه» قال في نوادر الأصول بسنده إلى رسول الله ﷺ أنه قال: **«ما من صوت أحب إلى الله من صوت عبد لهفان»** قالوا: يا رسول الله وما اللهفان؟ قال: **«عبد أصاب ذنباً فكلما ذكر ذنبه امتلأ قلبه فرقاً من الله فقال: يا رباه»**.

قال الحكيم: هذا نداء توجع وحرقة. وكذا يعرف أهل اللغة أنهم إذا أرادوا ينادوا بتوجع وصلوها بمد وهاء فقالوا «يا فلاناه» ليبرز التوجع في المد ويكون الهاء معتمداً، يسكت عليه، فيكون المد أنيناً وأسفاً.

فانظر كيف صرح بأنه نداء توجع فيكون على هذا من باب الندبة لأنها من نداء متوجع عليه ومتوجع منه. والمتوجع منه إما لكونه محل ألم كقوله:

«فواكبدي من حب من لا يحبني»

وإما لكونه سبب ألم كوامصيبتاه ووارزيتاه، ومن هذا يا رباه لأنه نداء إشفاق وفرق من المنادي أن يعذبه بذنوبه ويؤاخذه بها. ومثله ما رأيته بخط الغساني وهو من أشياخ القاضي عياض معلقاً على قول بنت النضر بن الرشاني شعرها الذي كتبت به إليه ﷺ لما انصرف من بدر وقد قتل أباها النضر بعد أبيات وهو:

أمحمد ولدتك خير نجيبة ... في قومها والفحل فحل معرق

يروى أمحمد بالرفع وبالنصب وعليه أرادت يا محمدا نداء ندبة. اهـ.

فصرح فيه بالندبة وليس متفجعاً عليه بل هو متوجع منه لكونه سبب ألم كما قررناه في يا رباه. لكن انظر ما قاله الغساني مع قول النحاة أن الندبة لا تكون إلا بياء أو واو ثم إنه لا يتعين في يا رباه ونحوه أن يكون من باب الندبة إذ يحتمل الاستغاثة، وقد نصّ غير واحد من النحاة على أن لام الاستغاثة يعقبه الألف فيقال: يا لزيد ويا زيداً ولا يجتمعان. ويجوز معها أن يأتي بعد الألف بهاء السكت كما في الندبة ساكنة ويجوز تحريكها في الوصل تشبيهاً بهاء الضمير وكذلك في الندبة. وأما قوله: يا مولاه فإنه يجري فيه ما تقدم.

* * *

قوله: «يا رب» الرواية فيه بضم الباء بناء على أنه معروف بالقصد والإقبال لا على معنى الإضافة، وبذلك يتجه ويتضح كونه مفيداً للربوبية المطلقة العامة لا المخصوصة بالمتكلم على ما تقتضيه الإضافة فيكون مع الإطلاق أبلغ وأمدح.

قوله: «يا من وسع كرسيه السموات والأرض.. إلخ» في ابن الصباغ بعد ذكره حكاية الشيخ رضي الله عنه مع سلطان تونس وما وقع له معه على يد ابن البراء رضي الله عنه قال «فهممت أن أدعو على السلطان» فقيل له «إن الله لا يرضى لك أن تدعو بالجزع من مخلوق» فألهمت أن أقول «يا من وسع كرسيه السماوات والأرض..» إلى قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾ [المُمتَحنَة: ٧].

قوله: «واقرب مني بقدرتك.. إلخ» يعني قرب كشف وعيان من غير كيف ولا أين، وتنزل بلا حلول كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ [النَّجم: ٨] وهو إشارة للتجلي.

وفي البخاري من رواية شريك «دنا الجبار رب العزة» يعني دُنواً يليق بجلاله وبمجده. والآية واردة في حق الرسول ﷺ، ولورثته من الأولياء قسط من ذلك، لأن ذلك من معنى القرب والازدلاف الذي مرجع الولاية إليه وإن كانت فيه ﷺ على وجه أتم وأكمل، بل لا يمكن أن تكون ولاية كولايته، ولا قرب كقربه. لكونها على الجملة موهبة رحمانية محصنة، ومحبة اصطناع وتخصيص واختصاص من الله الكريم لعبده المخصوص بقربه وحبه وليس للكسب فيه مدخل، بل أثر من آثار رحمة الله وقدرته. ويقدر انصباغ العبد بذلك النور، وانغماسه فيه، وتحققه به، يبعد من الوسائط، وتتلألأ في عينه الأسباب، ويجد السكينة والطمأنينة إلى رب الأرباب، فلا يركن لسواه، ولا يعتمد إلا عليه.

وفي دعاء لواضع الحزب رضي الله عنه «وهب لي من نور قدرتك ما يطمئن به قلبي كإبراهيم خليلك. أنت إلهي، بك أكون لك، فأسألك بذلك سعادة لا أشقى معها بمطالعة غيرك، إنك على كل شيء قدير».

وفي بعض توجهاته أيضاً «يا سميع يا عليم يا قريب يا مجيب يا محيط يا دائم أنت الله الذي أسمعتني لذيذ خطابك، وتقربت إليّ بكشف حجابك، ورحمتني من حيث أنت بما أردت بإجابتك فوجدتك محيطاً دائماً، فانتفى المحاط به، مع دوامك».

ثم قال «إلهي أنت أقرب إليّ من تمييز عقلي، ومن تصديق قلبي، ومن محبة روحي، ومن شهادة سري، فأعوذ بك من حجابي بصفاتي إلهي قربك أشتاق إليه من حيث أنت، فلا تحجبني عنه من حيث أنا، لا إله إلا أنت، تُقدم من شئت لما شئت بما شئت، إنك على كل شيء قدير».

وفي توجه آخر له «جلّت أوصافك عن الحدوث، فكيف أكون معك؟ وتنزهت عن العلل فكيف أكون قريباً منك؟ وتعاليت عن الأغيار، فكيف يكون قوامي بغيرك؟» اهـ.

وفي الحكم «قربك منه أن تكون مشاهداً لقربه، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه».

وقال أيضاً: «إلهي ما أقربك مني وما أبعدني منك».

وفي دعاء لسيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه «يا قريب، أنت القريب وأنا البعيد، قربك آيسني من غيرك، وبعدي عنك ردني للطلب لك، فكن لي بفضلك حتى تمحو طلبي بطلبك يا قوي يا عزيز يا علي» اهـ.

* * *

هذا ما يسّره الله تعالى مما امتن به على عبده من الكلام على بعض فوائد الحزب وأسراره وشرح شيء من مقفلاته، وفتح باب من مغلقاته، والله سبحانه ولي الهداية والتوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وصلّى الله على نقطة عين الوجود، والسبب في أصل كل موجود، أكمل خلق خلقته، وأنور نور أشرقته، هادي القلوب بعد الضلال، وسيد النبيين بالتفصيل والإجمال، أحمد الفعل والفعال صلى الله عليه وعلى آله، ما تعاقب الملوان، وسلّم تسليماً كثيراً، والحمد لله على كل حال.

رسالة في قوله تعالى:

﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾

وهي فاتحة الحزب الكبير

تأليف

تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم

ابن عطاء الله السكندري

المتوفى ٧٠٩ هـ سنة

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

قال الشيخ الإمام العارف المحقق تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندري.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾ [الأنعام: ٥٤].

رتب سبحانه وتعالى استحقاق السلام عليهم على مجيئهم للرسول صلوات الله عليه، وكأنه يقول: إذا جاؤوك فسلّم عليهم نيابة عني، فإن سلامك هو سلامي ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠].

ثم اعلم أن المجيء إليه ليس معناه الإتيان إليه في زمن حياته، بل معنى المجيء إليه طاعته وموافقته والإذعان لحكمه والتسليم لأمره، فمن كان بهذه المثابة فقد جاءه وإن لم يدرك زمنه، لأنه إن فاته رؤيته فما فاته مجيئه، فمن اتبع شرعته ولزم سنته، فهو مبلغ السلام من ربه على لسان رسوله وإن تطاولت الأعصار، وبعدت الآثار.

* * *

فإن قيل فما مناسبة السلام هنا؟ قيل لأنهم لما رجعوا إلى الإنابة بعد أن كانوا معرضين، وإلى الاستقامة بعد أن كانوا حايدين، علم أنهم يطالعون ما سبق لهم من المخالفات، ويتذكرون ما فعلوه من السيئات، فيوجب ذلك الوحشة لهم لأجل ما قدّموا ولعظيم ما اجترموا فأراد أن يرخي عليهم ذيل الستر والإحسان ويبسط لهم بساط الأمن والامتنان، ففاتحهم بالسلام أنموذجاً على ما أعدّ لهم من الإكرام.

قال بعض العارفين: إنما يسلم عليهم لأنهم كانوا في غيبة سفرة الجفا، فلما قدموا إلى حاضرة الصفا، سلّم عليهم لأنهم قد وفدوا إليه، ولأنهم ارتحلوا من نفوسهم إليه، ولأن السلام يدل على وجود الأمان ممن برز منه السلام، فكأنه يقول «إذا جاؤوك معتذرين من الخطايا، متنصلين منها، فسلّم عليهم نيابة عني سلاماً يوجب أمنهم من قطيعة الجفا ومن تكدير مشارب الصفا». وأيضاً فإنهم كانوا قبل مجيئهم إليه تحت قهر نفوسهم، فلما جاؤوا للرسول صلوات الله عليه وسلامه، جاؤوا لها قاهرين، وعليها منتصرين، فسلموا من جورها، ومن رقائق نكرها، فلذلك سلم عليهم إشارة إلى أن مجيئكم إلينا كانت سلامتكم، وسلامنا عليكم ظهر من كرامتكم، ولأنهم كانوا قبل مجيئهم إليه لنفوسهم مستندين، وعليها معتمدين، فوكلوا إليها إذ من توكل عليها وكل إليها. فلما جاؤوا إلى الرسول وأنسوا به، جعلهم الله في معاقل صونه، فأيدهم بنصره وأمدهم بعونه. ولأن السلام منه عليهم استجلاباً للمحبة منهم له. قال رسول الله ﷺ: **«ألا أدلكم على أمر إن أنتم فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**[(١)].

* * *

ثم إنه جاء سبحانه بنسبة الإيمان لهم بصيغة تقتضي الدوام والاستمرار والثبوت، فلم يقل: «وإذا جاءك الذين آمنوا». وإن كان محالاً أن يأتوه إلا وقد آمنوا بآيات ربهم، إذ المجيء إليه كما تقدم تقريره ليس إلا موافقته وطاعته ليدل على أن شأنهم دوام الإيمان وثبوت الإيقان، ولغاية جليلة أيضاً. وذلك أنه لو قال: «وإذا جاءك الذين آمنوا بآياتنا»، لم يكن ذلك متضمناً إلا الإيمان بآيات سبق ظهورها، لا بما يظهره من الآيات بعد ذلك. فلما قال: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣] أفاد ذلك أنهم يؤمنون بما ظهر لهم وبما لم يظهر لهم إذا حصل ظهوره لأجل ما تم عليه من نور اليقين، ولما بدوا به من قوة التمكين. ومن هاهنا قال صلوات الله عليه وسلامه ذكر أن بقرة فيمن كان قبلهم تكلمت، فقال الصحابة: «سبحان الله!!» متعجبين. فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلامه: **«آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر»**[(٢)] وهما غائبان.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. . ، حديث رقم (٥٤) [ج١ ص٧٤]. وأول الحديث: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا» ورواه غيره.

(٢) رواه الترمذي في جامعه، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، حديث رقم (٣٦٧٧) [ج٥ ص٦١٥].

واعلم أن مطلوب الله منك أن تكون مؤمناً به ومؤمناً له. وإيمانك له فرع عن إيمانك به. لأن إيمانك به أن تؤمن بألوهيته ووحدانيته، وبما يجب له سبحانه، ويستحيل عليه. وإيمانك له، قبول ما يرد منه وطاعته والانقياد لحكمه. وقد جاء التنزيل مثبتاً للإيمان بالله والإيمان له.

قال الله عز وجل: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥] أي آمن بحقيقته وثبوته.

وكذلك قوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥].

فأما الإيمان بالله فكما تقدم.

والإيمان بالملائكة هو التصديق بأنهم عباد الله، وأنهم مكرمون عنده. والإيمان بالكتب بنسبتها إلى من أنزلها، وتعظيمها لعظمة من أرسلها.

والإيمان بالرسل أنهم المبشرون والمنذرون عن الله، والقائمون بأمر الله. وأما الإيمان له فهو قبول أمره بعد التصديق بوحدانيته وألوهيته.

وكذلك أيضاً واجب عليك أن تؤمن بالرسول وأن تؤمن له. فإيمانك به أن تعلم أنه رسول الله. وإيمانك له قبولك لأمره وانقيادك لحكمه. وقد نفى الله سبحانه الإيمان برسول الله إلا لمن آمن له. فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٥]. أي فلا وربك لا يؤمنون بك حتى يؤمنوا لك. وقد قال الله سبحانه: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ﴾ [العَنكبوت: ٢٦] أي انقاد لحكم إبراهيم وأذعن له. وحكي عن قوم نوح أنهم ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١١١]. أي فنكون قد شاركناهم في الانقياد إليك، ونكون قد تبعناهم في الإيمان لك، فقد فهمت أن الإيمان بالله غير الإيمان لله، وكذلك الإيمان برسول الله غير الإيمان له.

وإذا تكرر هذا فاعلم أن الإيمان هو ثبوت العلم بالله والتصديق بوحدانيته وألوهيته مع انتفاء الشكوك المعارض للعلم. وله ثمرة منتجة وثمرة مستنتجة، فأما المثمر له فهو بعين الحقيقة هداية الله، وبمشهد الشريعة رسول الله. يدل على الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القَصَص: ٥٦]. ويدل على الثاني قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبيَاء: ١٠٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرَّعد: ٧] على أحد التفسيرين، فهداية عباده متوقفة على هدايته سبحانه، وهدايته سبحانه لا تتوقف على

شيء، إذ له كمال الاقتدار في كل شيء، والتوقف ينافي الكمال إلا من حيث ما ثبتت الحكمة. والهداية إن أرجعتها إلى تخصيص الإرادة، فهي لهذا الاعتبار ثابتة في القدم، وإن أرجعتها إلى النور المنبسط في القلب الذي تتجلى فيه حقائق الأشياء بزوال الموانع والأغيار وانكشاف الحجب والأستار، فهي بهذا الاعتبار ثابتة فيما لا نراه. وهذا النور هو شرط الهداية بدليل قوله تعالى وعزّ وجل: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] أي من لم يجعل الله له نوراً في قلبه فما له من نور من دعائك يا محمد.

ولا يعني بشرطية هذا النور أنه تتوقف عليه القدرة، فإن التوقف في القدرة عجز وهو ينافي الكمال الذي ثبت له سبحانه، ولكنه شرط اقتضته الحكمة. فالذي جاء به رسول الله ﷺ نور، ولكن لا بد من نور خاص يكون في القلوب من خفايا ودائع الغيوب، فإذا تطابق النوران حصل الإدراك كما أن البصير له نور خاص هو متصف به، وللشمس نور فيّاض، فإذا تطابق النوران حصل الإدراك، فإن كان بصيراً وفقد نور الشمس فقدت الرؤية لفقدان النور الأعم، وإن كانت الشمس طالعة وهو ليس بصيراً فقدت الرؤية لفقدان النور الأخص.

وقد سبق أن الإيمان هو التصديق، فاعلم أن التصديق تارة يكون مع شهود المصدق به، وتارة يكون مع الغيبة عنه، وهذا نظر كلي.

والطرق التي استند إليها إيمان المؤمنين على ثلاثة أنحاء:

أولها: طريق أهل العموم وهو التقليد، والتقليد هنا العقد الجازم المطابق من غير دليل.

والطريق الثاني: قيام الدليل والبرهان، وهذا طريق أرباب الأفكار والنظر.

والفرقة الثالثة: هم الذين استند إيمانهم إلى شهود وعيان؛ وهم الراسخون في العلم، وهذا طريق أهل الله، ولذلك قال شيخ شيخنا أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان، فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان. وإنا لا نرى أحداً من الخلق بل في الوجود أحد سوى الملك الحق، فإن كان ولا بد فكالهباء في الهوى إن فتشته فلن تجد شيئاً».

وأرباب الدليل والبرهان عند أهل الشهود والعيان كأرباب التقليد عند أهل الدليل والبرهان. وإنما كان كذلك لأن أرباب الشهود والعيان يقولون لأرباب الدليل:

كيف تستدلون عليه بما مفتقر في وجوده إليه؟

متى غاب حتى يحتاج إلى دليل يدل عليه؟

ومتى فقد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟

أيكون لغيره من الظهور ما ليس له حتى يكون هو المظهر له؟

أليس سبحانه أسبق الموجودين، فكماله أسبق الموجودين كذلك؟

ينبغي أن يكون هو المشهود الأول.

ثم يقولون:

إنه أقرب إليك أم الدليل منك هو إليك أقرب؟ فكيف توصل ما هو عنك أبعد إلى ما هو منك أقرب؟ أليس من شرط الدليل أن يكون من المدلول أجلى، ولذلك كان يوصل إليه؟ ومن أجل ظهوره وخفي المدلول كان أولى بأن يدل عليه. وأي شيء أظهر منه سبحانه وهو الظاهر في المظاهر، بل هو الظاهر قبل وجود المظاهر، بل الظاهر الذي خفيت لأجل ظهوره المظاهر.

ثم يقولون:

أليس وجودك غنياً عن إقامة دليل يدل عليه أو أثر يوصل إليه؟ فيقال: بلى!! فيقال: أفيكون وجودك غنياً عن الدليل ولا يكون وجوده غنياً عن الدليل؟ إلى غير ذلك.

ثم اعلم أن الإيمان له أثر ينشأ عنه، وهي الثمرة المنتجة من تعظيم من آمنت به، والحياء من نظره والمسارعة لأمره، والانقياد لحكمه.

ثم اعلم أنه واجب عليك أن تؤمن به سبحانه، وبما يجب له من كمال صفاته.

وصفاته الحسنى هي سميات أسمائه الحسنى. فواجب عليك أن تؤمن بكمال ذاته وكمال صفاته، وكمال أسمائه وكمال أفعاله. فإذا آمنت به وبأسمائه، كان كل اسم من أسمائه يقرر الإيمان منك به، يقتضي أثراً خاصاً لا يقتضيه الاسم الآخر. ولذلك كانا اسمين.

فإذا آمنت به (مجيباً) فحرام عليك أن (تدعو) غيره. وإذا آمنت به منتقماً فواجب عليك أن تكون لمعصيته مجانباً.

ولأجل أن الإيمان له أثر في القلب ينشأ عنه، من زهد في الدنيا، وإقبال على الآخرة، وحياء من المولى، ومراقبة له في السر والنجوى، قال رسول الله ﷺ لحارثة: «كيف أصبحت يا حارثة؟» فقال: «أصبحت مؤمناً حقاً»[١].

فقال رسول الله ﷺ: «لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟».

فقال: «عزفت نفسي عن الدنيا، فاستوى عندي ذهبها ومدرها. وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتنعمون، وإلى أهل النار في النار يعذبون. وكأني أرى عرش ربي بارزاً. فمن أجل ذلك أسهرت ليلي، وأظمأت نهاري».

فقال رسول الله ﷺ: «يا حارثة عرفت فالزم».

وفي بعض طرقه «عبد نوّر الله قلبه بنور الإيمان».

فطالبه الرسول صلوات الله عليه وسلامه بالبرهان الدال على حقيقة إيمانه، لما ادعى ذلك حارثة، يعلمك أن ليس كل صاحب دعوى هي مسلمة له، ولكن لا بد أن يقوم عليه من شواهدها ظاهراً، ما يدل على صدقه فيها باطناً. غير أنه إذا لم تظهر الشواهد لنا لم نقطع بكذبه لجواز أن يكون محقًّا في نفس الأمر، ولا يظهر الله عليه شاهداً من حاله، إذ يكون مراد الله فيه اختفاءه لا ظهوره وتكون الشواهد ظاهرة عليه، لكن ليس لنا أهلية الاستعداد للنظر لها.

وكان شيخنا أبو العباس المرسي رضي الله عنه يقول: «إنما قال الرسول صلوات الله عليه وسلامه: «لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فطالبه ببرهان يدل على صدقه في حاله، يبين لك الفرق بين مقامات الصحابة، ففرق بين مقام الصديق ومقام حارثة فإن الرسول صلوات الله عليه وسلامه قال لأبي بكر: «يا أبا بكر، أتعرف يوم يوم؟» فقال أبو بكر: «نعم والذي بعثك بالحق يا رسول الله سألتني عن يوم المقادير، ولقد سمعتك تقول حينئذ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﷺ»[٢]. وما طالبه رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ببرهان يدل على صدقه في دعواه، فإن عظيم منزلته يأبى ذلك. وانظر رحمك الله إلى فقه حارثة وفهمه، كيف ذكر الزهد في الدنيا وهو الأمر الملتزم بحقيقة الإيمان، والتحقيق بحقائق الإيقان، فلذلك قال: «عزفت نفسي عن الدنيا» فالزهد إنما هو ثمرة الإيمان، أو من آمن بالله حق الإيمان،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، الحارث بن مالك الأنصاري، حديث رقم (٣٣٦٧) [ج٣ ص٢٦٦] وابن أبي شيبة في مصنفه، الحارث بن مالك الأنصاري، حديث رقم (٤٤٥) [ج١ ص١٦٥] ورواه غيرهما.

(٢) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

وأيقن بما أخبر به حق الإيقان، زهد في الدنيا، إذ اليقين مقتضاه الكشف، إذ محال أن يكشف لهم عن تلك الدار ثم يقبل بهمته على هذه الدار. ثم ذكر السبب المقتضي بحقيقة الإيمان عنده وهو مطالعته فقال: «كأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يعذبون» إلى آخره إشارة إلى أن مطالعته أوجبت إيمانه، وإيمانه أوجب زهده. وكان شيخنا رضي الله عنه يقول: «ليس الشأن من وصل بطاعة الله إلى كرامة الله، إنما الشأن من وصل بكرامة الله إلى طاعة الله». كحارثة أشهده الله العوالم الغيبية، ثم كانت طاعته ناشئة عن مطالعته. فلذلك قال: «من أجل ذلك أظمأت نهاري وأسهرت ليلي». وقد جمع حارثة رضي الله عنه بين السبب الذي كان عنه الإيمان، وبين الثمرة التي نشأت عن الإيمان. والسبب الذي كان عنه الإيمان مطالعته، والثمرة التي نشأت عن الإيمان طاعته. فكانت مشاهدة حارثة سابقة لمجاهدته، وهو غير من تكون مجاهداته سابقة لمشاهدته، والأولى حال المصطفين المجذوبين، والثاني حال أهل الإرادة السالكين.

ثم انظر إلى قول حارثة: «كأني أنظر» ولم يقل «نظرت»!!

وكان شيخنا رضي الله عنه يقول: الأولياء يطالعون المثل، والأنبياء صلوات الله عليهم يطالعون حقائق المرئيات، فلذلك قال: «كأني» وقال رسول الله ﷺ: «رأيت الجنة» ولم يقل «كأني».

* * *

فإن قلت قد فسرت الإيمان فما الآيات التي هي متعلقة بالإيمان. فاعلم أن الآيات هي العلامات الدالة عليه، فكل ما دلّ عليه فهو من آياته.. وكل شيء دال عليه. فكل شيء من آياته. فلذلك قال بعضهم:

«وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد»[1]

ولكن قد تكون آية أجلى من آية وإن اشتركتا في مطلق الدلالة عليه. والدليل على ذلك قوله عزّ وجل: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾ [النّازعَات: ٢٠] دلّ بمفهومه بل بما اقتضته صيغة المفاضلة أن ثمة آية صغرى هذه كبراها، وإن كان لو لم يخلق الباري سبحانه إلا الجوهر الفرد لدلّ على ألوهيته ووحدانيته، وغير ذلك من صفاته.

* * *

(١) هذا البيت هو للشاعر أبي العتاهية من شعراء العصر العباسي (١٣٠ ـ ٢١١هـ) والقصيدة من البحر المتقارب وتفعيله: فعولُن فُعولن فعُولن فعولُن.

ثم قال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

اعلم أن ﴿كَتَبَ﴾ [الأنعام: ٥٤] يقال بالاشتراك على معان.. منها:

كتب بمعنى فرض. قال الله عزّ وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ومنها كتب بمعنى خلق ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ومنها كتب بمعنى قضى. ومنه قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] أي قضى الله لأغلبن. ومنه قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

ومنها كتب بمعنى الكتابة على بابها: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقد يكون منه قوله تعالى سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] لما جاء في الحديث الصحيح عنه صلوات الله عليه وسلامه: «**إن الله لما قضى الخلق كتب كتاباً، فهو عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي ولولا ذلك لهلكتم**»[1] وفي رواية «**رحمته تغلب**».

وقد تكون حقيقة كتب بمعنى الكتابة، ومجازاً في الباقي، لأنه المتبادر إلى الفهم، والتبادر دليل الحقيقة. فكأنه سبحانه يقول لك: (يا عبدي علمت اضطرابك، وغلبت شهود مساوئك عليك، فوعدتك رحمتي، وما اكتفيت لك بذلك حتى كتبت لك على نفسي كتاباً، لئلا يستولي عليك اليأس من فضلي، ولئلا يغلب عليك مطالعة عدلي).

فإن قلت: فما اختصاص هذا الاسم هنا، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤] ولم يقل إلهكم ولا خالقكم؟ فاعلم أن الرب هو المربي بالإحسان، ولامتودد لك بالامتنان، فكأنه يقول الذي رباكم بالإحسان أولاً، هو الذي كتب على نفسه الرحمة آخراً، ليضم الإحسان إلى شكله، وليشفع الامتنان بمثله.

فإن قلت: فما هي الرحمة المكتوبة؟ فاعلم أن رحمته كما قال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فلا يحيط بها شيء، بل هي المحيطة بكل شيء. وإليه الإشارة في قوله سبحانه حاكياً على الملائكة صلوات الله عليهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. فكما عمّ علمه فلم يخرج شيء عن علمه،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، حديث رقم (٧٠١٥) [ج٦ ص٢٦٧١] ورواه غيره.

كذلك عمّت رحمته، فلم يخرج شيء عن رحمته. وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. فاستوى برحمانيته على عرشه الذي هو أعظم مخلوقاته، واندرجت العوالم في العرش المندرج في رحمته، إشارة إلى عموم رحمته ولكن الرحمة العامة ليست المقصودة هنا، لأنه خصصها هاهنا بالمؤمنين. وتلك رحمة شملت الكافرين والمؤمنين، وهذه الرحمة التي قال فيها:

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

فلما جاؤوا إلى الرسول متنصلين، ومن الخطايا معتذرين، أمره الله بأن يخبرهم بأن الله قد كتب الرحمة لهم، فأوجبها على نفسه إيجاب فضل وامتنان وتفضل وإحسان، إذ هو سبحانه لا يجب عليه شيء، إذ لو وجب عليه شيء للزمه ما وجب عليه، ولكان في ذلك حكماً عليه.

* * *

ثم قال سبحانه: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

اعلم أن الله أرخى على المؤمنين ذيل الإحسان، وبسط لهم بساط المؤانسة والامتنان، ومهّد لهم مهاد الرحمة، لما جاؤوا مما سبق منهم متنصلين، ومما تقدم منهم معتذرين، أراد سبحانه بصير ببصر، متكلم بكلام، حي بحياة، باق ببقاء.

وله يدان هما صفتان، يخلق بهما ما يشاء سبحانه على التخصيص، وله الوجه، وصفات ذاته، مختصة بذاته، لا يقال هي هو، ولا هي أغيار له، بل هي صفات له أزلية، ونعوت سرمدية، وإنه أحدي الذات، ليس يشبه شيئاً من المصنوعات، ولا يشبهه شيء من المخلوقات. ليس بجسم ولا جوهر، ولا صفاته أعراض.

لا يتصور في الأوهام.. ولا يتقدر في العقول، ولا له جهة ولا مكان، ولا يجري عليه وقت وزمان.. ولا يجوز في وصفه زيادة ولا نقصان.. ولا يخصه هيئة وقد، ولا يقطعه نهاية وحد، ولا يحله حادث، ولا يحمله على الفعل باعث، ولا يجوز عليه لون ولا كون، ولا ينصره مدد ولا عون، ولا يخرج عن قدرته مقدور، ولا ينفك عن حكمه مفطور، ولا يعزب عن علمه معلوم، ولا هو على فعله كيف يصنع وما يصنع ملوم.. لا يقال له أين ولا حيث ولا كيف، ولا يستفتح له وجود فيقال متى كان، ولا ينتهي له بقاء فيقال له استوفي في الأجل والزمان، ولا يقال لِمَ

فعل، إذ لا علة لأفعاله.. ولا يقال ما هو إذ لا جنس له فيميز بأمارة عن أشكاله.. يُرى لا عن مقابلة، ويرى غيره لا عن مماقلة... ويصنع لا بمباشرة ومزاولة.

له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، يفعل ما يريد، ويذل لحكمه العبيد، لا يجري في سلطانه إلا ما يشاء، ولا يحصل في ملكه غير ما سبق به القضاء، فاعلم أنه يكون من الحادثات ما أراد أن يكون، واعلم أنه لا يكون، مما جاز أن يكون ما أراد أن لا يكون..

خالق أكساب العباد، خيرها وشرها.. ومبدع ما في العالم من الأعيان والآثار، قلها وكثرها.. ومرسل الرسل إلى الأمم من غير وجوب عليه... ومتعبد الأنام على لسان الأنبياء عليهم السلام، بما لا سبيل لأحد باللوم والاعتراض عليه، ومؤيد نبينا محمداً ﷺ بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة، بما أزاح به العذر، وأوضح به اليقين والنكر؛ وحافظ بيضة الإسلام بعد وفاته ﷺ بخلفائه، ثم حارس الحق وناصره بما يوضحه من حجج الدين على ألسنة أوليائه.. عصم الأمة الحنيفية عن الاجتماع على الضلالة، وحسم مادة الباطل بما نصب من الدلالة، وأنجز ما وعد من نصرة الدين بقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

فهذه تشير إلى أصول المشايخ على وجه الإيجاز، وبالله التوفيق.

تـــم

تنوير الصّدر
شرح حزب البرّ

تأليف

العارف بالله تعالى الشيخ عمر الشبراوي

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أبرز من نور جماله نوراً اقتبس منه جميع حقائق الكائنات وألبس أهل صفوته من حلل جماله، ذلك النور ما سبق لهم من بدائع المعارف والهبات، وخصّ أهل الأوراد والأحزاب بمزيد الفضل والسعادات، وأذاقهم لذة مناجاته في جميع الأوقات، فجعلهم من أصحاب الرتب والمقامات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد روح الموجودات، وقطب فلك المخلوقات ومجمع حقائق اللاهوتيات ومنبع دقائق الناسوتيات المؤيد بالمعجزات الظاهرات والآيات الواضحات، وعلى آله وأصحابه الذين نالوا به أعلى الدرجات.

وبعد فيقول أسير الشهوات وكثير الغفلات الراجي من الله العفو والصفح عن الزلات والمساوىء الفقير إلى الله تعالى عمر الشبراوي الشافعي مذهباً الخلوتي الأحمدي الشاذلي طريقة، لما أراد الله باجتماعي على بعض الإخوان أصلح الله لي ولهم الحال والشأن، وكان في مولد ابن بنت رسول الله ﷺ سيدنا الحسين رضي الله تعالى عنه وسألني أن أضع لهم كتابة على حزب القطب الشاذلي الكبير المسمّى بحزب البر، وقد شرحه شيخنا الأستاذ الشيخ البهيّ شرحاً عظيماً، لكن لغرابته صعب تناوله على القاصرين من أمثالي، فأجبته لذلك وإن كنت لست أهلاً لما هنالك معتمداً في ذلك على الملك الوهّاب وعلى شرح شيخنا الأستاذ البهي وما يفتح الله به علينا مما تلقيناه عن أشياخنا وكتب بعض العارفين وسميته تنوير الصّدر على حزب البر جعله الله خالصاً لوجهه الكريم وسبباً لنجاتي يوم الدين، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

قال العارف: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) افتتح حزبه بالاستعاذة طرداً للشيطان عن ذاكره، ولأنه افتتح بآيات قرآنية ومذهب الأكثر من الصحابة وفقهاء الأمصار والتابعين والأئمة والقُراء أن الاستعاذة قبل القراءة مندوبة لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ [النحل: ٩٨] أي أردت قراءته فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وهو إما من شاط بمعنى: احترق فوزنه: فعلان ونونه زائدة، وإما من: شطن بمعنى: بعد،

فنونه أصلية ووزنه فيعال، وهو يطلق لغة على كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والحيوان فأل: هنا جنسية فتكون الاستعاذة من جميع الشياطين، أو للعهد فتكون خاصة بإبليس وأولاده فقط؛ لأن الله تعالى جعل لهم قوة على إلقاء الوساوس في قلوب بني آدم، والرجيم فعيل بمعنى: مفعول أي: المرجوم والمطرود عن رحمة الله تعالى، عن السموات برمي الملائكة له بالشهب والثواقب، أو بمعنى: فاعل لرجمه الخلق بالوساوس ومعنى أعوذ بالله: من فضله ورحمته من الشيطان الرجيم، ولما كان كل من انتسب إلى شيخ من مشايخ الطريق لا بد أن يعرف آباءه في الطريق فإن من لم يعرف نسبه فهو لقيط، عنّ لي أن أذكر سند اتصالي بطريق العارف بالله تعالى أبي الحسن الشاذلي، نفعنا الله تعالى بأسراره.

قال أبو العبّاس المرسي خليفة الأستاذ الشاذلي:

لي سادة من عزهم أقدامهم فوق الجباه
إن لم أكن منهم فلي في ذكرهم عز وجاه

سند الشارح في طريقة السيد أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما

فأقول وبالله الإعانة: أخذت هذه الطريقة على مربي روحي الأستاذ سيدي ومولاي محمد السباعي ابن السيّد صالح السّباعي بعد أخذ طريقة الخلوتية عليه، وهو أخذ عن القطب المنير سيدي محمد الأمير الكبير وهو أخذ عن الشهاب السيّد أحمد الجوهري عن القطب سيدي ومولاي الطيب وهو أخذ عن أخيه سيدي ومولاي التهامي الشريف وهما أخذا عن والدهما سيدي محمد التهامي الشريف عن والده القطب السيّد عبد الله بن إبراهيم الشريف العلي أقام في القطبانية نيفاً وثلاثين سنة وكان ورده في اليوم والليلة خمسة وعشرين صلاة على النبي ﷺ وهو أخذ عن سيّدي أحمد الانجري، وهو أخذ عن أبي مهدي سيدي عيسى المصباحي، وهو أخذ عن سيدي محمد الهروي، وهو أخذ عن سيدي عبد الله القزويني وهو أخذ عن سيدي محمد عبد العزيز الخرّاز المعروف بالتباع، وهو أخذ عن سيدي محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن سليمان الجزولي ثم السملالي صاحب «دلائل الخيرات»، وهو أخذ عن سيدي محمد النبطي، وهو أخذ عن سيدي أبي عثمان سعيد الهتان، وهو أخذ عن سيدي عبد الرحمٰن الرجراجي وهو أخذ عن أبي الفضل الهندي، وهو أخذ عن الشيخ العينوس البدوي راعي الإبل أويسي زمانه، وهو أخذ عن سيدي علي البدر القرافي صاحب الذخيرة، وهو أخذ عن شهاب الدين أحمد بن موسى القرافي المصري، وهو أخذ عن أبي عبد الله المغربي السائح عن أحمد المغربي عبد الله عن أبي السائح، وهو أخذ عن القطب الفرد سيدي أبي الحسن الشاذلي علي بن عبد الله بن عبد الجبار الحسني رضي الله تعالى عنه، وهو أخذ عن سيدي عبد السّلام بن مشيش، وهو أخذ عن سيدي عبد الرحمٰن العصار المدني الشهير بالزيات سكناه بحارة الزياتين بمدينة رسول الله ﷺ، وهو أخذ عن سيدي عبد الله التِنايري بكسر التاء المثناة من فوق وكسر الياء المثناة من تحت، وهو أخذ عن أبي بكر الشبلي، وهو أخذ عن

إمام الطائفة أبي القاسم الجنيد بن محمد القوارير البغدادي، وهو أخذ عن خاله الأستاذ السري السّقطي، وهو أخذ عن سيدي معروف بن فيروز الكرخي وهو عن سيدي داود الطائي، وهو عن سيدي حبيب العجمي، وهو أخذ عن سيدي الحسن البصري التابعي، وهو عن سيدنا ومولانا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرّم الله وجهه، وهو أخذ عن سيّد الكائنات سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ وأخذت هذه الطريقة الشاذلية أيضاً عن الأستاذ القطب الشيخ البهي، وعن الأستاذ الولي الكامل سيدي الحاج عفيفي المصري، وهما أخذا عن سيدي عبد الرحمٰن الغريني، عن القطب الفرد سيدي عبد الوهاب العفيفي، وهو أخذ عن سيدي محمد التواني، وهو أخذ عن سيدي محمد بن ناصر، وهو أخذ عن سيدي عبد الله بن حسين الدرعي، وهو عن سيدي أحمد الدرعي ثم الفلاني وهو عن أبي الحسن علي بن عبد الله السحلجاني، وهو عن سيدي أحمد بن يوسف الراشد الملياني دفين مليانة، وهو عن سيدي أحمد البرنسي الفاسي المعروف بزروق، وهو أخذ عن شهاب الدين أحمد بن عبد القادر اليمني المصري، وهو أخذ عن سيدي يحيى الشريف القادري، وهو عن سيدي علي وفا، وهو عن والده سيدي محمد وفا، وهو عن الشيخ شرف الدين الباجلي وهو عن الشيخ تاج الدين أحمد الخراشي نسباً المالكي مذهباً، وهو عن ياقوت الحبشي كلاهما، عن الشيخ أبي العباس المرسي، وهو عن القطب أبي الحسن الشاذلي عمت بركاتهم علينا آمين.

هذا ولنرجع لما نحن فيه فنقول: قد جرت الشراح لهذا الحزب من بعض المغاربة على عدم ذكر البسملة والاقتصار على الاستعاذة ومقتضى ما في كتاب الدرة لابن الصبّاغ من أكابر الشاذلية ذكر البسملة بعد الاستعاذة، والذي تلقيناه عن أشياخنا أيضاً ذكرها بعد الاستعاذة بأسانيد متصلة إلى الأستاذ المصنف قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفَاتِحَة: ١] ابتدأ (المصنف) بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز وعملاً بقوله ﷺ: «كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمٰن الرحيم فهو أقطع»[1] أو «أبتر» أو «أجذم» روايات ثلاث والمعنى على كل أنه ناقص وقليل البركة فهو وإن تم حساً لا يتم معنى، وهو من باب التشبيه البليغ، والباء فيها إما للمصاحبة على وجه التبرك، وإما للاستعانة بالواحد الأحد، والأول أولى مراعاة للأدب، والاسم عند البعض: بين مشتق من السمو وهو العلو؛ لأنه يعلو سماه، والله: علمٌ للذات الواجب

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٩٦٤) [ج٢ ص١٥٦].

الوجود المستحق لكل كمال، الجامع بين الجلال والجمال، والرحمٰن الرحيم: صفتان مشبهتان بنيتا للمبالغة، مأخوذتان من الرحمة بمعنى: الإحسان، أو إرادة الإحسان، لا بمعناهما الأصلي الذي هو رقة في القلب تقتضي البذل، والتفضل والإحسان لاستحالة ذلك عليه تعالى واستشكل استعمال المبالغة في حقه تعالى؛ لأن المبالغة هي: أن تثبت للشيء أكثر مما له، وصفاته تعالى منزهة عن ذلك، لأنها غير متناهية الكمال، واستشكل السبكي، والله على كل شيء قدير لما فيه من المبالغة، لاستلزامه الزيادة على معنى قادر، وهو محال عليه تعالى، وأجاب الزركشي بأن: صيغة المبالغة بحسب زيادة الفعل أو تعداد المفعولات، وهذا لا يوجب للفعل زيادة، لأن الفعل الواحد قد يقع على متعدد وعلى هذا يحتمل صفات الله تعالى بلا إشكال، ولهذا قال بعضهم في اسمه تعالى الحكيم: معنى المبالغة فيه تكرر حكمه بالنسبة إلى الشرائع، وفي نحو اسمه تعالى وهّاب: للدلالة على كثرة الهبات، وفي نحو اسمه تعالى توّاب: للدلالة على كثرة من يتوب عليه حتى نزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة فضله وكرمه، فإن قلت فهل الرحمٰن الرحيم اسمان كما هو المشهور أم هما اسم واحد مركب كبعلبك، قلت: الجواب كما قاله سيدي محيي الدين الذي أعطاه الكشف أنهما اسم واحد، انتهى.

قال بعض العارفين: لما كانت الأسماء الإلهية سبب وجود العالم المؤثرة فيه، كانت البسملة خير ابتداء، وهو ابتداء العالم فكأنه يقول بسم الله الرحمٰن الرحيم ظهر العالم من العدم إلى الوجود، فهي بيان لافتتاح الإيجاد والدخول إلى بيت الوجود بحسب الاستعداد.

فائدة: اعلم أن أول ما أُنزلت البسملة على آدم عليه السلام قال: أمِنتُ ذريتي من العذاب ما داموا على قراءتها، ثم رفعت فأنزلت على إبراهيم فتلاها في كفة المنجنيق فجعل الله عليه النار برداً وسلاماً، ثم رفعت فأنزلت على موسى فبها قهر فرعون وأتباعه، ثم أُنزلت بعده على سليمان فقالت الملائكة والله تمّ ملكك يا ابن داود فلم يقرأها على شيء إلا خضع له، ولما نزلت على عيسى قال الله: يا ابن العذراء أتدري أي آية نزلت عليك؟ قال: أنت أعلم، قال: آية الأمان فأكثر من تلاوتها في قعودك وقيامك ومجيئك ومضجعك وذهابك وصعودك وهبوطك، فإن من وافى يوم القيامة في صحيفته ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفَاتِحَة: ١] ثمانمائة مرة وكان مؤمناً بي أعتقته من النار وأدخلته الجنة، وجعلها الله شفاء من كل داء، ولذا قال سيدي محيي الدين النووي قدس سره:

غـنِ لـي بـاسـم مـن أحـبُ وخـل كل من في الوجود يرمي بسهمه
لا أبـالـي وإن أصـاب فـؤادي أن لا يـضـر شـيء مـع اسـمـه

والكلام على البسملة شهير لا يحتمله هذا الشرح، ولما كانت سورة الأنعام مختصة بنوعين من الفضيلة أحدهما: أنها نزلت دفعة واحدة بمكة ليلاً، ثانيهما: أنها تبعها سبعون ألفاً من الملائكة قد سدُّوا بين الخافقين لهم قوة التسبيح والتحميد، وأنهم يصلون على تاليها لاشتمالها على دلائل التوحيد أتى الشيخ (المصنف) بآيات منها فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ﴾ [الأنعام: ٥٤] أي يا صاحب الرسالة المطلقة والمجيء لخلفائه كالمجيء له ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٥٤] يصدقون بآياتنا جمع آية، وهي العلامة على صدق من أتى بها ﴿فَقُلْ﴾ [الأنعام: ٥٤] لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤] مبتدأ وخبر وجاز الابتداء به وإن كان نكرة، لأنه دعاء والدعاء من المسوّغات، أي: الأمان عليكم من عذاب الله تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤] أي فرض وأوجب إن قلت كيف يتصور الوجوب في مثل ذلك كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] مع أن أهل الحق يقولون: لا يجب على الله تعالى شيء وهو منزّه عن أن يدخل تحت حد الواجب الشرعي، قلت: الجواب عن ذلك كما قاله العارف الشعراني في «الكبريت الأحمر» نقلاً عن الشيخ الأكبر: إن العلم الإلهي إذا تعلق بما فيه سعادتنا كان ذلك معنى الوجوب عليه تعالى من هذا الوجه بمعنى أنه لا بد من وقوعه قطعاً اهـ، ويصح أن يكون كتب بمعنى: حكم كما في حديث «لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى»[1] أي بحكمه تعالى الذي أنزله في كتابه وكتبه على عباده ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢] أي: الإحسان.

﴿أَنَّهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٤] قرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح الهمزة، على أنه بدل من الرحمة بدل شيء من شيء، والتقدير كتب على نفسه أنه من عمل والباقون بالكسر على أنه ضمير الشأن للاستئناف، ومع ذلك هي تفسير للرحمة كما قاله أبو السّعود.

﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤] العمل حركة البدن فيشمل القول، لأنه عمل اللسان، والنية لأنها عمل القلب﴿سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الأنعام: ٥٤] التنوين في الموضعين

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى، باب توجيه تحكيم الحاكم..، حديث رقم (٥٩٧٠) [ج٣ ص٤٧٧].

ليعم الجهل بالله تعالى وصفاته، فكل من عمل سوءاً إنما يفعله بالجهالة. لا يقال: إن العالم قد يقع منه الذنب وهو عالم به، لأنا نقول: لم يقع منه الذنب إلا عند ثوران الشهوة على العقل، فقد ثبت أن كل من عمل السوء أي الأمور القبيحة فلا يقدم عليها إلا بالجهالة أي: السفاهة، لأن داعي الذنوب السفاهة والشهوة وموانعها الحكمة والعقل، ومن فضل الله على هذه الأمة: أن العبد إذا أذنب ثم تاب رجع وندم من بعده، أي: بعد ارتكابه الذنوب وأصلح أعماله تصديقاً للتوبة وتقوية لها، فإنه أي: الرّب السّابق ذكره ﴿غَفُورٌ﴾ [الأنعَام: ٥٤] أي: بليغ الستر على عبده المسيء بإظهار الجميل وستر القبيح، روي عن علي كرّم الله وجهه مرفوعاً: «مكتوب حول العرش قبل أن تُخلق الدنيا بأربعة آلاف عام، وإني لغفار لمن تاب وآمن عمل صالحاً ثم اهتدى، ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأنعَام: ٥٤] أي: محسن لعبده بإكرامه وفضله» وافتتح الشيخ المصنف حزبه بهذه الآية لمناسبتها لمشهده؛ لأن مشهده رحمه الله تعالى كثرة الرّجاء ولما فيها من الترغيب في التوجه إلى الله تعالى والإقبال عليه لسعة رحمته، ثم أعقبها بآية دالة على سعة مخلوقاته وعظيم بدائع مصنوعاته وتنزيهه عن قول المبطلين مع إثبات إحاطة علمه بأحوال خلقه كما ذكر الآية الأولى دلالة على سعة رحمته وإقباله على من اشتغل بطاعته فيتردد التالي للحزب في السعتين فيتعادل رجاؤه وخوفه، وقد مدح الله تعالى من استقام على طاعته بقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٩٠] بتفسير الرغب بالرجاء والرهب بالخوف، فمتى استقام العبد في أحواله استقام في سلوكه في طاعته، باعتدال رجائه وخوفه ومتى قصر في طاعته ضعف رجاؤه ودنا منه الضلال، ومتى قلّ خوفه من مفسدات الأعمال تعرّض للهلاك، ومتى عدم الرجاء والخوف تمكن منه عدوه وهواه، وبعد عن حزب من حفظه ورباه، فقال: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ١١٧] أي: مبدعهما ومخترعهما من غير مقال سبق ﴿أَنَّى يَكُونُ﴾ [الأنعَام: ١٠١] قال في المصباح: أنى استفهام عن الجهة، تقول: أنى يكون هذا؟ أي: من أي طريق ووجه يوجد ﴿لَهُ وَلَدٌ﴾ [الأنعَام: ١٠١]، ولم تكن له صاحبة أي: زوجة يسكن إليها حتى يكون الولد منها لضرورة وجود الولد بدون والده، وهو تعالى لم يجانس ولم يفتقر إلى من يعينه لامتناع الحاجة بل هو الدائم الغني في أبديته، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعَام: ١٠١] أي: عالم علماً ذاتياً على وجه الإحاطة والشمول دون سبق خفاء، ثم لما وصف نفسه تعالى بالعلم والانفراد بالرحمة الواسعة والإبداع والخالقية، ونزّهها عن المحالات النقصية قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ [الأنعَام: ١٠٢] أي: الموصوف المنزّه،

وهو مبتدأ تعددت أخباره المترادفة، وهي ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ما عدا ذاته وصفاته، فالتخصيص هنا عقلي، فهو خالق كل شيء من الكفر والإيمان والأعيان والمعاني، فلا يكون شيء لم يخلقه أصلاً فقدرته عامة ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢] أي: وحّدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان فضلاً عن الجماد الذي لا يضر ولا ينفع ولذا قال العارف الشعراني في «اليواقيت» في المبحث الثالث: أن أعرابياً رأى مرة ثعلباً بال على صنم كان يعبده فقال:

أربٌ يبول الثعلب برأسه ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب
برأت من الأصنام والشرك كله ... وأيقنت أن الله لا شك غالب

وهذا قريب من الضروريات ولذا قال بعضهم: معرفة الله ضرورية، قال: فالناس يشيرون إلى الصانع جلّ وعلا ويعرفونه ولا يجهلون سوى الذات الأقدس ولذا لم تأتِ الأنبياء والرسل ليعلمونا بوجود الصانع، وإنما أتونا ليدعونا إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] قال ابن عباس: إلا ليعرفوني فكما تعلقت الرؤية به تعالى فكان مرئياً كذلك تعلقت به المعرفة فكان معروفاً، لكن ربما تكون معرفة بعض الناس بالله تعالى جهلاً بالنسبة لمن هو أعلى منه درجة اهـ.

ثم اعلم أن المعرفة عند أئمة الأصول هي العلم بالله تعالى وصفاته الذاتية والمعنوية فهذا هو المطلوب من معرفة الصانع جلّ جلاله، لأن الذات مجهولة من حيث الإحاطة بها إذ لا طريق لمعرفتها إلا من طريق الأسماء والصفات، لأن الجهل بذات الله هو عين العلم بها اهـ، فإن قلت: فما الدليل على كون معرفة الله واجبة، فالجواب كما قاله سيدي محيي الدين أن دليل ذلك كون المعرفة من الأمور التي تصل العقول إليها فإن الإنسان إذا دهاه أمر وضاقت به المسالك فلا بد أن يستند إلى إله يتأله إليه ويتضرع نحوه ويلجأ إليه في كشف بلواه، ويسمو بقلبه صعوداً إلى السماء، ويشخص ناظره إليها من حيث إنها قبلة دعاء الخلائق أجمعين فيستغيث بخالقه وبارئه طبعاً وجبلة لا تكلفاً وحيلة ومثل ذلك قد يوجد في الوحوش والبهائم، فإنها ظاهرة الخوف والرجاء رافعة رؤوسها إلى السماء عند فقدان الكلأ والماء وإحساسها بالهلاك، وكذلك شاهدنا الأطفال عند البلوى يرفعون مسبحتهم نحو السماء هذا كله مركوز في جبلة الحيوانات فضلاً عن الإنسان العاقل، وهي الفطرة المذكورة في القرآن

والحديث، ولكن أكثر الناس قد ذهلوا عن ذلك في حالة اليسر وإنما يُردون إليه في حالة الضر قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] ﴿وَهُوَ﴾ [الأنعام: ١٠٢] مع اتصافه بهذه الصفات ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢] أي: حفيظ أو متكفل بمصالح عباده، فهو محتاج إليه كل شيء، ولا يحتاج هو تعالى إلى شيء كما قال بعضهم:

كلي إليك مع الأنفاس محتاج ... لو كان في مفرقي الإكليل والتاج

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أي: لا تحيط به الأبصار كما تحيط بغيره، فالمنفي في الآية: الإدراك، وهو الإحاطة وأهل السنة أثبتت الرؤية وهي المعاينة، وقد تكون بلا إدراك بل على وجه لا يحيط به التعريف من غير انحصار ولا إحاطة ولا مقابلة، ولا إدراك نهاية، ولا تكيف ولا ثبوت مسافة بينه وبين الرائي له، فيراه المؤمنون بإدراك يخلقه الله لهم يدركون به ما ليس في جهة كما خلق في قلوب العارفين في الدنيا العلم بما ليس في جهة، ومقتضى كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومقاتل: التسوية بين الإدراك والرؤية، فإنهما قالا: لا تراه الأبصار في الدنيا، وهو يرى في الآخرة، ويدل على تخصيصها في الآخرة قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فقوله: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] مقيدة بيوم القيامة ويكون هذا جمعاً بين الآيتين، ثم اعلم أن تحقيق هذا المقام إن رؤية الله تعالى في الدنيا لم تثبت إلا لرسول الله محمد ﷺ بالإجماع، وأما المؤمنون فيرونه في الآخرة، وغاية ما تمناه العارفون الرؤية القلبية، كقول سبط سيدي عمر ابن الفارض، قدس الله سرّه ونوّر ضريحه:

أنلنا مع الأحباب رؤيتك التي ... إليها قلوب الأولياء تسارع

ولذا لم يقل عيون بل قال: قلوب الأولياء تسارع لأن الرؤية في الدنيا بالقلب كما علمت، وأما رؤية البصر فهي الموعود بها في الآخرة، وأما قول ابن الفارض:

وإذا سألتك أن أراك حقيقة ... فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى

وإن كان فيه ما يفيد بظاهره علو مقامه عن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: فأجاب عنه العلامة الأمير في حاشيته على عبد السلام بأن رؤية كل بحسبه، أي: فهو طالب للرؤية القلبية بخلاف سيدنا موسى ولذا قال ابن الفارض في محل آخر:

أبق لي مقلة لعلي يوماً قبل موتي أرى بها من رآك اهـ

أو يقال إن ابن الفارض مراده الرؤية في الدار الآخرة بدليل التعبير بإذا، فإنها تدل على الاستقبال، على أنه إذا كان ممكناً فيجوز الطلب بكل ما يمكنه ذلك ولا يلزم من الطلب الحصول وما أحسن قول أبي الفوارس:

لو نيل بالفضل مطلوب لما حرم الرؤيا الكليم
وكان الحظ للجبل

قال النابلسي قدس الله سره قوله: وإذا سألتك، ولم يقل: وإن سألتك، إشارة إلى أن سؤاله سيتحقق منه لإمكانه وعدم امتناعه، وقوله: لن ترى، إشارة إلى ما أجيب به موسى عليه السلام، ولعل طلب سيدنا موسى عليه السلام للرؤية كان مع بقائه على مادته في جبلته، ولهذا كان جوابه ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] يعني وأنت على ما أنت عليه من المادة الطبيعية والنشأة الإنسانية، فإن الرؤية بالتجرد عن الأوصاف المذكورة، كانت مدخرة للحقيقة المحمدية والنشأة الأحمدية، وقد كان من غير سؤال منه ﷺ ولا طلب ولورثته المحمديين نصيب من ذلك، ولهذا ودَّ سيدنا موسى عليه السلام أن يكون من أمته عليه الصلاة والسلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «لو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»[1] ولما كان سيدي عمر بن الفارض من الأولياء المحمديين ومن ورثة محمد ﷺ، قال: لا تجعل جوابي لن ترى، ولا بدع في أن يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل من الخصوصيات، فإن قلت إنَّ طلب ابن الفارض يخالف ما في التائية الكبرى حيث قال:

ومنَّ على سمعي بلن إن منعت أن أراك فمن قبلي لغيري لذت

وقلت: للأولياء الكاملين مقامات يتفاوتون فيها من حال إلى حال، فحاله الأول اقتضى له أن يقول ذلك، وحاله الثاني اقتضى له أن يقول بخلاف ذلك اهـ.

وقال الإمام الشعراني قدس الله سره ونوّر الله ضريحه في «الكبريت الأحمر» نقلاً عن الأستاذ الشيخ الأكبر: إنما منع سيدنا موسى عليه السلام الرؤية، لأنه سألها من غير وحي إلهي بها، ومقام الأنبياء الأدب، فلهذا قيل له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] ثم أنه استدرك استدراكاً لطيفاً، لما علم أن حده انتهى من حين سؤاله الرؤية

---

(١) رواه أحمد في المسند عن جابر بن عبد الله، حديث رقم (١٤٦٧٢) [ج٣ ص٣٣٨] وأبو يعلى في المسند، تابع مسند جابر، حديث رقم (٢١٣٥) [ج٤ ص١٠٢] وابن أبي شيبة في مصنفه، من كره النظر في كتب أهل الكتاب، حديث رقم (٢٦٤٢١) [ج٥ ص٣١٢].

بغير وحي، وإذن إلهي بالإحالة على الجبل في استقراره عند التجلي، لأن الجبل من الممكنات فلما تجلى الحق تعالى للجبل واندك علم نبي الله موسى عليه السلام، أنه لم يكن ينبغي له ذلك، وإن كان الحامل له على ذلك الشوق فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي: بوقوع هذا الجائز مني بلا وحي، فإن قلت: فلمَ رجع سيدنا موسى بعد الصعق إلى صورته، ولم يرجع الجبل بعد الدك إلى صورته، فالجواب عن ذلك: إن الجبل خال عن الروح المدبرة له بخلاف سيدنا موسى عليه السلام. فإن قلت: إن الجماد حي فما هذه الحياة فالجواب: إن المراد بحياته كونه يسبح من غير روح ولا اختيار له في التسبيح كالحيوان اهـ، وأما رؤية الله في المنام فجائزة، كما قاله الشيخ أبو طاهر القزويني رحمه الله تعالى لقوله ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة»[1] وتكون رؤية الله تعالى بواسطة مثال يليق به منزّه عن الشكل وعن الصورة، فيكون تجليه في ذلك المثال كتفهيم الحق تعالى كلامه القديم لعباده بواسطة الحروف والأصوات مع تنزيه كلامه تعالى عن ذلك، فكما أن الكلام الأزلي منزّه عن الصوت والحروف الحادثين وتفهم بواسطتهما كلام الله القديم، فكذلك يجوز أن تكون ذاته الأزلية المنزهة عن الصورة والشكل تُرى بواسطة مثال يناسبها ويليق بجلاله، فيكون كالمثل بفتح المثلثة المذكور في القرآن، في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥] لا كالمثل بسكون المثلثة الذي يوجب المماثلة من كل وجه، لأن الله تعالى إذا تجلّى لعبده في منامه فالروح تعرف بالفطرة الأولية، أي: العهد الميثاقي حين خاطبها أنه هو الإله الحق بخلاف سائر رأياه المحتاجة للتعبير اهـ.

قال سيدي محيي الدين في «الفتوحات»: اعلم أنه لا ينبغي لمسلم أن يتوقف في رؤية الله تعالى في المنام، لأنه لا شيء أوسع من عالم الخيال وذلك أنه يحكم بحقيقته على كل شيء وعلى ما ليس بشيء ويصور لك العدم المحض والمحال والواجب فضلاً عن الممكن ويجعل الوجود عدماً والعدم وجوداً، فعلم أن ما جاز وقوعه في المنام والدار الآخرة جاز وقوعه وتعجيله لمن شاء في اليقظة والحياة الدنيا لكن لم تقع الرؤية بالبصر في الدنيا إلا له ﷺ، لكن هنا دقيقة وهي: أن الالتذاذ

---

(١) رواه الدارمي في سننه، باب الرؤيا لا تقع..، حديث رقم (٢١٤٩) [ج٢ ص١٧٠] والطبراني في المعجم الكبير، حديث عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه، رقم (٩٣٨) [ج١ ص٣١٧] ورواه غيرهما.

برؤيته تعالى إنما هو راجع لرؤية المظاهر التي تجلى الحق تعالى فيها تنزلاً للعقول لا إلى الذات، وإيضاح ذلك أن الالتذاذ بالرؤية لا يكون إلا برؤية من بيننا وبينه مناسبة ومجانسة، ولا مناسبة بيننا وبين الحق تعالى بوجه من الوجوه، فكيف الرؤية فالجواب: إن الحق تعالى إذا أراد أن يتفضل على عبد من عباده المختصين به بأن يحصل له الالتذاذ برؤيته تعالى أقام له مثالاً يتخيله في عقله مطابقاً له لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] فإذا أراد الله أن يري عبداً من عبيده نفسه تعالى، فلا بد من فناء العبد عن شهود نفسه عند التجلي وتجرد الروح تجرداً معنوياً، وحينئذ ترى ربها كما تراه الملائكة، ثم إذا أراد الله أن ينعم على عبده ويلذذه برؤيته تعالى ومشاهدته فلا بد من إرسال الجواب فيقع التلذذ للمشاهد من خلف حجاب العظمة والكبرياء، وهذه مسألة من الأسرار، وما أظهرتها باختياري، وإنما كنت في إظهارها كالمجبور، ثم قال الشيخ المذكور: فإن قلت: فهل ثم وجه جامع بين من أثبت رؤية الله تعالى وبين من نفاها قلت: اعلم أن من أثبت الرؤية أراد أنها تكون على قدر وسع العبد، ومن نفاها أراد أن حجاب العظمة مانع من رؤية حقيقة الذات الأقدس وكل من لا يحيط بشيء كأنه لم يره مع أنه رآه إذ حجاب الكبرياء على الذات المقدس لا يرفع أبداً، كما أشار إليه قوله ﷺ: «**وليس على وجهه تعالى إلا رداء الكبرياء في جنة عدن**» رواه مسلم.

وإذا كان هذا الحجاب لا يرتفع فما وقعت الرؤية دائماً إلا على الحجاب، فصحّ قول من أثبتها وقول من نفاها، فهذا جمع بين الأقوال، فالحاصل أنه إذا أشهدك نفسه تعالى أفناك عن شهود وجودك، لأنه لا يشهده عاقل، ولا يلتذ بالمشاهدة عاقل، لأنه إذا التذّ بالرؤية والمشاهدة كانت اللذة برؤية المظاهر التي تجلّى الحق تعالى فيها تنزلاً للعقول لا إلى الذات المنزّهة عن كل نقص كما تقدم اهـ، وبهذا يتضح قول ابن الفارض قدس سره:

أتـدري أنـي أحـن لـهـجـره مذ كنت مشتاقاً له كوصاله

أي: منذ كنت مشتاقاً لهجرهِ كاشتياقي لوصاله، لأن اللذة حاصلة بالحجاب الذي هو كناية عند المحبين عن الهجر، وأما الوصال فلا يلتذ به إلا بعد رجوعه لمقام الفرق، ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أي: يراها ويحيط بها علماً، فلا يخفى عليه شيء، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أي: العليم بخفيات الأمور وحقائقها ودقائقها ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] بذات الأسرار، فلا يكون في الملك والملكوت

شيء إلا وهو خبير به ويعلمه، ولما كان الشيخ المصنف وارثاً محمدياً فقد ثبت عنه أنه قال: أخذت ميراثي عن رسول الله ﷺ فتمكنت من خزائن الحروف ومعانيها أتى في حزبه هذا بقوله: ﴿الٓرۚ﴾ [الحِجر: ١] ﴿كٓهيعٓصٓ ۝﴾ [مريَم: ١] ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝﴾ [الشورى: ١، ٢] قال المفسر: الله أعلم بمراده بذلك، وقال الأستاذ الشعراني في «اليواقيت» نقلاً عن سيدي محيي الدين قدس الله تعالى سرهما ونوّر ضريحيهما: اعلم أن جميع الحروف المقطعة أوائل السور كلها أسماء ملائكة، وقد اجتمعت بهم في بعض الوقائع وما منهم من ملك إلا وأفادني علماً لم يكن عندي فهم من جملة أشياخي من الملائكة، فإذا نطق القارىء بهذه الحروف كان مثل ندائهم فيجيبونه، لأنه ثم رقائق ممتدة من ذواتهم إلى أسمائهم، فإذا قال القارىء: ﴿الٓمٓ ۝﴾ [البَقَرَة: ١] مثلاً قال هؤلاء الثلاثة من الملائكة: ما تقول؟ فيقول القارىء: ما بعد هذه الحروف، فيقولون له: صدقت ويقولون: هذا مؤمن نطق بحق، وأخبر بحق فيستغفرون له، وهكذا القول في الباقي، فمن نظر في هذه الحروف سخرت له هذه الأرواح المجردة الملكية فتمده بما في يدها من شعب الإيمان وتحفظ عليه إيمانه إلى الممات، وقال ابن عباس: إن هذه الحروف بأعيانها نزلت في جميع كتب الله تعالى المنزلة على كل نبي أُنزل عليه كتاب، وقيل: إنها أسماء للسور، وقيل: غير ذلك، والله أعلم بأسرار كلامه تعالى.

ولما كان الشيخ المصنف من خلفاء الله في أرضه ودالاً على الله تعالى بحق وكانت سنة الله جارية ببلاء من كان كذلك بالأعداء المنكرين كما حصل لكثير من الأنبياء سأل الله تعالى أن ينجز له الحكم بالفصل بينه وبين الأعداء كما سأله عليه الصلاة والسلام فيما حكاه تعالى عنه بقوله: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ﴾ [الأنبيَاء: ١١٢] أي: افصل بيني وبين المكذبين بالعذاب لهم، والنصر عليهم وهو الحق الذي أمر الله نبيه أن يسأله إياه، فعجله له فعُذّبوا يوم بدر وأحد والأحزاب وخيبر ونُصر عليهم، وقال العارف الشعراني في «الكبريت الأحمر» نقلاً عن الشيخ الأكبر قدس سرهما: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ﴾ [الأنبيَاء: ١١٢] أي: بالشرع الذي بعثتني به، ولا تعامل عبادك بمقتضى علمك القديم، ولذا لا يصح للقاضي أن يحكم في الدعوى بعلمه، بل لا بد من إقامة البينة اهـ، فإن قلت: إن الله تعالى يحكم بالحق طلب العبد منه ذلك أم لا؟ قلت: إن في طلب العبد ذلك ظهور الرغبة من الطالب في حكمه الحق ﴿وَرَبُّنَا﴾ [الأنبيَاء: ١١٢] أي مالكنا ومدبرنا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الأنبيَاء: ١١٢]، أي: الذي عمّت رحمته للبار والفاجر

ولولا ذلك لكنا هالكين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ [فاطر: ٤٥] الآية ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ [الأنبياء: ١١٢] أي: المطلوب منه الإعانة والعون في كل شيء وقد جعلت المعونة له ﷺ ولورثته من بعده ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢] أي: تذكرونه من الباطل في حق الله تعالى وحق رسوله ﷺ، ولما اشتملت سورة طه على معان مستحسنة وأنها مما تقرأ في الجنة، أتى الشيخ المصنف بآية منها فقال: ﴿طه ۝﴾ [طه: ١] الأكثر أنها اسم للنبي ﷺ أي: يا سيد البشر المبعوث من العرب إلى العجم والعرب وغيرهما من الخلائق أجمعين: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝﴾ [طه: ٢] بل لتسعد به أنت ومن اتبعك، وما كان هذا الإنزال ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ [طه: ٣] أي: موعظة فهو منصوب على الاستثناء المنقطع الذي فيه إلا بمعنى: لكن أو منصوب بفعل مضمر أي أنزلته تذكرة أي عظة واعتباراً، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الذاريات: ٥٥] ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٣] أي: لمن علم الله منه أن يخشى بالتخفيف منه، فإن المنتفع به ﴿تَنزِيلًا﴾ [طه: ٤] أي: منزلاً إليك بالتدريج على حسب الوقائع ﴿مِّمَّنْ﴾ [طه: ٤] أي: من الله الذي ﴿خَلَقَ﴾ [طه: ٤] أي: أوجد واخترع ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ [طه: ٤] من زبد ومدها سبعة وأرساها بالجبال وقدمها في الذكر لشرفها على السماء، لأنها مسكن الأنبياء ولقربها للحس وظهورها أكثر من السموات وخلق ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [طه: ٤] جمع سماء، وإنما جمعها دون الأرض لأن طبقاتها مختلفة الذوات، بخلاف الأرض، فإنها من جنس واحدة ﴿ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤] أي العالية الرفيعة التي لا يقدر على خلقها غيره تعالى، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥] الاستواء كناية عن انفراده بالتدبير وإحاطة علمه وقدرته، أو يقال استواء يليق به بدون وصف التمكن والاستقرار، لأن الاستواء الحقيقي غير ممكن والتأويل لا بد منه سلفاً وخلفاً، غير أنه عند الخلف تفصيلي والسلف إجمالي ولذا لما طلب الزمخشري من الغزالي التفصيل ردّ عليه بالتشنيع بقوله:

قل لمن يفهم عني ما أقول ... قصر القول فذا شرح يطول
ثمّ سر غامضٌ من دونه ... قصرت والله أعناق الفحول
أنت لا تعرف إياك ولا ... تدري من أنت ولا كيف الوصول
لا ولا تدري صفات ركبت ... فيك حارت في خفاياها العقول
أين منك الروح في جوهرها ... هل تراها فترى كيف يجول
وكذا الأنفاس هل تحصرها ... لا ولا تدري متى عنك تزول
أين منك العقل والفهم إذا ... غلب النوم فقل لي يا جهول

أنت أكل الخبز لا تعرفه | كيف يجري منك أم كيف تبول
فإذا كانت طواياك التي | بين جنبيك كذا فيها ضلول
كيف تدري من على العرش استوى | لا تقل كيف استوى كيف النزول
كيف يحكي الرب أم كيف يرى | فلعمري ليس ذا إلا فضول
فهو لا أين ولا كيف له | وهو رب الكيف والكيف يحول
وهو فوق الفوق لا فوق له | وهو في كل النواحي لا يزول
جلّ ذاتاً وصفاتاً وسما | وتعالى قدره عما تقول

قال العارف الشعراني في «اليواقيت» في المبحث الثامن عشر: إن الشيخ الأكبر في «الفتوحات» مائل إلى التسليم وعدم التأويل في المتشابهات، إلا إذا خفنا على إنسان وقوعه في محظور إن لم تؤول له ذلك فيتعين حينئذ التأويل كما فتح لنا الحق باب التأويل للضعفاء بقوله في حديث مسلم وغيره: «**مرضت فلم تعدني**» فإن العبد لما توقف في ذلك، وقال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال له الحق تعالى: «**أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما أنك لو عدته لوجدتني عنده**»[1] إلى آخر النسق، لأنه تعالى ما كلفنا أن نعلم حقيقة نسبة الصفات إليه لعلمه بعجزنا عن ذلك، فإن حقيقته تعالى مباينة لجميع صفات خلقه، واعلم يا أخي أن صفة الاستواء على العرش، والنزول إلى سماء الدنيا والفوقية للحق، ونحو ذلك كله قديم، والعرش وما حواه مخلوق محدث بالإجماع، وقد كان تعالى موصوفاً بالاستواء والنزول قبل خلق جميع المخلوقات، كما أنه لم يزل موصوفاً بأنه خالق ورازق ولا مخلوق ولا مرزوق فكان قبل العرش يستوي على ماذا؟ وقبل خلق السماء ينزل إلى ماذا؟ فانظر يا أخي بعقلك في معنى الاستواء والنزول قبل خلق العرش والسماء فاعتقده بعد خلقهما كذلك، وأنا أضرب لك مثالاً في الخلق تعجز عن تعقله فضلاً عن الخالق، وذلك أن كل عرش تصورت وراءه خلاء، أو فلاة من جهاته الست فليس هو عرش الرحمٰن، الذي وقع الاستواء عليه، فلا يزال عقلك كلما تقف على شيء يقول لك فما وراءه، فإذا قلت له خلاء يقول لك فما وراء الخلاء، وهكذا أبد الآبدين، ودهر الداهرين، فقد عجز العقل والله في تعقل مخلوق فكيف بالخالق،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل عيادة المريض، حديث رقم (٢٥٦٩) [ج٤ ص١٩٩٠]، وابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر الدال على أن هذه الألفاظ..، حديث رقم (٩٤٤) [ج٣ ص٢٢٤].

فعلم من ذلك كله أن غاية العقل في تنزيه الباري جلّ شأنه عن كيفية الاستواء أن يجعل ذلك باستواء تدبير كما تقدم، ثم قال العارف الشعراني المذكور: وقد رأيت في كتاب «سراج العقول» للشيخ أبي طاهر القزويني رحمه الله تعالى كلاماً نفيساً في مسألة الاستواء على العرش وها أنا ألخص لك عيونه فأقول وبالله التوفيق: قال في الباب الثالث من كتابه المذكور في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] اعلم أن الله تعالى قد خلقنا من الأرض في الأرض، وخلق فوقنا الهواء، وخلق من فوق الهواء السموات طبقاً فوق طبق وخلق فوق السموات الكرسي وخلق فوق الكرسي العرش العظيم الذي هو أعظم المخلوقات، ولم يبلغنا في كتاب ولا سنة أن الله تعالى خلق فوق العرش شيئاً، وأما ما جاء من ذكر السّرادقات والشرفات والأنوار، فهو من جملة العرش وتوابعه، فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] أي: استتم خلقه على العرش، فلم يخلق خارج العرش شيئاً، وجميع ما خلق، ويخلق دنيا وأخرى لا يخرج عن دائرة العرش، لأنه حاو لجميع الكائنات، ومع ذلك فلا يزن في مقدوراته ذرّة، ثم قال أبو طاهر: وأولى ما يفسر القرآن بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] أي: استتم شبابه، وقال تعالى: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩] أي: استتم ذلك الزرع وقوي وإذا احتملت الآية والحديث وجهاً صحيحاً سالماً من الإشكال وجب المصير إليه، ولكنّ النفوس تميل إلى الخوض في الشبهات، وقد اختلفت آراء السلف والخلف في معنى آية الاستواء، وذكروا في تفسيرها كل رطب ويابس وقد عظمت الشبهة بذلك حتى أداهم إلى التصريح بالتجسيم، واقتضى الأمر بين الأئمة إلى التكفير والتضليل والضرب والشتم والقتل والنهب والألقاب الفاضحة، ولله تعالى في ذلك سر عجيب لا يعلمه إلا هو تعالى، مع أن الآية عما فهموه بمعزل كما ذكرنا، ثم قال الشيخ المذكور: وإيضاح ذلك أن الله تعالى ما ذكر الاستواء على العرش في جميع القرآن إلا بعد ذكر خلق السموات والأرض، وذلك في ستة مواضع: الأول في سورة الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] الثاني في سورة يونس ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يونس: ٣] الثالث في سورة طه ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٤، ٥] الرابع في سورة الفرقان ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] الخامس في سورة السجدة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السّجدَة: ٤] السادس في سورة الحديد ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٤] والمعنى في هذه الآيات كلها ثم استوى الخلق على العرش، أي استتم خلقه بالعرش فما خلق بعد العرش شيئاً كما يقال استقر الملك على الأمر الفلاني، واستقر الأمر على رأي القاضي، أي ثبت وهو ما روي عن ابن عباس أنه قال: استوى استقر، وهو بمعنى: استتم، واستكمل فإن قيل، فما قولك في سورة طه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وفي سورة الفرقان ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفُرقان: ٥٩] فالجواب: أن الشبهة إنما وقعت فيهما من جهة النظم، وإلا فالقصة في جميع الآيات واحدة وللنظم طرق عجيبة في القرآن، فأما قوله في طه ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٤، ٥] فإن الرحمن تفسير وإيضاح لقوله: ممن أي هذا الخالق هو الرحمٰن ثم قال: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أي استوى خلقه، وفاعل استوى هو المصدر الذي يدل عليه لفظ خلق، ويسمى ذلك بالضمير المستتر فوقع استوى في آخر الآية، لأن مقاطع هذه السورة على الألف المقصورة، وأما قوله في سورة الفرقان ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفُرقان: ٥٩] ففيه تقديم وتأخير في الآية تقديره الذي خلق السموات والأرض هو الرحمٰن، ثم استوى على العرش فالرحمٰن مبتدأ خبره مقدّم عليه، وذلك الخبر، هو قوله الذي خلق، كما تقول الذي جاءك زيد، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعرَاف: ٥٤] اعتراض في الكلام والمعنى كما قلنا استوى خلقه على العرش يعني: استتم، ثم قال الشيخ أبو طاهر المذكور: هذا وكم ناظر في كلامي يبادر إلى ملامي ويقول: إنك بدعت للآية تفسيراً مخالفاً لما قاله جمهور السلف والخلف، وفي مخالفتهم خرقٌ للإجماع، وإني والله أعذره في ذلك، فإن النزول عما يتلقاه الفتى من آبائه وشيوخه صعب جداً حقاً كان أو باطلاً، والذي أقوله أن الذي ذكرناه محتمل صحيح، وإن سماه بعضهم بدعة، فكم من بدعة مستحسنة وأطال في ذلك.

قال الشعراني في «الكبريت الأحمر» نقلاً عن ابن العربي: فإن قلت فما الحكمة في إعلامه تعالى لنا بأنه استوى على العرش بناء على أن المراد بالعرش مكان مخصوص لجميع الأكوان، فالجواب: إن الحكمة في ذلك تقريب الطريق على عباده، وذلك أنه تعالى لما كان هو الملك العظيم، ولا بد للملك من مكان يقصده فيه عباده لحوايجهم، وإن كانت ذاته تعالى لا تقبل المكان قطعاً اقتضت المرتبة الإلهية، أن

يخلق عرشاً وإن يذكر لعباده أنه استوى عليه ليقصدوه بالدعاء، وطلب الحوائج، فكان ذلك من جملة رحمته لعباده، والتنزل لعقولهم ولولا ذلك لبقي صاحب العقل حائراً لا يدري، أين يتوجه بقلبه، فإن الله تعالى خلق العبد ذا جهة من أصله، فلا يقبل إلا ما كان في جهة ما دام عقله حاكماً عليه فإذا منَّ الله تعالى عليه بالكمال واندرج نور عقله في نور إيمانه، تكافأت عنده الجهات في جناب الحق تعالى وعلم وتحقق أنه تعالى لا يقبل الجهة ولا التحيز، وأن العلويات كالسفليات في القرب منه تعالى سواء قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فعلم أن الشرع ما تبع العرف إلا في حق ضعفاء العقول رحمة بهم.

ثم قال الشعراني في «اليواقيت» نقلاً عن الشيخ الأكبر: اعلم أن كل من ادعى العلم بالله تعالى على وجه الإحاطة كذبناه، وقول الشبلي إن الحق تعالى إذا حيطهم أحاطوا به فرض محال، لأنه لم يبلغنا وقوعه لأحد فكيف تصح إحاطته لمخلوق على الوجه المعقول اللهمإلا أن يريد الشبلي بالإحاطة الإحاطة بأنه لا تأخذه الإحاطة، فلا يدع حينئذ فإن قلت في حديث: «**كان ربنا في عماء ما فوقه هواء، وما تحته هواء**»[(١)] فإنه أثبت له الفوق والتحت مع أن «ما» في الحديث نافية لا موصولة، فليس فوق العماء الذي كان الحق تعالى فيه هواء ولا تحته هواء، وذلك ليخالف مرتبة المحدثات، فإن العماء عند العرب هو السحاب المرتفع والكثيف أو الممطر أو الرقيق أو الأسود أو الأبيض، أو هو الذي هراق مائه اهـ، القاموس وكيف أجابه ﷺ مع أن السائل قال: يا رسول الله أين كان قبل أن يخلق الخلق، فما هذا العماء إن كان مخلوقاً، فالجواب عن ذلك: أن جوابه لا يذكر إلا مشافهة لأهله لأن الكتاب يقع في يد أهله وغير أهله لأنه سر لا يطلع عليه إلا أهله، والله أعلم.

ثم ذكر الشيخ المذكور في المبحث الثاني والعشرين إشارة لهذا السر في قوله ﷺ: «**إن لله تعالى سبعين ألف حجاب بينه وبين خلقه، لو كشفها لاحترقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه**» وفي رواية: «**أن لله نيفاً وسبعين حجاباً من نور وهو الجمال وظلمة وهو الجلال لو كشفها لاحترقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره**»[(٢)] يعني: الواصل إلى ذلك المقام لم يبقَ له عين ولا أثر، وهي الحالة التي

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الأخبار عما كان الله فيه. . ، حديث رقم (٦١٤١) [ج١٤ ص٨]، والترمذي في جامعه الصحيح، باب ومن سورة هود، حديث رقم (٣١٠٩) [ج٥ ص٢٨٨]، وابن ماجه في سننه، باب فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم (١٨٢) [ج١ ص٦٤] ورواه غيرهم.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

يسمونها الصوفية المحق والسحق، فكل عدد من أعداد هذه الحروف إشارة إلى مرتبة من مراتب الحجب التي احتجب الله تعالى بها عن خلقه، وفي كل مرتبة من مراتب الحجب ألف حجاب من نوع تلك المرتبة كالعزة مثلاً، فإن قيل: كيف رؤية البارىء لخلقه؟ الجواب أن صورة نظر الباري لخلقه أنه ينظر إليهم بعين الرحمة، لا بعين العظمة، كما يليق بجلاله تعالى، ولهذا أثبت العالم معه عند الرؤية، ولو أنه تعالى نظر إلى العالم بعين العظمة كما يليق بجلاله لاحترق العالم كله بسبحات وجهه كما مر في الحديث.

ثم قال الشيخ المذكور: وهذه الرحمة هي عين الحجاب الذي بين العالم وبين السبحات المحرقة، فهي كالعماء الذي أخبر الشارع أن الحق تعالى فيه قبل أن يخلق الخلق، وأكثر من ذلك لا يقال، والمراد بالاحتراق في الحديث التلاشي والاضمحلال، والله أعلم، ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [طه: ٦] ملكاً وخلقاً وعبيداً، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [طه: ٦] من الهواء والسحاب والطيور والبحار، ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦] أي: التراب، قال ابن عباس: ما تحت الثرى لا يعلمه إلا الله تعالى، ولما كان كل ذلك من خلق السموات والأرض وغيرهما دالاً على كمال قدرته تعالى، وهي تابعة للإرادة الإلهية، وهي لا تنفك عن العلم أعقب ذلك بإحاطة علمه بالجليات والخفيات بقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ﴾ [طه: ٧] تعلن ﴿بِٱلْقَوْلِ﴾ [طه: ٧] في ذكر أو دعاء: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ [طه: ٧] هو ما يكتم في النفس من الحديث وعند العارفين باطن الروح وهي الحقيقة القابلة للتجليات، ومحل المشاورات وأصل مجتمع الأنوار الربانية المودعة في الذوات الإنسانية، وقال الإمام المصنف: السر هو الذي لا يطلع عليه ملك ولا شيطان، ولا تحس به النفس ولا يشهده العقل، وهو في إضمار لم تحوه الهمم، وهو في لب لباب القلب من حقائق حضرات الإلهام كشرار النار الكامن في الشجر الرطب، فإذا أراد الله إظهاره انتقل إلى الأحوال، ﴿وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] هو باطن السر فلا يطلع عليه أحد ولا يعلمه إلا الله تعالى، قال ابن الفارض قدس سره:

أخفيت حبكم فأخفاني أسىً ... حتى لعمري كدت عني أختفي
وكتمته عني فلو أبديته ... لوجدته أخفى من اللطف الخفي

إذاً اللطف الخفي هو: التوفيق الذي يخلقه الله تعالى في العبد من حيث لا يشعر وقوله كدت عني اختفى إشارة إلى الفناء بالله تعالى، فإنه تعالى إذا ظهر لعارف أخفاه عن نفسه فلا يجد غير الله تعالى، وقال بعض العارفين: أخفى فعل ماض أي: أنه تعالى يعلم أسرار العباد وأخفى سره عنهم، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ﴾ [طه: ٨] معبود في

الوجود بأسره ﴿إِلَّا هُوَّ﴾ [طه: ٨] الخالق العالم ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ﴾ [طه: ٨] جمع اسم من السمو، وهو العلو، وهو عين المسمى عند أكثر الصوفية وبعض المتكلمين.

وأسماء الله تعالى الحسنى تسعة وتسعون اسماً على المعتمد كما في حديث «من أحصاها دخل الجنة»، وأسماؤه تعالى قديمة باعتبار التسمية بها وليست من وضع الخلق بل سمى ذاته تعالى بها أزلاً وأبداً وهي توقيفية، وما ورد إطلاقه عليه في الكتاب والسنة، وانعقد الإجماع عليه جاز إطلاقه، وإلا فلا، قال العارف الشعراني في «اليواقيت» في المبحث الخامس عشر، قال أبو بكر الباقلاني: يجوز لنا أن نطلق عليه الأسماء اللائقة معانيها به تعالى، وإن لم يرد بها شرع، قال ابن أبي شريف: وليس الكلام في أسمائه الأعلام الموضوعة في اللغات، وإنما الخلاف في الأسماء المأخوذة من الصفات والأفعال كما نبّه عليه السيد في شرح «المواقف»، وقال سعد الدين في «المقاصد» محل النزاع ما اتصف الباريء جلّ جلاله بمعناه، ولم يرد لنا إذن به، وكان مشعراً بالجلال والعظمة من غير وهم إخلال. قال ابن أبي شريف: والقيد الأخير للاحتراز عن إطلاق ما يوهم إطلاقه أمراً لا يليق بكبريائه تعالى كلفظ عارف مثلاً لأن المعرفة قد يكون المراد بها علماً سبقه غفلة وكلفظ فقيه، فإن الفقه فهم غرض المتكلم ولولا كلامه ما فهم منه شيء، وذلك يشعر بسابقه جهل، قال سيدي محيي الدين ابن العربي قدس سره: اعلم أنه لا يجوز إجماعاً أن نشتق له اسماً من نحو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥] ولا من نحو قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٥٤] وإن كان تعالى هو الذي أضاف ذلك إلى نفسه في القرآن العزيز فنتلوه على سبيل الحكاية، فقط أدباً معه تعالى ونخجل منه من حيث تنزله تعالى لعقولنا ومخاطبته بالألفاظ اللائقة بنا لا به، ثم أنشد فقال:

إن الملوك وإن جلت مناصبها   لها مع السوقة الأسرار والسمر

فعلم أن تنزل الحق لعباده من جملة عظمته ويزداد ذلك تعظيماً في قلب العارف به تعالى، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] يعني الواردة في الكتاب والسنة وما ثم إلا حسنى إذاً لا يصح أن يكون لها مقابل اهـ، ويكرر التالي للحزب ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه: ٨] ثلاثاً كما هو السنة في الذكر والدعاء.

فائدة: اعلم أن الله علم على الذات الواجب الوجود، وليس مشتقاً، لأن الله تعالى سمّى نفسه به أزلاً قبل خلق المشتق، والمشتق منه، وما قيل من الخلاف في الاشتقاق وعدمه إنما هو في لفظة إله لا في الله، لأنه أعرف المعارف، وما قاله الخلخالي: من أن اسم الله، اسم لمفهوم الواجب لذاته، والمستحق للعبودية، وكل منهما كلي انحصر في فرد، فلا يكون علماً، لأن مفهوم العلم جزئي، رده السعد التفتازاني بأنه سهو، ولا نسلم بأنه اسم لهذا المفهوم الكلي، ألا ترى أن قولنا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصّافات: ٣٥] تفيد التوحيد باتفاق، من غير توقف على اعتبار مفهومه، فلو كان اسماً لمفهوم المعبود بحق، أو الواجب لذاته، لا علماً للمفرد الموجود منه لما أفادت التوحيد، لأن الإله في هذه الكلمة، إما للمعبود بحق فيلزم استثناء الشيء من نفسه، وهو محال، أو مطلق المعبود، فيلزم الكذب لكثرة المعبودات الباطلة فيلزم أن يكون الإله بمعنى المعبود بحق، أي وهو كلي ويكون الله علماً للفرد الموجود منه والمعنى لا مستحق للعبودية في الوجود، أو موجود إلا الفرد الخالق العالم، وهذا الرد في غاية الحسن.

ولما افتتح الشيخ المصنف حزبه بتلك الآيات المذكورة المقتضية للرجاء والخوف والثناء عليه تعالى أخذ يذكر المطالب مبتدئاً بأول مقامات الطريق، وهي اليقظة، لأنها مبدأ أمر السلوك عند أخذ المريد في السير، فإن الإنسان أول أمره كالنائم لغفلته عما وراءه من أمور الآخرة، واشتغاله بأمور سريعة الزوال وهي الأمور الدنيوية، ولا يقع ذلك إلا من جاهل، أو غافل، قال ﷺ: **«الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»**(١) أي ماتت نفوسهم بالرياضة وقمع النفس عن الشهوات، وباشتغالهم بالطاعة، فيترتب على ذلك حب الله تعالى لحديث: **«ما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»**(٢) الحديث، قال سبط ابن الفارض:

فأحياء أهل الحب موت نفوسهم ... وقوت قلوب العاشقين مصارع

فقال: (اللهم) إنما جعل هذا الاسم العظيم في أول الأدعية غالباً، لأنه جامع لجميع معاني الأسماء الكريمة، وأكثر العلماء على أنه هو الاسم الأعظم، وذكر في القرآن في ألفين وثلاثمائة وستين موضعاً (إنك تعلم أني بالجهالة) بفتح الجيم

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٧٩٥) [ج٢ ص٤١٤] وعزاه الأصفهاني في حلية الأولياء إلى سفيان الثوري [ج٧ ص٥٢].

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

السفاهة، وهي خفة في الرأي تقتضيها خفة العقل، وتطلق على المخالفة، وإن كان مرتكبها عالماً بالحرمة فهي فعل الشيء على غير وجه، وتطلق على خلو النفس من العلم، كما هو الأصل في الإنسان، (معروف) أي: موصوف بها، وهذا تذلل واعتراف بالجهالة المؤدية لارتكاب المخالفات مع علمه تعالى بذلك، (وأنت بالعلم المحيط بالكليات والجزئيات (موصوف) أي: متصف، وهي صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ينكشف بها المعلوم انكشافاً تاماً لا يحتمل النقيض بوجه من الوجوه فيعلم تعالى تفاصيل الأشياء وكمية جملتها وعلمه تعالى متعلق بالممكنات في الأزل بوجودها مضافة إلى أوقاتها المعينة لها فالماضي والحال من عوارض التعلقات لا من أوصاف العلم، لتقدمه وحدوث الزمان (و) الحال (أنك قد وسعت) من السعة مصدر وسع الشيء يسعه إذا صار واسعاً والمراد: أنك لم تعجل بعقوبتي على ما وقع مني من سوء فعلي (كل شيء من جهالتي) أي مجهولاتي (بعلمك) المحيط بأفعالي (فسع ذلك) أي: كل شيء وقع مني من المخالفات (برحمتك) الاختصاصية المشار إليها بقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: ١٠٥] أو الوهبية المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عِمرَان: ٨] لأكون مدرجاً في كنفك وحزبك بإمدادك وتأييدك، كما قال الشيخ المصنف في بعض أحزابه. وأدرج أسمائي تحت أسمائك وصفاتي تحت صفاتك درج الكرامة والفضل (كما) أي مثل ما (وسعته بعلمك) المطلق، فالمعنى أن المصنف طلب تغطية نقصه الذاتي بكمال رحمة ربه ليصير به وإليه فيكون حينئذ واصلاً لمولاه بما مَنّ الله إليه من الفضل والكرم، لا بما مَنّ العبد إليه من المجاهدات والعمل، (واغفر لي) ذنوبي بأن تمحوها أثراً وعيناً بكرمك ورحمتك، لا بطاعتي وتوبتي (إنك على كل شيء قدير) تام القدرة، وهذا دليل على سعة رحمته تعالى وفضله، ومن جملة تمام قدرته تعالى تبديل حال العبد من النقص إلى الكمال، كما فعل بكثير من خلقه كابن أدهم والفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك، وأبي بكر الشبلي وذي النون المصري. وغيرهم (ياالله) بمد الله نحو الحركتين، لأنه مد طبيعي ولا يجوز أقل من ذلك، قال البيضاوي: وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة ولا ينعقد به صريح اليمين، وقد جاء لضرورة الشعر:

ألا لا بـارك الله فـي سـهـيـل إذا مـا بـارك الله فـي الـرجـال

قال الشهاب علي البيضاوي قوله وحذف ألفه أي ألف الله التي بعد اللام، لحن أي خطأ في اللغة وفسر في القاموس اللحن بالخطأ في القراءة، فلا وجه لما قيل من أن اللحن مخالفة صواب الإعراب، وما هنا ليس منه، وقال الأسنوي رحمه الله تعالى

إنه لغة حكاها ابن الصلاح عن الزجاج فلا لحن فيه حينئذ، وفي التيسير أنه لغة جائزة في الوقف دون الوصل، والأفصح إثباتها، وإن تملح به المولدون في أشعارهم كثيراً كقوله:

أيها المستبيح قتلي خف الله ... وإنه عينيك للدم المستحلة

اهـ والذي عليه أهل الحق المد نحو الحركتين، ولا يجوز أقل من ذلك كما علمت إلا إذا فني عن بشريته، فيجوز له الذكر بحسب الواردات، والمعنى يا واجب الوجود (يا مالك) هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف شاء، قال البيضاوي والشهاب عليه: الفرق بين المالك والملك؛ إن المالك بالألف هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف شاء مأخوذ من الملك بكسر الميم وأما الملك بحذف الألف فهو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين مأخوذ من الملك بضم الميم فالملك بكسرها مختص بالأعيان من غير العقلاء كالثياب والأنعام والرقيق ملحق بهما، والملك بضمها مختص بالعقلاء، وتملكهم أشرف وأقوى، لأن من يملكهم يملك غيرهم بالطريق الأولى، فالملك بالضم أعم من الملك بالكسر، (يا وهاب) هو المعطي العطاء الدائم من غير مقابلة ولا جزاء، ثم إن المصنف نوع فعل الطلب من مادة فعل المطلوب على سبيل التذليل فقال: (هب لنا) أي: أعطنا بصيغة الأمر والمراد هنا: الدعاء والسؤال (من نعماك) بضم النون وألفه للتأنيث، أي: نعمتك، وهي ما أنعم الله به عليك، قال في «المصباح»: النعمة ما أنعم الله بها عليك، وكذلك النعمى بضم النون، فإن فتح النون مددت وقلت: نعمائك، وقيل النعمة بكسر النون عبارة عن: كل ما ينتفع به، وبفتح النون التنعم، وبضمها المسرة، وقد يكون من النعم ما لا يرضى به المحبوب كما قيل:

إذا كان المحب قليل حظ ... فما حسناته إلا ذنوب

ولما كانت النعمة قد تكون مصحوبة برضا، وقد تكون استدراجاً طلب المصنف أن يهبه من النعم ما يوجد فيه الرضا، فلا تشغله النعمة عن المنعم بها، فقال: (ما علمت لنا فيه رضاك) عنا، وهو من الله الإثابة والقبول والإقبال والإمداد بالنوال على سبيل المن والإفضال مع الأمن سوء العاقبة (واكسنا) ألبسنا كسوة بضم الكاف وكسرها اسم لما يستتر به، ثم جعل اسماً لما يغطي به المرء نفسه عن القبيح مجازاً (تقنا) مجزوم بحذف الياء في جواب الدعاء، كما هو الرواية، أي: تحفظنا، وروي بإثبات الياء صفة للكسوة (بها) أي بسبب هذه الكسوة (من الفتن) جمع فتنة، وهي كل ما

يشغل العبد عن ربه كالكبر والجاه والمعاصي، ونحو ذلك في جميع عطاياك الظاهرة والباطنة، ولما كانت العطايا لا تخلو عن فتنة سيما عطية الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] ومن وقاه الله تلك الفتنة، أمن وتقدس باطنه وظاهره، قال الشيخ المصنف: (وقدسنا) أي طهرنا ونزهنا (عن كل وصف) من أوصاف النفس الأمّارة بالسوء، (يوجب) ارتكابه (نقصاً) للدرجات العالية، وبُعداً عن الحضرة القدسية (مما) أي من الذي (استأثرت) أي انفردت (به في علمك) الأزلي (عمن سواك) من جميع المخلوقات حتى لا ألتفت إلا إليك، ولا أقبل إلا عليك، فإن الوقوف مع الأكوان مانع من السير إلى طريق الله تعالى، وإلى الدخول في حضرته كما أشار له أبو الحسن التستري رحمه الله بقوله:

ولا تلتفت للسير غيراً فكلما ... سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا
وكل مقام لا تقم فيه أنه ... حجاب فجد السير واستنجد العونا
وقل ليس في غير ذاتك مطلب ... فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى
ومهما ترى كل المراتب تنجلي ... عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا

واعلم أن العبد إذا أيقظه الله من الغفلة وأنعم عليه بموجبات الرضا، وحفظه من الفتن لا تزال همته في ترقٍّ وترحال حتى تصل لموقف التنزيه المطلق، فينتسخ ركاب النفس بأوصافها المعلومة عند القوم ومطايا القلوب في دائرة التقديس المطلق، وهو تقديس العبد لمولاه حتى لا يعصيه، ولا يلتفت لغيره من الكائنات، فلا يرى سواه في المظاهر، فيفنى عن فنائه وفناء فنائه، فيعود عليه ذلك بتقديسه عن العبودية للغير والتنزيه عن مخالفة الأمر والنهي، وهذا بساط الأُنس بالله تعالى، ولا يزال به التعظيم والتقديس إلى موقف العجز فيشاهد عجزه وافتقاره إليه تعالى.

مسألة حسنة مناسبة لهذا المقام:

قال الجيلي في الإنسان الكامل: اعلم أن الهمة أعز شيء وضعه الله في الإنسان، لأنه تعالى لما خلق الأنوار أوقفها بين يديه فرأى كلاً منهم يشتغل بنفسه ورأى الهمة مشتغلة بالله تعالى فقال لها: وعزتي وجلالي لأجعلنك أرفع الأنوار، ومن أراد الوصول إليّ، فلا يدخل إلا بدستورك عليّ، أنت معراج المريدين، وبراق العارفين، ثم تجلّى عليها باسمه القريب فأكسبها ذلك التجلي أن تستقرب كلما بعد على القلوب، وأفادها ذلك النظر سرعة حصول المطلوب فلهذا إنَّ الهمة إذا قصدت

شيئاً ثم استقامت على ساقها نالته على حسب وفاقها، ولاستقامتها علامتان: العلامة الأولى حالية، وهي قطع اليقين بحصول المطلوب على التعيين، والعلامة الثانية فعلية، وهي أن تكون حركة صاحبها وسكناته جميعاً مما يصلح لذلك الأمر الذي يقصده بهمته، فإن لم يكن كذلك فلا يسمى صاحب همة بل هو صاحب آمال كاذبة وأماني خائبة، فهو كمن يروم المملكة، ولا يفارق المزبلة، وهذا لا يقع على مطلوبه ولا يظفر بمحبوبه، لأنه كمن يطلب أن يكتب بلا قلم ولا مداد ولا معرفة بوضع الخط، فالمداد بمثابة قصد الهمة للشيء، والقلم بمثابة اليقين بحصوله ومعرفة وضع الخط بمثابة الأعمال الصالحة للأمر المقصود، فمن لم يكن على هذا الوصف لا يعرف ما هي الهمة بخلاف من كانت أفعاله مما يلائم ما يطلبه خصوصاً إذا أخذ فيها بالجد والاجتهاد، فأسرع ما يكون لديه نيل المراد، ولذا حكي لنا عن فقير، أنه سمع شيخه يقول يوماً من الأيام: من قصد شيئاً وجدّ فيه وجده، فقال الفقير: والله لأخطبن ابنة الملك، ولأبالغن فيها بغاية الجد والاجتهاد، فذهب إلى الملك فخطبها منه، وكان الملك لبيباً عاقلاً عارفاً فكره أن يحقره أو يقول لست بكفؤ لها فقال له: مهر بنتي جوهرة تسمى بالبرهمان لا توجد إلا في خزائن كسرى أنو شروان، فقال له: يا سيدي وأين معدن هذا الجوهر؟ فقال: معدنه بحر سيلان، فإن جئتنا بصداقها المطلوب مكناك من هذا النكاح المخطوب، فذهب الفقير إلى البحر، وأخذ يغرف بقصعة، ويفرغه في البر فمكث على ذلك مدة لا يأكل ولا يشرب، وهو معتكف على ذلك ففعل ليلاً ونهاراً، فأوقع صدقه خوف انتزاح البحر في قلوب الحيتان فاشتكت الحيتان إلى الله تعالى فأمر الله الملك الموكل بذلك البحر أن يذهب إلى ذلك الرجل ويسأله عن حاجته فشافهه بنفسه، فلما سأله عن مقصده وأجابه الرجل أمر البحر أن يقذف بموجه إلى البر ما عنده من جنس ذلك الجوهر، فامتلأ الساحل جوهراً فحملها وذهب بها إلى الملك، وتزوج ابنته، فانظر يا أخي ما فعلت الهمة ولا تظن بأن هذا الأمر غريب، أو شيء عجيب، فقد شاهدنا بل جرى لنا في أنفسنا ما هو أعظم من ذلك مما لا يعد ولا يحصى، والله على ما نقول وكيل، ولم أحلف لك إلا خوفاً عليك من موارد الإنكار.

فائدة: اعلم أن عند القوم تجلياً بالجيم المعجمة وتحلياً بالمهملة وتخلياً بالخاء المعجمة فالتجلي ظهور الذات محجبة بالأسماء والصفات، وذلك عند فنائه عن بشريته كما قال سيدي مصطفى البكري قُدِّس سره ونفعنا به:

أبى القلب إلا حب دعد وأسما إذا ما تجلت في براقع اسما

والتحلي القيام بمعاني الأسماء تعبداً كما قال في الحديث: «**تخلّقوا بأخلاق الله تعالى**» والتخلي بالخاء المعجمة سقوط إرادة العبد واختياره اعتماداً وتوكلاً عليه تعالى (يا الله يا عظيم) هو الذي تعاظم في ذاته على الحد والإحاطة والتكيف، وجل في صفاته عن النقائص وتفرد بالقهر والملك، فلا منازع له فيما يقضيه (يا عليّ) هو الذي علا كمالُه حتى فات جميع مدارك العقول (يا كبير) هو الذي له الكمال، والشرف المرتفع ارتفاعاً تعجز جميع العقول عن كنه معناه (نسألك) نطلب منك (الفقر) هو سر من أسرار الله تعالى الإلهية، وهو نفض اليدين من الأكوان، وإمساك اللسان عنها مدحاً أو ذماً والسلامة منها طلباً أو تركاً. وأنشدوا في حروفه شعراً:

فاء الفقير فناؤه في حب مَن ... يهوى وفاء الفهم سر كتابه
والقاف قرب لا يشاب بفرقة ... يسقي بها الكاسات من أكوابه
والياء يشهد من يحب مسامراً ... فيغيب فيه عن تشهي خطابه
والراء رفض الكل عند لقائه ... حتى يصير الكل من خطابه

وهو على أقسام فقر مال، وفقر أعمال، وفقر أحوال، وفقر نوال، وفقر أخلاق (مما) أي من كل شيء (سواك) من حال ومال وعلم وعمل ومقام ووجود وشهود فيكون فقيراً محضاً فلا يشهد إلا الله تعالى (و) نسألك (الغنى) عدم الاحتياج لأحد (بك) لا بشيء ولا في وجود شيء (حتى) للتعليل (لا نشهد) نرى في الأكوان (إلا إياك) فكل من كان دخوله في حضرة الفقر أكثر كان وصوله إلى حضرة الغنى أسرع وحاله أكبر، فإذا كمل الفقر بعدم رؤيته أي الفقر حصل له الغنى به تعالى ولذا قال بعضهم:

فقير عن الأشياء غني بربها ... فقير من الفقر افتقار كماله
فمن تم فقر منه عن فقر فقره ... فذاك الذي قد نال عز وصاله

ولما كانت هذه المقامات والمطالب شامخة، ولا بد فيها من الأدب اللائق ببساط الأنس، لأن حضرته تعالى محمية، قال الشيخ المصنف: (وألطف بنا) أوصل إلينا منافعنا من حيث لا نشعر من فضلك وإحسانك (فيهما) أي في الفقر والغنى (لطفاً) خاصاً (علمته) بعلمك الأزلي (يصلح) مضارع صلح بالضم كشرف وكرم، أو بالفتح كنصر (لمن والاك) أي قرب منك حتى أحببته كما في حديث «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به**»[1] فكنت عوضاً عن هذا العبد وأصلاً لموالاة المحبة، ومن

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

أحب شيئاً أكثر من ذكره، فإذا أراد الله أن يوالي عبده فتح عليه باب ذكره ثم رفعه إلى مجالس أنسه وأجلسه على كرسي التوحيد ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية، وكشف عنه الجلال والعظمة ثم سلبه منه وأخذه عنه فبقي مع الله بلا أين فهذا مقام الطمس فحينئذ صار سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وفؤاده الذي يعقل به، ورجله التي يمشي بها، ويرى من الألطاف ما تكل عنه الأوصاف. ومعنى قوله في الحديث: «كنت سمعه» إلى آخر النسق، أن المراد به كما قاله سيدي محيي الدين بن العربي الشيخ الأكبر والطوف الأعظم: انكشاف الأمر لمن تقرب إليه بالنوافل، لأنه لم يكن الحق تعالى سمعه قبل التقريب ثم كان الآن، تعالى الله عن ذلك اهـ.

(واكسنا جلابيب) جمع جلباب ما يغطي به من نحو ثوب (العصمة) من إضافة المشبه به إلى المشبه، أي العصمة التي كالجلابيب في الستر عن الوقوع في المخالفات. والعصمة قوة في النفس، تمنع صاحبها من ارتكاب الذنب، وهي خاصة بالأنبياء، وأما غيرهم فيوصفون بالحفظ لا بالعصمة لجواز وقوع الذنب منهم بخلاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالشيخ المصنف: طلب أن يكون محفوظاً من المخالفات، قال أبو مدين التلمساني: المحفوظون على طبقات: محفوظ عن الكفر بالهداية، ومحفوظ عن الكبائر والصغائر بالعناية، ومحفوظ عن الخطرات والغفلات بالرعاية، قال ابن الفارض قدس سره:

ولو خطرت لي في سواك إرادة *** على خاطري سهواً قضيت بردتي

وكان سيدي علي وفا رحمه الله تعالى يقول: والله ما هممت بفاحشة قط، ولا فعلتها لحفظ الله تعالى ورعايته لي والله أعلم.

(في الأنفاس) جمع نفس بفتحتين نسيم الهواء الداخل والخارج من الحلق والأنف (واللحظات) بالتحريك جمع لحظة، وهي النظر بمؤخر العين يميناً وشمالاً، وعند الصوفية نور البصيرة الذي يميز به الملاحظ بالنظر الصحيح ما هو أولى بالتوجه إليه في الوقت، وعليه فيكون سؤال العصمة فيه من التلبس بالنزغات الشيطانية والنفسانية (واجعلنا) صيّرنا (عبيدا) عابدين متذللين (لك) خاضعين لعظمتك (في جميع الحالات) التنقلات الوجودية كالغنى والفقر، والعز والذل والجلال والجمال إلى غير ذلك مما يترتب عليه الأحكام فتختلف الحالة باختلاف الحكم فلكل حال عمل يخصه ويختص به، فيكون عوضاً عن مقابله، فما فات من الشكر مثلاً على العافية استدرك بالصبر على البلية وما نقص من الأعمال البدنية يحصل بالأعمال القلبية، ولهذا لما خُيِّر ﷺ بين أن يكون نبياً عبداً، وأن يكون نبياً ملكاً، قال: لا يا رب أجوع يوماً

وأشبع يوماً فإذا جعت تضرعت إليك وإذا شبعت حمدتك، فاختار العبودية، لأن من تحقق بالعبودية ملك الأشياء كلها، فلذا قال بعضهم على لسان الحضرة المحمدية:

لا تدعني إلا بيا عبدها   فإنها أشرف أسمائي

وقال ابن الفارض قدس سره:

وادعني غيرَ دَعِي عَبْدَهَا   نِعْمَ مَا أسمُو به هَذا السُّمَي

قال العارف النابلسي رحمه الله تعالى: يعني لا تذكروني بلقب شرف الدين، ونحوه، فإنها بدعة في دين المحبة وسموني عبدها، ثم قال: وقد رأيت في طبقات السبكي أن قارئاً قرأ يوماً بحضرة الشيخ أحمد أبي الفتوح الغزالي أخي الشيخ الغزالي حجة الإسلام قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] الآية، فصاح الشيخ أحمد المذكور، وقال: شرّفهم بالإضافة إليه تعالى، حيث قال: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] وأنشد فقال:

وهانَ عليّ اللومُ في جنب حبها   وقولُ الأعادي إنّه لخليع

أصم إذا نوديتُ باسمي وإنني   إذا قيلَ لي يا عبدَها لسميع

وقال الجيلي رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته: الفرق بين العبادة والعبودية والعبودة: هو أن العبادة صدور أعمال من العبد لله تعالى لطلب الجزاء، والعبودية صدور أعمال البر من العبد لله تعالى لا عن طلب الجزاء عملاً خالصاً له تعالى، والعبودة: هي عبارة عن العمل بالله تعالى، ولذلك كانت الهيمنة لمقام العبودة على جميع المقامات اهـ.

وقال ابن عطاء الله السكندري في حكمه: كن عبد الله تعالى في كل شيء عطاءً ومنعاً وعزاً وذلاً، وغنى وفقراً، وقبضاً وبسطاً اهـ، والمعنى: اجعلنا كاملين في العبودية الخالصة التي يختار فيها الرق على الحرية، كما قال ابن الفارض رحمه الله تعالى:

عبد رق ما رق يوماً لعتق   لو تخليت عنه ما خلاك

يعني: ما مال خاطره إلى أن يعتق، وقوله: لو تخليت عنه وتركته لما تركك ولا أعرض عنك لإعراضك عنه، لكونه لم يكن له سواك (وعلمنا من لدنك) من فيض فضلك وإحسانك (علماً) إلهياً كما علمته لعبدك الخضر، وهو نور يقذفه الله تعالى في قلوب خاصته، قال تعالى في حق الخضر عليه السلام: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] أو علمنا علم الوراثة الدال عليه حديث: «**من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم**»، أو ما يشمل العلوم الكسبية واللدنية، ولما كان المتصف بهذه

العلوم تارة يعمل بها، وتارة لا يعمل بها طلب المصنف العلم النافع بقوله: (نصير) في محل نصب صفة للعلم، ولو كان جواباً لجزمه أي نكون (به) بسببه (كاملين في المحيا والممات) أي نكون به من أهل الكمال عندك في الدارين، ولا يكون كاملاً في الآخرة إلا إذا كان عاملاً بعلمه في الدنيا، وانظر إلى علم إبليس فلم ينتفع به، وهو حجة عليه، وكمال العلم بعد الموت باللقاء والمشاهدة (اللهم أنت الحميد) أي: المحمود المستحق للثناء، أو الحامد لنفسه وللمؤمنين فعيل بمعنى مفعول، أو بمعنى فاعل (الرب المجيد) أي: ذو الشرف الكامل والملك الواسع الذي لا غاية له (الفعال) أي: كثير الفعل مع القوة والتمكن (لما تريد) تشاؤه من الممكنات (تعلم فرحنا) أي: أسبابه، وهو ارتياح الباطن، وابتهاجه، وهو قسمان: مذموم، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القَصَص: ٧٦] لأنه من الغفلة، ومحمود: وهو الفرح بنعم الله تعالى، وما يرد منه من اللطف والإحسان، قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٠] (إيماناً) أي بأي شيء وسبب حصل به الفرح، (ولماذا) أي لأي شيء كان المفروح به، (وعلى ماذا) أي وعلى أي كيفية وحالة وجد، ويختلف باختلاف أهله، ففرح العامة ببلوغ شهواتهم، والأبرار بحصول النعم الدينية كالتوفيق، والعارفين بالأمن عن الانقطاع عن الله تعالى فيقرعون أبواب المشاهدة، وتضحك الأرواح بالسرور التام بمشاهدة جمال الذات العلية.

(وتعلم حزننا كذلك) أي: بأي شيء ولأي شيء وعلى أي شيء أي سببه وعلته وكيفيته. والحزن انقباض القلب لفوات مرغوب أو خوف حصول مكروه، وهو محمود، لأنه من أوصاف السالكين، وفي الحديث: «إن الله يحب كل قلب حزين»(١) وفي التوراة «إذا أحبّ الله عبداً جعل له في قلبه نائحة» وقال: إن من الرجال من يضحك ولا يبكي، ومنهم من يبكي ولا يضحك، ومنهم من يضحك ويبكي، وهذا هو الكامل الذي يعطي المواطن حقها، فإن علم أن مراد الله منه البكاء بكى، وإن علم أن مراده الضحك ضحك، ولهذا كان ﷺ مع كونه مواصل الأحزان يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذه، والغالب على أهل الله الانبساط مع ملازمة الأدب على البساط، ويختلف الحزن باعتبار أهله كما في الفرح، (وقد) للتحقيق (أوجبت) أثبت (كون ما) الذي (أردته) خصصته إرادتك على حسب ما سبق به علمك القديم (فينا) من صحة ومرض، وعز وذل، وجلال وجمال، (ومنا) أي: من صدور الأعمال الحسنة والقبيحة والصنائع المختلفة، (ولا نسألك) نطلب منك (دفع ما تريد) لأن

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، حديث رقم (٧٨٨٤) [ج٤ ص٣٥١] ورواه غيره.

معاندة الوقت الذي لا يقبل غير ما أظهره الله تعالى بحكم التصريف غاية الجهل لعدم مراعاته حكم الله تعالى، وحكمته في عباده، (ولكن نسألك التأييد) الإعانة، وتقوية البصيرة بالهداية، والرشد ومساعدة الأسباب الظاهرة، وقوة اليقين عند نزول المرادات القهرية (بروح) بضم الراء نور الوصلة (مِنْ عندك) نفهم به ما أودع في الكتاب والسنة من نور العلم والعمل، ومن أيده الله بذلك استقام على الطريق المستقيم ظاهراً وباطناً، قال الكواشي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجَادلة: ٢٢] حياة الروح بالتأييد وحياة النفس بالروح وحياة القلب بالذكر، وحياة الذكر بالمذكور، ثم قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجَادلة: ٢٢]أي قواهم بنصره الحسن وسمى النصر روحاً لأن أمرهم يحيى به أو الروح الإيمان أو القرآن، أو الرحمة، أو جبريل، أيديهم الله به (فيما تريد) تشائه فينا ومنا، فلا نجزع ولا نخاف ولا نفعل ما يوجب السخط لمصاحبة التأييد الإلهي لنا، لأن من حصل له التأييد يبعث الله له خاطراً يرد على سره جبراً، ولا يمكنه الانفكاك عنه، وفيه توجد الفراسات والحياء من الله تعالى والانكسار له، وهذا هو اللطف والتوفيق فلذا قال بعضهم:

إذا لم يعنك الله فيما تريده ... فليس لمخلوق إليه سبيل
وإن هو لم يرشدك في كل مسلك ... ضللت ولو أن السماك دليل

(كما) أي مثل ما (أيدت) قويت بالعصمة والتوفيق واللطف (أنبياءك ورسلك) جمع نبي وجمع رسول، وهو كل إنسان أوحي إليه بشرع يعمل به، وأمر بتبليغه، وإن لم يكن له كتاب كيوشع على المعتمد بخلاف النبي، فإنه لم يؤمر بالتبليغ. (وخاصة) تعميم بعد تخصيص، أي الذي استخلصتهم لنفسك، واخترتهم لقربك من (الصديقين) جمع صديق، وهو الذي صار له الصدق والتصديق ملكة في القول والفعل والحال، ولذا كان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أعلى درجة بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (من خلقك) أي من بعض مخلوقاتك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمرَان: ٢٦] أي صانع مقتدر على كل شيء من الجائزات. ﴿اللَّهُمَّ فَاطِرَ﴾ [الزُّمَر: ٤٦] بالنصب على النداء أي: خالق ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزُّمَر: ٤٦] بباهر قدرته وعظيم حكمته ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ﴾ [الزُّمَر: ٤٦] ما غاب عن العيون وعند القوم الغيب ما كان في السموات السبع وغيب الغيب ما كان من فوقهن إلى العرش وما وراءه غيب الغيب، ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزُّمَر: ٤٦] المشهود بالأبصار، أو المعقول بالأفكار بالنسبة لخاصته الأخيار ﴿أَنتَ تَحْكُمُ﴾ [الزُّمَر: ٤٦] تفصل ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ [الزُّمَر: ٤٦] أو تقضي عليهم بالنعمة. أو النقمة (فهنيئاً) من هنؤ بالضم والهمزة هناءة ممدودة، وهو ما لا مشقة

فيه، ولا تعقبه وخامة، أي: فالسرور (لمن) اللام للتبيين متعلق بمحذوف أي للعارف الذي (عرفك) بأسمائك وصفاتك وأفعالك، وبحر المعرفة لا ساحل له، وهي نور يقذفه الله في قلوب خاصته يشهدون به عظمة الله تعالى، وتصرفه في عباده بالحكمة المختفية عن البشر (فرضي) انقاد وانسرّ قلبه (بقضائك) القضاء الإرادة الأزلية، والعناية الإلهية والرضى بالقضاء واجب من حيث بروزه من الله تعالى ولا يرضى به من حيث اكتسابه فالمقضي عليه بنحو كفر لا يرضى به من حيث اكتسابه.

تنبيه: قال في «اليواقيت» في خاتمة المبحث السادس عشر: اعلم أن القضاء سابق على القدر حتى في اللفظ، فيقولون القضاء والقدر، فالقضاء هو: إرادته تعالى الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال، وأما القدر فهو تعيين الوقت الواقع فيه المقدورات على العباد من الحق تعالى، فالقضاء حاكم القدرة فهو يحكم في القدر، ولا عكس. فإن قيل فهل يجب الرضى بالمقضي كالقضاء، فالجواب الذي عليه أهل السنة والجماعة: أنه يجب الرضى بالقضاء خيره وشره، لا بالمقضي. وصورة الإيمان بالشر، أن يؤمن العبد بأنه شر كما يؤمن بالخير إنه خير، لكن لا يضاف الشر إلى الله تعالى أدباً كما أشار إليه حديث: «والشر ليس إليك»[(1)] فعلم من

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (٧٧١) [ج١ ص٥٣٤]، وابن خزيمة في صحيحه، باب ذكر الدعاء بين تكبيرة الافتتاح..، حديث رقم (٤٦٢) [ج١ ص٢٣٥]، والحاكم في المستدرك، وفي تفسير سورة بني إسرائيل..، حديث رقم (٣٣٨٤) [ج٢ ص٣٩٥] ورواه غيرهم بألفاظ متقاربة ونص رواية مسلم هو: عن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي وأنا عبدك ظلمتي نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك وإذا ركع قال اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وإذا رفع قال اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد وإذا سجد قال اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت.

ذلك أنه الفعال لما يريد فلا مريد في الحقيقة سواه اهـ، فالتوحيد الخالص: أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير إلا منه تعالى، لكن لا يضاف الشر إليه تعالى أدباً كما علمت، ثم قال الشعراني المذكور في المبحث التاسع والعشرين: أن بعض اليهود بالشام نظم أبياتاً وأرسلها للشيخ صدر الدين القونوي، وطلب الجواب عنها، فأجابه الشيخ رحمه الله تعالى وهي:

أيا علماء الدين ذمي دينكم ... تحير دلوه بأوضح حجة
إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ... ولم يرضه مني فما وجه حيلتي
دعاني وسد الباب دوني فهل إلى ... دخولي سبيل بينوا لي قضيتي
قضى بضلالي ثم قال ارضَ بالقضا ... فهل أنا راض بالذي فيه شقوتي
فإن كنت بالمقضي يا قوم راضياً ... فربي لا يرضى بشؤم بليتي
وهل لي رضا ما ليس يرضاه سيدي ... وقد حرت دلوني على كشف حيرتي
إذا شاء ربي الكفر مني مشيئة ... فهل أنا عاص باتباع المشيئة
وهل لي اختيار أن أخالف حكمه ... فبالله فاشفوا بالبراهين علتي

فأجابه الشيخ رحمه الله تعالى بقوله:

صدقت قضى الرب الحكيم بكلِ ما ... يكون وما قد كان وفق المشيئة
وهذا إذا حققته متأملاً ... فليس بسد الباب من بعد دعوة
لأن من المعلوم أن قضاءه ... بأمر على تعليقه بشريطة
يجوز ولا يأباه عقل كما ترى ... حدوث أمر بعد أخرى تأدت
كما الريّ بعد الشرب والشبع الذي ... يكون عقيب الأكل في كل مرة
فليس ببدع أن يكون معلقاً ... قضاء إله الحق رب البرية
بكفرك مهما كنت بالكفر راضياً ... تعاطى أسباب الهدى مع مكنتي
فمن جملة الأسباب مما رفضته ... مع الأمن والإيمان لفظ الشهادة
فأنت كمن لا يأكل الدهر قائلاً ... أموت بجوعي إذ قضى لي بجوعة

فليتأمل الجواب ومن فتح الله عليه بجواب أوضح منه فليحققه بهذا وأجاب العارف النابلسي رحمه الله تعالى بقوله:

دللناك يا من أنت ذمي ديننا ... فلا تتحير واستمع لمقالتي

نعم قضى ربي بكفرك عندنا ولم يرضه لكن قضى بالإرادة
كقاض بقصد قد قضى بجناية عليك ولا يرضى بتلك الجناية
فإن قبيح الفعل لم يرض عاقل به والقضا حق شريف المزية
وما فعل القاضي قبيحاً وإنما فعلت قبيحاً أنت بين البرية
فالزمك الرحمٰن أن ترض بالقضا لا ترض بالمقضي فافهم طريقتي
فإن كان خيراً ما قضى كان راضياً وإن كان شراً ليس يرضى بشره
قضى بضلال فيك وهو يضل من يشاء ويهدي من يشاء لحكمه
فكن بالقضاء من ربك الحق راضيا ولا ترضَ بالمقضي أي بالشقاوة
وشاء ربي أن تشاء لما يشا فإن شئت عصياناً عصيت بجهلة
وما أنت مجبور وربك خالق لك الاختيار المحض من غير مرية
وحيث اختار فيك خلقة ربنا كباقي صفات مثل حول وقوة
فإنك مختار ولا جبر هاهنا وكلفك المولى بأنواع كلفة
وما الشرط في المخلوق يقدر أنه يخالف حكم الخالق المثبت
فكن راضياً بالله رباً وبالنبي نبياً وبالدين الحنيفي ملة
تكن مسلماً مثلي ومثل معاشري وتلحق بنا أهل الكمال الأئمة
وإلاّ فدم في الكفر والشرك والردى تؤدي الخراج الحتم من بعد جزية
حقيراً ذليلاً إن أبيت تخطفت حشاك حداد السمر والمشرفية
وهذا جوابي أحمد الله بعده وأهدي إلى المختار أسنى تحية
وقد قاله عبد الغني بربه تبارك لا بالنفس تلك الفقيرة
ورضوان ربي جل عن آل أحمد وأصحابه جميعاً وبالخير تمت

(والويل) أي: الهلاك والخسران (لمن) يعرفك سواء كان جحداً، أو جهلاً لعدم إيمانه، والمعرفة على قسمين: عامة وخاصة، فالعامة إثبات وجود الله تعالى وتقديسه على ما يليق به، ووصفه بما وصف به نفسه فهو تعالى معروف، وإن لم يكيف، والخاصة: شهود أسمائه وصفاته لأنه لا يعرف إلا بمشاهدة أسمائه وصفاته، ولذا قال الغزالي رحمه الله تعالى: الله أكبر من أن ينال بالحواس، أو يدرك كُنه ذاته بالعقل والقياس فلا يعرف الله إلا الله، (بل الويل) إضراب انتقالي على وجه الترقي إلى ذكر نوع أبلغ، (ثم الويل) كرره تهويلاً وإشعاراً باستغراق الهلاك والخسران، (لمن أقر) اعترف، وأذعن بقلبه ولسانه (بوحدانيتك ولم يرضَ بأحكامك) لأن مقتضى الإقرار

بالوحدانية التسليم، والانقياد والرضا بها لكون حكم الواحد لا مهرب ولا مفر منه وكل من علم ولم يعمل تضاعف له الويل لعظيم جرأته (اللهم إنَّ القوم) (أل) للعهد والقوم الجماعة من الرجال، كما قال زهير(١):

وما أدري ولست أخال أدري … أقوم آل حصن أم نساء

والمعهود السادة الصوفية (قد حكمت) قضيت (عليهم بالذل) بضم الذال المعجمة، والهوان من ذل يذل ذلاً من باب ضرب هان (حتى) أي لأجل أن (عزوا) بعد الذل، ولا يعارض قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥] لأن عزة الرسل والمؤمنين كلها بالله تعالى فهي له تعالى، فلا معارضة، قال سبط ابن الفارض قدس سره:

تواضعت ذلاً وانخفاضاً لعزها … فشرف قدري في هواها التواضع

فإن صرت مخفوض الجناب فحبها … لقدر مقامي في المحبّة رافع

(وحكمت عليهم بالفقد) هو عدم الشيء بعد وجوده غيبة وفناء (حتى وجدوا) أي: وجدوا ما يصادف القلب من الأحوال والإلهامات المغنية له عن المشاهدة، (فكل عز يمنع دونك) من الوصول إليك، ويكون حاجباً، لأن من استحلى حالاً أو ساكن مقاماً فمن سنة الله تعالى مع أوليائه تشويش ذلك عليهم لغيرته تعالى على قلوبهم من دخول الغير فيه، إذ القلب محل توارد التجليات والأسرار الإلهية، فإذا وقف قلبه مع الغير حجب عن التجليات المذكورة، قال ابن الفارض قدس سره:

بعضي يغار عليك من بعضي … ويحسد باطني إذا أنت فيه ظاهري

والبعض الذي يغار هو الجسم وغيرته أنه لم يكن عند الحبيب مع القلب، دلّ على ذلك قوله: ويحسد ظاهري باطني، لأجل أنك متجل فيه (فنسألك بدله ذلاً تصحبه) تلازمه (لطائف) رقائق (رحمتك) قال في الحكم لابن عطاء الله السكندري ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع إليك بالمواهب مثل الذلة والافتقار، قال بعضهم:

---

(١) زهير بن أبي سلمى حكيم الشعراء الجاهليين (؟ - ١٣ق.هـ).

قال ابن الأعرابي: كان لزهير من الشعر ما لم يكن لغيره، قيل إنه كان ينظم القصيدة في شهر وينقحها ويهذبها في سنة فكانت قصائده تسمى الحوليات. أشهر شعره معلقته التي مطلعها:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

اللهم بحق سيدنا محمد ﷺ وآل بيته لا تقطعنا عنك بقاطع وأحبابي والمسلمين بجاه سيد المرسلين (على من غيرك ملكه) أي على من ملكه غيرك كالدنيا والشيطان والهوى، لأن العبد إذا ركن لغير سيده أبغضه سيده ولكل من السعادة والشقاوة أمارات. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾ [الليل: ٥ ـ ٧] الآية، وفي الحديث: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[1] ولما كانت السعادة ملازمة للمحبة، والمحبة هي الإحسان والإحسان لا يحصل إلا بالهبات والامتنان ناسب أن يقول: (فهب لنا) أي: أعطنا من فيض فضلك (من مواهب) مما أنعمت به على (السعداء) جمع سعيد، وهو الذي صار عقله متحصناً بالمعرفة الإلهية وروحه مأخوذة في الحضرة القدسية، وسره مغموراً بالمشاهدة العلية ولسانه ملتذاً بالمناجاة الذكرية (واعصمنا) أي احفظنا (من موارد) جمع مورد، وهو محل الورود، أي ورود (الأشقياء) من أهل الضلال والخذلان، ولما طلب الشيخ المصنف، التحقق بكمال العبودية بقوله فيما تقدم، واجعلنا عبيداً لك إلخ، أتى بالجمل التي بعده مشيرة إلى تحققه بذلك، فإن من أوصاف العبد العجز والضعف والذل والفقر، فلذا قال: (اللهم إنا قد عجزنا) ضعفنا عن (دفع) منع (الضر) بالضم اسم مصدر ضد النفع، وبالفتح مصدر قال في «المختار»: الضر بضم الضاد: اسم بمعنى الفقر والفاقة والشدة في البدن، وبفتحها مصدر ضره يضره، إذا فعل به مكروهاً يتعدى بنفسه ثلاثياً، وبالباء رباعياً اهـ.

قال شارح تائية ابن الفارض الصغرى وقيل هما لغتان فإذا جمعت بين الضر، والنفع فتحت الضاد، وإذا أفردت كما هنا ضممت، والضر النقصان في الشيء، (عن أنفسنا من حيث نعلم) أي من جهة نعلم دفعه منها (بما) أي بالشيء الذي (نعلم فكيف لا نعجز عن) دفع (ذلك) الضر (من حيث) أي من جهة (لا نعلم) دفعه، وقد قلت في كلامك القديم: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧] والحاصل أن الضر على قسمين: معلوم لنا ذاتاً وسبباً، ومجهول لنا ذاتاً وسبباً، وإنا قد عجزنا عن دفع المعلوم لنا ذاتاً وسبباً، فبالأولى نكون عاجزين عن دفع المجهول، فلا يسعنا إلا الاعتذار، والتشكي للكريم المتعال، والشكوى للخالق تذلل

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب فسنيسره للعسرى، حديث رقم (٤٦٦٦) [ج٤ ص١٨٩١]، ومسلم في صحيحه، باب كيفية خلق الآدمي. .، حديث رقم (٢٦٤٧) [ج٤ ص٢٠٤٠] ورواه غيرهما.

وتملق والله يحب العبد المتملق، والكامل يوفي المواطن حقها، ولهذا أظهر ﷺ التضرع يوم بدر، وورد أن الله يقول: **«عبدي لو لم أقبل عذرك لما وفقتك للاعتذار»** وقد (أمرتنا) كلفتنا بالطاعة، (ونهيتنا) عن المعصية (والمدح والذم ألزمتنا) جعلتهما ملازمين لنا على التناوب، فمن أحسن وأصلح لزمه المدح، ومن أفسد لزمه الذم، (فأخو الصلاح) ملازمه (من أصلحته) بالإعانة والإرشاد، حتى صار صالحاً، (وأخو الفساد) ملازمه (من أضللته) أي عزلته عن طريق الصواب بعدم الإعانة، والإرشاد (والسعيد حقاً) أي الذي ثبتت سعادته (من أغنيته عن السؤال) أي الطلب (منك) بل سارعت في هواه، لسبق سعادته، وقد جفّ القلم بما أنت لاق، قال الشيخ الخراز: من ظن أنه يبذل الجهد في الأمر والنهي يصل إلى مطلوبه، فهو متعنت ومتعب لنفسه ولا يصل إليه بذلك، ومن ظن أنه بغير بذل الجهد يصل إلى مقصوده، فهو متمن ومغتر فعلى العبد أن يجتهد ويتكل على فضل الله تعالى، فالعبد لا يترك العمل ولا يتكل عليه اهـ.

قال ذو النون المصري: ثلاثة من علامات التوفيق: الوقوع في عمل البر بلا استعداد له، والسلامة من الذنب مع الميل إليه وقلة الهرب منه، وكثرة الدعاء والابتهال. وثلاث من علامات الخذلان: الوقوع في الذنب مع الهرب منه والامتناع من الخير مع الاستعداد له، وانغلاق باب الدعاء والتضرع، ففي الحديث **«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله تعالى»**(١) وفي ذلك إثبات الكسب والتبري من الحول والقوة.

وحاصل هذا الطلب أن مدار السعادة على الجمع على الله تعالى والغيبة عمن سواه فيفنى عن وجوده ويبقى بربه فليس له عند الحق تعالى اختيار، ولا مع غيره قرار وعندما دخل في هذه الحضرة وظفر بقرّة عينه لا يتصور منه سؤال ولا فوات مأمول فهذا معنى قول الشيخ المصنف: السعيد حقاً من أغنيته عن السؤال منك.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المحرم اجتنابه..، حديث رقم (٢٦٦٤) [ج٤ ص٢٠٥٢] ونصه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان»** ورواه ابن حبان برقم ٥٧٢١ وابن ماجة برقم ٧٩ ورواه غيرهم.

فائدة: قال الأستاذ الشعراني في «اليواقيت» في المبحث الرابع والعشرين في مسألة الكسب، ذكر الشيخ الأكبر في «الفتوحات»: أن صورة خلق الأفعال صورة لام ألف في حروف الهجاء، فإن الرائي لا يدري أي الفخذين هو اللام حتى يكون الآخر هو الألف، ويسمى هذا الحرف الذي هو لام ألف حرف الالتباس في الأفعال فلم يتخلص الفعل الظاهر على يد المخلوق لمن هو؟ لكن إن قلت: هو لله صدقت. وإن قلت: للمخلوق مع الله صدقت. ولولا ذلك ما صحّ خطاب الله تعالى للعبد بالتكليف، ولا إضافة العمل إليه، في قوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢] ثم قال الشيخ الأكبر المذكور: وإنما أضاف الأعمال إلينا، لأننا محل الثواب والعقاب، وهي لله حقيقة لكن لما شاهدنا الأعمال برزت على أيدينا وادعيناها لنا، أضافها تعالى إلينا بحسب دعوانا ابتلاءً واختباراً منه تعالى لأجل الدعوى، ثم إذا كشف الله تعالى لنا عن بصيرتنا، رأينا الأفعال كلها لله تعالى، ولم نرَ إلا حسناً، فهو تعالى في الحقيقة فاعل فينا ما نحن العاملون، ثم مع هذا المشهد العظيم لا بد من القيام بالأدب فما كان من حسن شرعاً أضفناه إليه تعالى خلقاً، وإلينا محلاً، وما كان من سيىء أضفناه إلينا بإضافة الله تعالى فنكون حاكين قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩] الآية، وكان الشيخ الشاذلي قدس سره يقول في هذه الآية: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩] إيجاداً وإسناداً، ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] يعني إسناداً لا إيجاداً، وحينئذ يرينا الله عز وجل وجه الحكمة في ذلك المسمى، أي أن الكل جميل إذا أضفناه إليه تعالى، أي: فنراه حسناً من حيث الحكمة، فيبدل الله سيئاتنا حسنات، بعد إلهامنا التوبة تبديل حكم لا تبديل عين اهـ.

ثم قال الشيخ الأكبر المذكور: لولا النسبة بين الرب والمربوب، أي: رابطة الاستمداد بالحق، ما دلّ العبد على الرب، ولا قبل التخلق بأخلاق الله تعالى، وبتلك النسبة كان الحق تعالى مكلفاً عباده بالأمر والنهي، وكان المخلوق مكلفاً مأموراً منهياً، ثم قال: فحقق ما نبهناك عليه، فإني أظن أنه ما طرأ سمعك قط، وإن لم تكن كذلك فاتك أدب كثير، ثم قال: والحاصل أن العبد ما صحت له نسبة الفعل إلا من كون الحق تعالى جعله خليفة في الأرض، فلو جرد عنه الفعل بالكلية لما صح أن يكون خليفة، ولما قبل التخلق بالأسماء الإلهية، وقالت المعتزلة: العبد يخلق أفعال نفسه بقوة خلقها الله فيه، وذلك مما أخطأوا فيه، فإن الحس يكذبهم فضلاً عن الأدلة الشرعية، ولو أن العبد يختار أفعال نفسه كما زعموا لم يفته مطلوب من أغراضه، ولم يفعل ما سواه قط. اهـ. ملخصاً باختصار.

(والشقي) ضد السعيد (حقاً من أحرمته) منعته (مع كثرة السؤال) أي: الطلب والإلحاح لك لسبق شقاوته في علم الله تعالى، لأن الحكم الأزلي لا يبدل لسؤال السائلين، ولا لإلحاح الملحين، والشقي لما كان محتجباً بوجوده عن شهوده تعالى صار لا ينفك عن أمل ولا خوف عطب فيستحثه الطمع للسؤال جلباً أو دفعاً، وهو في ذلك في شقاء سواء أعطي أو منع لفقده قرة عينه وراحة قلبه، فإن قلت كيف وفق هذا الشقي للطلب والإلحاح على الله تعالى مع حرمانه مع أن الله تعالى وعد السائل بالإجابة في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، وحديث: «اقضوا لهذا» أي: العاصي حاجته، «فإني أحب أن لا أسمع صوته»[١]، «ولا تقضوا لهذا»، أي: الطائع، «فإني أحب أن أسمع صوته»[٢] قلت: إنه لم يوجد من لاسائل الشقي إذعان ولا إقبال ولا توجه حال الطلب لحجب الله له بوجود نفسه عن شهود خالقه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعَام: ١٢٥] بل هو في ظلمات الغفلات، فلذلك حرم قياساً على ما إذا نطق بالشهادتين من غير إذعان ولا قبول، فلا يكون مؤمناً بهذه الشهادة، ألا ترى أن المنافقين كانوا يذكرون الله تعالى ويدعون الله تعالى ويؤمنون على دعاء رسول الله ﷺ، وغير ذلك مع حرمان الله لهم، قال في «اليواقيت» في المبحث الحادي والخمسين نقلاً عن أئمة الأصول: إن الإنسان لا يخرج عن عهدة التكليف بالإسلام إلا مع الإيمان وحقيقته التصديق، مع الإذعان والقبول له فلا يعتبر التصديق المذكور في خروج العبد به عن عهدة التكليف بالإيمان إلا مع النطق بالشهادتين، وذلك لأن الشارع جعل النطق بالشهادتين علامة لنا على التصديق الخفي عنا حتى يكون المنافق مؤمناً فيما بيننا كافراً عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من حديث من اسمه موسى، حديث رقم (٨٤٤٢) [ج٨ ص٢١٦] ونصه: عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد يدعو الله وهو يحبه فيقول الله عزّ وجل: يا جبريل اقض لعبدي هذا حاجته وأخرها فإني أحب ألا أزال أسمع صوته وإن العبد ليدعو الله وهو يبغضه فيقول الله عزّ وجل يا جبريل اقض لعبدي هذا حاجته وعجلها فإني أكره أن أسمع صوته».

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث عفير بن معدان عن سليم بن عامر، حديث رقم (٧٦٩٧) [ج٨ ص١٦٦] ونصه: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجل يقول للملائكة انطلقوا إلى عبدي فصبُّوا عليه البلاء صبًا فيأتونه فيصبُّون عليه البلاء فيحمد الله فيرجعون فيقولون: يا ربنا صبينا عليه البلاء صبًا كما أمرتنا فيقول ارجعوا فإني أحب أن أسمع صوته».

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل إذا رضي المحبوب صحّ لك الوصل
تذلل له تحظى بعز جماله تقدم وإلا فالغرام له أهل

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٣]، وقال ابن الفارض قدس سره:

وكفاني عزا بحبك ذلي وخضوعي ولست من أكفاكا

يعني غاية ما أرومه من العز حاصل في ذلي بحبك وخضوعي لجلالك، فما أنا من الأقران الذين يتنسبون إليك بالمساواة بل عزي بذلي لديك، والمراد بذلك له اتباع المأمورات واجتناب المخالفات، كما قال بعض العارفين:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع[1]

والذل الملازم له لطائف الرحمة هو المكتسب من خشية الله تعالى وخوف عقابه، وقهر كبريائه الحاصل من تحقق معرفة العزة الإلهية إذ النفوس مجبولة على تحمل المشاق من الأعزّة والأكابر والانقياد لأحكامهم، ولذا قال ابن الفارض في «التائية الكبرى»:

ذللتُ بها في الحي حتى وجدتُني وأدنى منال عندهم فوق همّتي
واحملني وهناً خضوعي لهم فلم يَروني هواناً بي محلاً لخدمتي
ومن درجات العزّ أمسيت مُخلِداً إلى دركات الذُلّ من بعد نَخْوَتي
ولو عزّ فيها الذُلّ ما لذّ لي الهوى ولم يكُ لولا الحُبُّ في الذلِ عزتي

(وكل وجد يحجب عنك) هو ما يجده الشخص من المال والحزن والحب والجاه، ونحو ذلك مما يحجب عن الله تعالى كادعاء العلم والمعرفة والمقامات، (فنسألك عوضه فقداً) بإعدام الموجود الموجب للحجاب بالغيبة عنه بالكلية (تصحبه أنوار محبتك) الإلهية، قال الجيلي: المحبة نار تنقدح عن ميل القلب إلى محبوبه فتحرق ما سواه فلا يبقى لغير المحبوب في القلب وجود. فيسري ذلك إلى الروح، فإذا أشرق نور المحبة في الذات، تلاشى جسمها، فلم يبقَ إلا المحبوب، وهذا هو مقام السلب اهـ.

---

(١) هذه الأبيات هي لأبي العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي، من شعراء العصر العباسي المولودين وهو من طبقة بشار وأبي نواس وأمثالهما، توفي في بغداد سنة ٢١١هـ.

(فإنه قد ظهرت) أي: بدت واتضحت (السعادة) أي علامتها، وهي معاونة الأمور الإلهية على نيل الخير (على من أحببته) أي: حفظته وقربته ولذا قال في الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»(١) الحديث كما مر، والحب منه تعالى: أن يأخذك من كل شيء فلا تحب إلا إياه، وعلامة المحبة تمكينه تعالى لعبده من الطاعة وتهيئة أسباب القرب، وإفاضة الرحمات وغايتها كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه به (وظهرت الشقاوة) هي حرمان المعاونة الإلهية، ويتحقق بالطبع والران.

فائدة: قال الشعراني في «اليواقيت» نقلاً عن سيدي محيي الدين بن العربي قدس الله سرهما ونفعنا بهما: اعلم أن الران: هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤] فالمراد به: صدأ يطلع على وجه مرآة القلب، وقد يحدث من النظر إلى ما لا يحل النظر إليه من شهوات الدنيا، وجلاء ذلك كثرة الذكر، وتلاوة القرآن. وأما الطبع والختم فالمراد بهما واحد، وهو خلق الضلال في العبد الذي هو الإضلال، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وأما الكن وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥] فالمراد به أن يكون العبد في بيت الطبيعة مشغولاً بأمه التي هي النفس ما عنده خبر من أبيه الذي هو الروح. فلا يزال هذا في ظلمة الكن، وهو حجاب الطبيعة المشار إليه في قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] ومعلوم أن من كان في حجاب كنّ وظلمة لا يسمع كلام الداعي إلى الله تعالى على وجه الانتفاع به، وأما الوقر: المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] فالمراد به: ثقل الأسباب الدنيوية التي تصرفه عن الاشتغال بما ينفعه في الآخرة، وأما الصمم: فالمراد به حصول قسوة في القلب، تمنعه من الإصغاء إلى سماع داعي الشرع، وأما القفل: فهو لأهل الاعتذار يوم القيامة من الكفار، وإن لم ينفعهم الاعتذار، فيقولون: يا ربنا إنا لم نقفل على قلوبنا هذا القفل، وإنما وجدناها مقفلاً عليها، ولم نعلم بقفلها، وقد طلبنا الخروج فخفنا يا رب من فك ختمك وطبعك عليها فبقينا ننتظر الذي أقفل عليها عسى أن يكون هو الذي يتولى فتحها، فلم يكن بأيدينا من ذلك شيء وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه من أهل الأقفال فتولى الله فتح قفله فشيّد الله به الإسلام فتأمل هذه التفاسير.

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥]، فإن قلت: فهل الإيمان مخلوق أو غير مخلوق، فالجواب: أن الإيمان من حيث هو هداية من الله تعالى غير مخلوق، لأن الهداية صفة من صفاته تعالى وصفاته قديمة، وأما من حيث هو إقرار من العبد وإذعان، فهو مخلوق، لأنه معدود من أعمال العبد، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] اهـ. باختصار.

فقد اتضح لك أن الشقي إذا سأل الله تعالى مُهماً سأل مع عدم الإقبال على الله تعالى، لا ينفعه السؤال موافقة لما في علمه القديم، وأما قوله في الحديث المتقدم ذكره: «اقضوا لهذا حاجته فإني أحب أن لا أسمع صوته» إلخ الحديث، فيمكن حمله على سؤال الشقي مع الإقبال والإذعان في الأرزاق الدنيوية ونحوها كصحة الأبدان والأولاد، وأما السعادة فلم يوفق لسؤال السعادة المشروط فيها الإذعان والقبول لحجب الله تعالى له بوجود نفسه عن شهود خالقه كما علمت (فاغننا) بقطع الهمزة، أي: اكفنا ما نحتاجه (بفضلك) هو ابتداء الإحسان بلا علة (عن سؤالنا منك) أي: اجعلنا ممن وصلوا إليك بفضلك وفجأتهم عنايتك من غير طلب ولا استعداد، قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥] (ولا تحرمنا) بفتح التاء على أنه ثلاثي، وبضمها على أنه رباعي (من رحمتك) أي: إحسانك وقربك تفضلاً منك وحاصل كلام الشيخ المصنف أنه أولاً: طلب طريق الجذب والشطح بقوله: فاغننا بفضلك عن سؤالنا منك، وثانياً: طلب طريق السلوك والكمال الذي هو مقام الفرق بقوله: ولا تحرمنا من رحمتك إلخ (مع كثرة سؤالنا لك) لأن الدعاء يفيد إظهار الفاقة بين يديه تعالى، وإظهارها سبب الرحمة، وإنما طلب الشيخ المصنف هذا المقام خشية أن يكون من الذين يمنعهم الأدب عن الطلب اعتماداً على قسمته تعالى واشتغالاً بعبادته عن المسألة كأهل الشطح إذ المجذوب المتدارك بالسلوك أفضل طبقات الأولياء، وقد قدّم الله أقواماً في سابق علمه، فربما يجري عليهم في الظاهر أوصاف المطرودين ويصيرهم في مقام المتعبدين، وهم من أهل رحمته بالحكم السابق، وأخّر غيرهم في سابق علمه، فلم ينفعهم كثرة عبادتهم، ولا دعائهم، لأنهم ليسوا من أهل رحمته في سابق حكمه، فلذلك طلب الشيخ المصنف، أن يكون محفوظاً بالرحمة السابقة مع الاجتهاد في العبادة التي من جملتها السؤال والدعاء فيا لها من رتبة إذ لم يرضَ صاحبها بالتخلف عن السابقين والسباق السباق قبل تفويت المواسم واللحاق اللحاق قبل انقضاء المغانم والزحام الزحام على موائد الإكرام، قال الشيخ النابلسي في شرحه لرسالة الشيخ أرسلان:

رب شخص تقوده الأقدار | للمعالي وما لذاك اختيار
رب غافل والسعادة احتضنته | وهو منها مستوحش نفار
يتعاطى القبيح عمداً فيلقى | جميلاً وفلسه دينار
كلما قارف الذنوب أتته | توبة طهرته واستغفار
وعليه أن زلَّ عين من الله | تقيه ويستر الستار
فهو بالله دائماً يترقى | لا به حيث تشرق الأنوار
وفتى كابد العبادة حتى | منه قد ملَّ ليله والنهار
يتسامى بالذكر والفكر قصداً | وهو ناءٍ وعنه شط المزار
يفعل الخير ثم يلقاه شراً | وإذا رام جنة فهي نار
حِكَمٌ حارت البرية فيها | وحقيق بأنها تحتار
وعطايا من المهيمن دلت | إنه الله فاعل مختار

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [آل عِمرَان: ٢٦] تشاؤه ﴿قَدِيرٌ﴾ [آل عِمرَان: ٢٦] بقدرة كاملة تعطي من الخير ما بعد عن الأفهام، وتبعد من الشر ما تحيله الأوهام، ولا يقدر على ذلك إلا أنت (يا شديد) أي: يا قوي (البطش) هو الأخذ بعنف فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف، قاله في «الصحاح»: ولا يكون ذلك إلا لكامل القدرة (يا جبار) هو الذي يرد الممكن عن الفساد دنيوياً وأخروياً إلى صلاح بما شاء مشتق من الجبر الذي هو الإصلاح، فعلى هذا يكون من صفات الفعل الجمالية، وقيل بمعنى المكره بقهره على وفق إرادته، فيكون على هذا من صفات الفعل الجلالية (يا قهار) من القهر، وهو الاستعلاء على الشيء من جهة الملك والسلطان ظاهراً، ومن جهة علو المكانة باطناً فهو مستولٍ على الكل نافذ فيهم حكمه وسلطانه جبراً (يا حكيم) أي: المحكم للأشياء حتى صدرت محكمة متقنة على وفق علمه تعالى من الأحكام، وهو إتقان التدبير، ولا يكون ذلك إلا له تعالى (نعوذ) نعتصم (بك) بذاتك (من شر) سوء (ما) الذي (خلقت) أوجدته، (ونعوذ بك من ظلمة ما أبدعت) الظلمة بالظاء المعجمة المضمومة في الأصل عدم النور، ثم تطلق على الكفر والحيرة والالتباس والمخالفة، وذكر الشيخ المصنف: الاستعاذة من ظلمة المخلوقات وما بعدها مع أنها داخلة في عموم ما خلقت، لأن هؤلاء المؤذيات يخفى أمرهم ويلحق الإنسان في الظلمة من حيث لا يشعر، فنبّه عليه تأكيداً، وإن كان داخلاً، وأتى الشيخ المصنف بهذه الاستعاذة تأسياً بقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفَلَق: ٣] قال ابن

عباس: الليل إذا وقب أقبل بظلامه من المشرق، لأن فيه نشر الآفات. ولذا قيل الليل أخفى للويل.

قال ابن عطاء الله السكندري في حكمه: «الكون كله ظلمة، وإنما أناره وجود الحق فيه» أي العدم كله ظلمة، والوجود نور فالكون بالنظر إلى ذاته عدم مظلم، وباعتبار تجلي الحق بأنواره عليه وجود مستنير، قال شارح الحكم قوله: «وإنما أناره وجود الحق» أي: الله فيه كظهور الشمس في الكوة ذات الزجاج، فليس هناك إلا وجود واحد وهو وجود الحق، وبظهور تجلياته في الكون، وجدت على حسب ما تقتضيه طبائعها، وليس لها وجود في ذاتها بل هي عدم، وهذا تقريب للأفهام وإلاَّ فلا يدرك إلا بالذوق والوجدان اهـ.

(ونعوذ بك من كيد) خداع (النفوس)، جمع نفس بسكون الفاء، وهي عبارة عن لطيفة مودعة في هذا القلب الجسماني محل الأخلاق المذمومة، كما أن الروح محل الأخلاق الممدوحة، وحيث ما أطلقت النفس، فالمراد بها الأمارة بالسوء، وسميت بذلك، لأنها تأمر بعمل السوء، وترى الصواب في فعلها، وهي كشيطان لها سبعة رؤوس: الشهوة والغضب والكبر والحسد والحرص والبخل والرِّياء، فمن جرد عليها سيف لا إله إلا الله نجا منها، فتتصف باللوامة، فإذا رأت الحق تعرفه ولا تتبعه، لأن جنودها اللوم والهوى والمكر والعجب والظلم والكذب، فمن حاربها باسم الذات أعني الله نجا منها، فتتصف بالملهمة، قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٨]، وجنودها التوبة والصبر والتحمل والحجب، وحالتها المحبة ومفتاحها اسمه تعالى هو.

وهنا وقفت الشاذلية أمدّنا الله بأمدادهم، وقالوا: إذا ألهمت تقواها طلع عليها الفجر ولاح فصارت مطمئنة بقضاء الله تعالى راضية بما يصدر عن الله تعالى مرضية عند الله تعالى رجعت إلى عبادة الله تعالى بعد دخولها مشاهدة الله تعالى، والخلوتية لها تفاصيل أخر مبسوطة في ربيع الفؤاد لشيخ شيخنا الشريف الشرقاوي أمدنا الله بإمداده، قال بعض العارفين من الصوفية:

كيف الخلاص وما للصب من رمق ... والعين قد كحلت بإثمد الأرق
والقلب في وجل أضحت تحاربه ... لواحظ من ذوات الحسن والخلق
ترمي بذي شرر من لحظ مقلتها ... قلوب أهل الهوى كالشهب في الغسق
الجسم مسكنها لم أرضَ أعقبها ... الحور تشبهها أمارتي فرقي

لوامتي لم تكن حيث العيون رأت … عيون فاتنة كُحّلْن من حدقي
لعلها ملهمة للناس كلهم … عود المحب إذا ما يشتكي القلقي
قد ألبست جسمها أثواب مطمئنة … وزينت لحظها بخالص الورق
راضية تلقى والقلب مشتفقي … يا ليتها تنصفي والقلب منحرقي
مرضية لو رأتها الشمس ما طلعت … من حيث مبعثها يوماً على الأفق
مقتول كاملة بالحسن بارعة … يا حس مبسمها مع ذلك العنقي
في الحسن قد اجتمعت آراء ساداتنا … لكنها افترقت في ذاتها فرقي

وكل ذلك لا يقع إلا بتقدير الله تعالى وإرادته كما أشار إليه الشيخ المصنف بقوله: (فيما) أي: في الذي (قدّرت) قضيت، (وأردت) وأضاف ذلك للنفس من جهة الكسب وفي الحقيقة بمقتضى الإرادة والقدرة الكاملة (نعوذ بك من شر الحسّاد) أي: الثابت اتصافهم بالحسد وأعظمهم الشيطان إذ ليس له دأب إلا السعي في المفاسد، فإن قلت فما مرتبة إبليس، فالجواب: كما قاله العارف الشعراني في «اليواقيت» في المبحث الثالث والعشرون نقلاً عن الشيخ ابن العربي: مرتبته أن يوسوس للناس بما يهلكهم، أو ينقص مقامهم عند الله تعالى من حيث لا يشعرون، ولكن أخبر الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠] أي يضيفون إليه أمر الإغواء مع الغفلة عن الله تعالى، فمن أخذ وسوسته مع الحذر منه ولم يعمل بها نجا من كيده، ومن دسائسه التي تخفي أن يجد الإنسان في طاعة فيوسوس له بفعل غيرها لينقله منها ويفسخ عزمه ونيته الأولى مع الله تعالى، ثم إن خالفه العبد في ذلك حسَّن له فعلاً آخر، وقال له: إن ذلك الفعل أفضل مما أنت فيه. ومن دسائسه أيضاً، أنه يأتي العبد بالكشف الصحيح والعلم التام ويقنع منه أن يجهل من أتاه به. ومن دسائسه: أن يأتي العبد بنور يكشف به معاصي العباد ويهتك به أستارهم ويظهر به عوراتهم فيظن ذلك المكاشف أنه نال درجة عظيمة، وإنما ذلك من الشيطان، لأن الشيطان صار سمعه وبصره فيجب على ذلك المكاشف المبادرة للتوبة، وإلا هلك مع الهالكين اهـ، وفي الحديث **«كل بني آدم حسود ولا يضر حاسداً حسده ما لم يتكلم باللسان أو يعمل باليد»**(١) ومراد الشيخ المصنف: بالاستعاذة مما تقدم، ما يترتب على ذلك من عدم الصبر على الطاعة والمصيبة وغيرهما، (على ما أنعمت) أي: الذي

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء حديث رقم (٢٢٠٨) [ج٢ ص٢٤٣]، والمناوي في فيض القدير [ج٥ ص١٦]، والقيسراني في تذكرة الحفاظ [ج٣ ص١٠٤٢] وأورده غيرهم.

أنعمت علينا من النعم الحسية والمعنوية (ونسألك عز الدنيا) بالمال لتزين الظاهر، والحال لتزين الباطن، قال الشيخ المصنف: عز المؤمن أن يمنعه الله تعالى من التعبد للنفس والهوى والشيطان، أو لشيء من الكائنات والمنافق لا يعلم العزة إلا في الأسباب فهو محجوب محروم (والآخرة) برفع الحجاب ومشاهدة الأحباب من غير مشقة ولا عتاب (كما) مثل عز (سألكه نبيّك محمد ﷺ) لأنه جاء في أحاديث كثيرة سؤال العزة والتعوذ من الذل لغير الله تعالى فبلغه الله تعالى أعلى درجات العز، فأظهر دينه، وملته وهزم أعداءه وأسرى به جسماً وروحاً وكشف له عن الملكوت والجبروت، ورأى ربه تعالى ببصره وأسمعه خطابه، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] (عز الدنيا بالإيمان والمعرفة) يحتمل أن يكون مفعول نسألك مقدراً دل عليه نسألك السابق، ويكون المسئول مطلق العز، والتفضيل إنما هو فيما يسأله ﷺ، ويحتمل أن يكون بدلاً من مفعول نسألك، ويكون المسؤول العز في الدنيا بقيد كونه بالإيمان والمعرفة، وفي الآخرة بكونه باللقاء والمشاهدة، لأن المبدل منه في نية الطرح (وعز الآخرة) هي دار (البقاء) بالوصول إلى المحبوب من غير مانع (والمشاهدة)، إذ هي النظر للمحبوب الحقيقي في المظاهر الكونية، ولذا قال ابن الفارض قدس سره:

أشاهد معنى حسنكم فيلذُ لي   خضوعي لديكم في الهوى وتذللي

أي أشاهد تجليات الأسماء في المظاهر الكونية، لأن الحسن هو الجمال الحقيقي، وهو حضرة الأسماء الحسنى، وقوله: فيلذ لي، أي: يحصل له بمشاهدة تجليات الأسماء الحسنى في المظاهر لذة، قاله النابلسي، وإنما جعل العز في اللقاء، لأن علامة الشوق حب الموت مع الراحة والمشتاق يجد حلاوة الموت، عند وروده أحلى من الشهد، لما كشف له من راحة الوصول، وأما حب الموت من التعب الحاصل له في الدنيا، فليس لمحبة الله تعالى بل هو للراحة مما هو فيه من البلاء، وانظر إلى سيدنا يوسف عليه السلام لما ألقى في الجب لم يقل: توفني، ولما دخل في السجن لم يقل: توفني، ولما اجتمع بأبويه وإخوته، وتم له الملك والنعم قال: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١] الآية، لارتفاع همته ﷺ إلى مولاه واشتياقه إلى لقائه تعالى (إنك سميع) لدعائي (قريب) ممن ناداك (مجيب) مسعف بمقتضى الفضل والمنّة كل سائل بلسان الحال وبلسان المقال بمطلوبه المقسوم له أزلاً: (اللهم إنّي أقدم) من التقديم، وهو جعل الشيء سابقاً أمام المقصود، أي اجعل ما يأتي شافعاً (إليك) أي أقدم بركته (بين يدي) بفتح المهملة وسكون التحتية تثنية يد وبين تستعمل في الزمان ومعناه متقدماً لك، وفي المكان ومعناه قريباً منك سواء كان المكان صورياً أو معنوياً

أو هما معاً كما هو المراد هنا، أي: أقدم إليك قبل (كل نفس) تتنفس به أهل السموات والأرض والنفس بالتحريك الريح الداخل من الفم والأنف الذي جعله الله غذاء للنفس بالسكون وبانقطاعه هلاكها، وعدد الأنفاس الخارجة من الإنسان في اليوم والليلة على ما قيل في العادة أربعة وعشرون ألف نفس، ثم إن الشيخ المصنف أتى بما هو أدق من النفس فقال (و): أقدم إليك بين يدي كل (لمحة) نظرة. قال في القاموس لمح إليه كمنع اختلس النظر، (وطرفة) تحريك الجفن إن قلت: إن زمن الأنفاس واللمحات متحدة فيكفي النفس عنهما. قلت: إن المصنف قصده التكثير حتى إنه نبّه على عدد الأنفاس من المتنفسين، واللمحات من اللامحين والطرفات من الطارفين من جميع المخلوقين، (يطرف) بكسر الراء من باء ضرب (بها) أي بالطرفة، وكذا ما قبله فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، وإن كان الأكثر الحذف من الثاني لدلالة الأول عليه (أهل السموات وأهل الأرض) من الإنس والجن والملائكة وجميع الحيوانات والقصد بذلك التكثير، كما علمت والمقدم أمام ذلك آية الكرسي، وهي أعظم شافع وأجل هدية، (و) أقدم إليك قبل (كل) بالجر عطف على كل الأولى (شيء هو في علمك) أي: تعلق به العلم مما أبرزه وأظهره للوجود (كائن) أي: واقع في الحال وسيقع في الاستقبال (أو قد كان) حصل فيما مضى والجملة الإسمية في موضع جر صفة شيء، وأتى به مجملاً لعجزه عن إحصاء أفراده (أقدم إليك بين يدي ذلك كله) أتى به لزيادة التأكيد، وهذه المقدمة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] معبود في الوجود بحق ﴿إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] ذو الحياة التامة التي لا يعتريها شيء من الآفات، فلذا صحّ له البقاء لأنه غير مسبوق بالعدم، ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] القائم بنفسه المقيم لغيره من الكائنات، وإنما جعل المصنف هذه الآية هدية بين يديه متشفعاً بها لاشتمالها على أصول المسائل الإلهية، ولما أنزلها الله تعالى جعل ثوابها لقارئها عاجلاً وآجلاً أمّا العاجل، فهي الحارسة لمن قرأها من جميع الآفات، وأما الآجل فمعلوم ونقل صاحب الكفاية عن سيدي محمد بن الحنفية لمّا نزلت هذه الآية خرّ كل صنم في الدنيا، وكل ملك على وجهه وسقطت التيجان من على رؤوسهم، وهربت الشياطين، وضرب بعضهم بعضاً حتى اجتمعوا إلى إبليس وأخبروه بذلك، فأمرهم أن يبحثوا عنه، فطافوا مشارق الأرض ومغاربها حتى جاؤوا المدينة المشرفة، فبلغهم أن آية الكرسي قد نزلت، وبالجملة فآية الكرسي أفضل آي القرآن ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] تلحقه ﴿سِنَةٌ﴾ [البَقَرَة: ٩٦] هي أول ما يظهر على الوجه من النعاس تمنع حواس الرأس من غير تغيير للعقل ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] هو ما يغيب العقل

ويمنع الحواس، ومحله القلب، وأكثر ما يكون من الغفلة فلذا قال عليه الصلاة والسلام: «تنام عيناي ولا ينام قلبي» ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] مُلكاً، وخلقاً وعبيداً له البطش الشديد، ولا يحصل له إلا ما يريد ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥]بيان لكبرياء شأنه، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه يستقل بأنه ﴿يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] تواضعاً فضلاً عن أن يدافع ما يريده تعالى عناداً، أو مخاصمة، فلا أحد يسأل منه تعالى الخير للغير الذي أراد تعالى عقوبته ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] بأمره، وفي ذلك إثبات جواز الشفاعة لمن شاء من خلقه، وقد ورد أنه يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء، وآخر من يشفع هو سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] أي: ما قبلهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] أي: وما بعدهم والضمير للخلق الدال عليه ما في السموات والأرض بتغليب العقلاء على غيرهم، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] أي: معلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] أن يعلمهم به وحياً أو إلهاماً ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] قيل: علمه، وقيل: ملكه، فهو مجاز عنهما، وقيل هو جسم عظيم خلقه الله تعالى من لؤلؤة تحت العرش، وفوق السموات، له أربع قوائم، كل قائمة طولها مثل السموات السبع، والأرضين السبع، تحمله أربعة أملاك، لكل ملك أربعة وجوه أقدامهم فوق الصخرة التي تحت الأرض السابعة السفلى مسيرة خمسمائة عام، ملك على صورة سيدنا آدم، وهو يسأل للآدميين الرزق والمطر من السنة إلى السنة، وملك على صورة سيد الأنعام الثور يسأل للأنعام الرزق من السنة إلى السنة، وملك على صورة سيد السباع الأسد، يسأل للسباع الرزق من السنة إلى السنة، وملك على صورة سيد الطيور النسر يسأل للطير الرزق من السنة إلى السنة اهـ. قاله النابلسي في اللطيفة البدرية أمدنا الله بإمداده ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ٣٣] ففي الحديث: «أن السموات والأرض في الكرسي حلقة ملقاة في فلاة أرض»(١) ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] يثقله ﴿حِفْظُهُمَا﴾

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور [ج٢ ص١٧] وقال: «أخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي فقال: «يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضين السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة». وأورده ابن كثير في تفسيره [ج١ ص٣١١]. ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ...، حديث رقم (٣٦١) [ج٢ ص٧٦].

[البَقَرَة: ٢٥٥] أي: السموات والأرض، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] الذي لا رتبة فوق رتبته ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] الذي لا نسبة لأحد معه في العظمة، وفي نوادر الأصول: لقي جبرائيل موسى عليهما السلام، فقال جبرائيل: إن ربك يقول: من قال دبر كل صلاة مكتوبة: «**اللهم إني أقدم إليك بين يدي كل نفس إلخ قوله:** ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] **فإن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ليس منها ساعة إلا ويصعد إليّ منه سبعون ألف ألف حسنة حتى ينفخ في الصّور**» قال الترمذي: خلصنا حساب ليلة ثمانمائة ألف ألف وأربعين ألفاً، وبالنهار مثله، فذلك ألف ألف ألف وستمائة ألف ألف هذا اليوم والليلة فحقيق أن تشتغل الملائكة بذلك، (أقسمت عليك) الأول حمله على السؤال والطلب على سبيل الاستشفاع لا على القسم الحقيقي على الله تعالى بصفاته، لأنه مختص بالأكابر أهله الدلال المستغرقين في حبه تعالى، فإن الله تعالى رفع الحشمة بينه وبينهم، فهم أهل الشطح، وأما غيرهم فالقسم منهم قلة أدب، ويؤدي إلى العطب، وقال الشيخ الأكبر: إن لله عباداً يتحكمون عليه فما يخطر لهم فيجيبهم إلى ذلك وذلك لمعرفتهم به حين أحضر لهم ذلك، فهو المتحكم حقيقة وهم المتحكمون ظاهراً.

وقد قال بعض العارفين لله:

قوم أخلصوا في ذكره ... فسقاهمو كأس المحبّة والهنا
أعطاهمو فوق الذي يرضونه ... من حكمة ومعارف وتيقنا
كشف اللثام عن الجمال تمننا ... أحيا لقلب مات من حر الفنا
ناداهمو فتمتعوا بجمالنا ... فأنا المحبّ وأنتموا أحبابنا
هذي خزائن حكمتي فتحكموا ... فيها بما يرضيكمو في ملكنا

وهذا كله خارج عن الفتوى لا يعرفه غير أهله (ببسط يديك) هما عند الصوفية وعند السلف صفتان زائدتان على الذات، لا ضد لهما يخلق بهما ما يشاء على التخصيص كما خلق بهما آدم في قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] لا بمعنى الجارحة لاستحالتها على الله تعالى، ولا بمعنى القدرة لئلا يلزم التعطيل، كما صرح به في الفقه الأكبر، وعند الخلف يؤولان بالقدرة وتثنيتهما للدلالة على الكمال والقوة، فإن التثنية يؤتى بها لمجرد التكثير الدال على القوة والكمال، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [المُلك: ٤]، وهي هنا كناية عن كثرة جوده وإنعامه،

والبسط تصوير لغاية الكرم، إذ غاية بذل السخي أن يعطي بكلتا يديه قال في «اليواقيت»[١] في المبحث التاسع عشر: فإن قيل: إن آدم عليه السلام خلقه الله بيديه، ومع ذلك فما حفظ من صورة المعصية وأين رتبة اليد من اليدين، إن جعلتم أن اليدين كناية عن شدة الاعتناء بآدم عليه السلام، فالجواب: إنما لم يحفظ آدم من جريان الأقدار، لأنه المحل الأعظم لها، فإن قلت: فإذا كان خلق آدم باليدين، إنما هو لشدة الاعتناء به عن غيره، فإذاً اعتناء الحق تعالى بالأنعام أشد اعتناء بها منه، لأن الله تعالى جمع الأيدي في خلقها، فقال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: ٧١] فالجواب: أن توجه اليدين على آدم أقوى من توجه الأيدي على الأنعام، لأن التثنية مندرجة بين المفرد والجمع فلها القوة والتمكين من حيث أنه لا يوصل إلى الجمع إلا بها ولا ينتقل عن المفرد إلا إليها. اهـ.

(وكرم وجهك) قد علمت أن مذهب الصوفية والسلف على حقيقته مع التنزيه اللائق به سبحانه وتعالى ومذهب الخلف التأويل، بمعنى: الذات، وقال بعض المحققين وجهه تعالى ما تَعَرَّفَ به من تجليه الذاتي لخواص عباده، وقيل في نحو قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١١٥] رضاه وثوابه، (ونور عينيك) الرواية بإفراد عين، كما قاله الفاسي، وقال غيره: بالإفراد والتثنية، وجاءت في القرآن مفردة ومجموعة، وفي السُّنة مثناة في حديث: «إذا قام العبد إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمٰن»[٢] ومذهب السلف إثبات عين له تعالى، وهي صفة زائدة على البصر، وعند الخلف بمعنى الرّعاية والحفظ، (وكمال أعينك) الكمال لغة التمام، وعند الصوفية عبارة عن ماهية غير قابلة للإدراك والغاية. قال الشيخ الأكبر: فكمال الله بذاته لا بصفة زائدة على الذات، وهي عبارة عن: ماهية غير قابلة للزيادة، فليس لكماله غاية، ولا نهاية، فهو تعالى يدرك ماهيته، ويدرك أنها لا تُدرك، وأن لا غاية لها فكماله عين ذاته، ولهذا صحّ له الكمال المطلق اهـ.

---

(١) يقصد الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر».

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل، حديث رقم (٥٠٩) [ج١ ص٥١١]، وأورده العقيلي في الضعفاء، حديث رقم (٧٢)[ج١ ص٧٠] ولفظه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا قام في الصلاة فإنه بين عيني الرحمٰن عز وجل فإذا التفت قال له الرب عز وجل: ابن آدم إلى من تلتفت إلى خير لك مني تلتفت ابن آدم أقبل إلى خير لك ممن تلتفت إليه».

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القَمَر: ١٤] فقيل: بمرأى منا، أي: ونحن نراها لنحفظها، وقيل: بأوليائنا، فقد ورد أن لله في الأرض عيوناً، وهم رجال القبضة المتصرفون بالله تعالى، والله تعالى يجري على أيدي بعضهم الرحمة كأبي بكر، والعدل كعمر، فلذلك يقف الصدّيق عند باب الجنة، وعمر عند الميزان رضي الله تعالى عنهما، وأما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطُور: ٤٨] أي بحفظنا كقولك: أنت بعين الله تعالى أي بحفظه (أن تعطينا خير ما) اسم موصول بمعنى الذي (نفذت) بفتح الفاء، وبالذال المعجمة، وهو المضي، والمراد تعلقت (به مشيئتك) تعلقاً تنجيزياً قديماً، والمشيئة ترادف الإرادة، وقيل: إن الإرادة تتعلق بالإيجاد فقط والمشيئة تتعلق بالإيجاد والإعدام قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ [يس: ٨٢] أي: مشيئته ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [النساء: ١٣٣] الآية، فهي أعم من الإرادة من هذا الوجه (وتعلقت به) بإيجاده (قدرتك) تعلقاً تنجيزياً حادثاً (وأحاط به علمك) الإحاطة إدراك الشيء بكنهه ظاهراً وباطناً، وعلم الله صفة أزلية، قال في الإنسان الكامل فعلمه بنفسه، وعلمه بخلقه علم واحد غير منقسم ولا متعدد، ولكنه يعلم نفسه بما هو له، ويعلم خلقه بما هم عليه اهـ.

(واكفنا شر) هو ما فيه مضرة عاجلة أو آجلة (ما) شيء (هو ضد لذلك) أي: ضد خير ما نفذت به مشيئتك، وتعلقت به قدرتك وأحاط به علمك، (وأكمل) وأتمم (ديننا) هو لغة الطاعة وشرعاً ما شرعه الله على لسان نبيّه من الأحكام، وكمال الدين بالثبات والرسوخ فيه، والتمكن من معرفة السّير والسّلوك إلى ملك الملوك، وهو جامع للشريعة والحقيقة، فالشريعة أن تعبده والطريقة أن تقصده والحقيقة أن تشهده، فكمال الدّين للعاصي بالتقوى في البداية، قبل وقوع الذنب، والاستدراك بالتوبة بعد الوقوع، والفقيه بالاستقامة على الكتاب والسنة، وللمريد بالصدق والإخلاص بعد تحصيل الأولين، وللعارف بالورع فعاص لا تقوى عنده فاجر، وفقيه لا استقامة عنده مقصر، ومريد لا صدق له متلاعب، وعارف لا ورع له ناقص، فكمال الدّين تقوى واستقامة وصدق وورع وزهد وهذه نعم من الله على العبد، فطلب الشيخ المصنف: الثبات والإتمام عليها بقوله: (وأتمم علينا نعمتك) بالتجلي الذاتي في الدنيا والتمتع بالنظر إلى وجهك الكريم في العقبى (وهب لنا حكمة الحكمة) هي الأسرار الإلهية، والخلع الربانية، كمعرفة العلم المؤدي للعمل، فإذا ترقى العبد في العمل شيئاً فشيئاً أعطى حكمة الحكمة (البالغة) المتقنة بحقائق الأشياء وخواصها، ومنافعها الظاهرة

والباطنة، ويكون ذلك مع (الحياة الطيبة) وهي في حقنا صفة تقتضي الإحساس والحركة الإرادية وتطلق مجازاً على ما يخص به الإنسان من الفضل، كالعلم والعقل والإيمان، من حيث إنه كمالها وغايتها والموت بإزائها على ما يقابلها في كل مرتبة.

واعلم أن حياة الله للخلق واحدة لكنهم يتفاوتون فيها فمنهم من ظهرت فيه الحياة على صورتها التامة، وهو الإنسان الكامل، والملائكة، ومن لحق بهم، ومنهم من ظهرت فيه على صورتها، ولكنها غير تامة، وهو الإنسان الحيواني والجن، ومنهم من ظهرت فيه لا على صورتها، وهو باقي الحيوانات، ومنهم من تطوى فيه الحياة، فكان موجوداً لغيره لا لنفسه، كالمعادن والمعاني ونحو ذلك، فما ثم شيء من الموجودات إلا وهو حيّ درّاك عند أهل الكشف.

قال الشيخ الخواص نفعنا الله به: وإنما زاد الحيوان على الجماد بالشهوة فقط زيادة على الإدراك، وقد جاء في السنّة الصحيحة ما يشهد لمعرفته بالله تعالى، وفهمه كل كلام، ولكنه عاجز عن إسماعنا بالنطق إلا إذا نطق معجزة لنبي أو كرامة لولي، وقد كان ﷺ راكباً بغلته يوماً فمرّ على قبر داثر، فجفلت البغلة، فقال ﷺ: «**إنها رأت صاحب هذا القبر يُعَذَّب فلذلك نفرت**»[(١)] وفي الصحيح «**أن كل شيء يسمع عذاب القبر إلا الثقلين**»[(٢)] وأخبر الشيخ محمد الولي: أن صاحب هذا القبر كان كيّالاً للحبوب فافهم اهـ.

ثم إنه اختلف في الحياة الطيبة، فقيل: الرزق الحلال، وقيل: القناعة، وقيل: هي الجنة، لأنها حياة بلا موت، وغنى بلا فقر، ولا مانع من أن المؤمن الكامل يحصل له جميع ذلك مع زيادة وجود الخشية من الله تعالى.

فائدة: قال الجيلي في كتابه «الإنسان الكامل»: اعلم أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى الأبد الأبدين، ثم له تنوع في ملابس ويظهر في كنائس فتسميه باعتبار لباس لا

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، حديث رقم (٣٣٦٦) [ج٣ ص٣٤٨]. ولفظه: عن أبي سعيد الخدري قال: كنت مع رسول الله ﷺ في سفر وهو يسير على راحلته فنفرت فقلت: يا رسول الله ما شأن راحلتك نفرت؟ قال: «**إنها سمعت صوت رجل يعذّب في قبره فنفرت لذلك**».

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب الميت يسمع خفق النعال، حديث رقم (١٢٧٣) [ج١ ص٤٤٨]، والحاكم في المستدرك، تفسير سورة حم عسق..، حديث رقم (٣٦٦٢) [ج٢ ص٤٨٢]، وأبو داود في سننه، حديث رقم (٤٧٥٣) [ج٤ ص٢٣٩] ورواه غيرهم.

يسمى به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي هو له محمد ﷺ وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبد الله ولقبه شمس الدين، ثم له باعتبار ملابس أخرى أسام، وله في كل زمان اسم لائق بلباسه، في ذلك الزمان، ثم قال: وقد اجتمعت به ﷺ، وهو في صورة شيخي شرف الدّين بن إسماعيل الجبرتي، فكنت أعلم أنه النبي ﷺ وكنت أعلم أنه الشيخ، وهذا من جملة مشاهد شهدته فيها بزبيد سنة ست وتسعين وسبعمائة، وسر هذا الأمر تمكنه ﷺ من التصور بكل صورة، فالأديب إذا رآه في الصورة المحمدية التي كان عليها في حياته، فإنه يسميه باسمه، وإذا رآه في صورة ما من الصور، وعلم أنه محمد فلا يسميه إلا باسم تلك الصورة، ثم لا يوقع ذلك الاسم إلا على الحقيقة المحمدية.

ألا تراه ﷺ، لما ظهر في صورة الشبلي رحمه الله تعالى، قال الشبلي لتلميذه: اشهد أني رسول الله ﷺ، فكان التلميذ صاحب كشف فعرفه فقال: أشهد أنك رسول الله، وهذا أمر غريب منكور، وهو كما يرى النائم فلاناً في صورة فلان اهـ.

(والموتة) مقتضى اللغة الميتة بكسر الميم، وسكون الياء، النوع من الموت كما في القاموس لكن الوارد عن الأشياخ الواو والفتح فيكون من باب الاحتراز عن الميتة، في عرف الفقهاء، وهي مفارقة الروح بغير زكاة شرعية، أو المراد الموت المصطلح عليه عند القوم، وهي قمع النفس عن هواها فإذا ماتت بذلك انصرف القلب بالطبع والمحبة الأصلية إلى عالم القدس فتحيى النفس بالحياة الطيبة مع الموتة الحسنة في هذه الدنيا الفانية، فإن الطائفة أطلقوا الإحياء والإماتة على حالتي الفرحة والنزهة تجوزاً كما يقال: فلان أحيى فلاناً بجوده، وأماته بإعراضه عنه، وقالوا من كان فناؤه في الله فهو حي وإن هلك، ومن كانت حياته في المخالفة فهو ميت، وإن عاش كما قيل:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً ... كاسفاً باله قليل الرجاء[1]

والموتة (الحسنة) هي التي تكون بعد رفع الحجاب وتجليه تعالى بصفة الجمال، فعند ذلك تنتعش الرّوح وتخرج مسرورة بالحق محمولة على رفرف العشق،

---

(١) هذه الأبيات هي لابن الرعلاء عدي الغساني، شاعر جاهلي اشتهر بنسبه إلى أمه، وضاع اسم أبيه مجهول تاريخ الولادة والوفاة.

(وتول قبض رواحنا) بأن تحفظها بالتجلي والاستغراق في الشهود والاستهلاك في الحب (بيدك) أي من غير واسطة عزرائيل، وهو القابض مجازاً، وفي الحقيقة هو الله تعالى، وإنما أسند القبض إليه باعتبار مباشرته لها في النزع، وله أعوان، فوّض الله كل نوع من المخلوقات إلى ملك منهم، فإذا صارت الروح إلى الخيشوم قبضها سيدنا عزرائيل عليه السلام، وقد ورد أن الله يخص الأخفياء من أوليائه بقبض أرواحهم بيده من غير واسطة، فتطيب أجسامهم فلا تعدو عليها الأرض حتى يبعثوا بها مشرقة بنور البقاء المجعول فيهم ببقاء الأبد من الباقي الأحد جلّ جلاله، وورد أن من داوم عقب كل صلاة على قراءة آية الكرسي كان الذي يتولى قبض روحه ذو الجلال والإكرام، فطلب الشيخ المصنف: أن يكون منهم، والمعنى: أظهر لنا عند قبض أرواحنا علامة رضاك عنا بإحسانك لنا بقبض أرواحنا بيدك من غير واسطة (وحل بيننا وبين غيرك) أي: بالغيبة عن الوجود والاستغراق عن الشهود كما أشار أبو القاسم الجنيد قدس الله سره لذلك بقوله:

وجودي أن أغيب عن الوجود ... لما يبدو عليّ من الشهود

وفي لطائف المنن للعارف الشعراني: أن الحق تعالى إذا تولى عبداً صان قلبه عن الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار، إذا هو عرش التجلي فالحيلولة بين العبد والأغيار تكون بسواطع لوامع الأنوار، فيكون حجابه مولاه (في البرزخ) هو الحائل بين الشيئين، لأنه بين الدنيا والآخرة، والمراد بالحيلولة فيه: الاستغراق في الشهود عن العمل، لأنه من جملة الأغيار، ويتصور لصاحبه على حسب مقامه، وعمله في الدنيا، والمعنى اجعلنا مقصورين على التمتع بمشاهدتك في البرزخ، حتى لا نشتغل بغير ذلك من نحو صور الأعمال الحسنة الواردة في الحديث (وما قبله) وهو عالم الدنيا محل الأغيار (وما بعده) وهو عالم الآخرة وأعظم الغير فيه الاحتجاب عنه تعالى بعدم مشاهدته في دار كرامته، وإنما خص الشيخ المصنف هذه الثلاثة، لأن الوجود ثلاث عوالم: دنيا وأخرى وبرزخ، والإنسان من مجموعها، فإنه جسم دنيوي، ونفس برزخي، وروح أخروي، فالعبد في هذه الدار الحكم لجسمه، وهو المباشر للأحكام الدنيوية، والنفس والروح مندرجان في وجوده مختفيان تحت حجابه، والإمدادات متصلة بهما بواسطته، وفي البرزخ الحكم للنفس والإمدادات متصلة بواسطتها للجسم والروح، فإذا انقضى هذا العالم، ونفخ في الصّور للصعق فالرّوح في هذا اليوم هي المباشرة للأحكام الأخروية، واندرج في وجودها الجسم والنفس وصارت الإمدادات متصلة بهما بواسطة الروح (بنور ذاتك) أراد الشيخ بنور الذات ظهورها في الكائنات،

فإنه تعالى ظهر فيها بعلمه من حيث إتقانها، وقدرته من حيث إبرازها من العدم بنور الوجود، ظهور دلالة لا ظهور حلول وتكيف، فعرفت بها ذاته وصفاته وأسماؤه، إذ هي فعله (وعظيم قدرتك) أي قدرتك العظيمة إذ بها التكوين والإبداع، والإحياء والإماتة (وجميل فضلك) أي: فضلك الجميل ثم أتى المصنف بما يدل على تأييد المعنى الحامل له على الطلب والسؤال، فقال: (إنك على كل شيء) مما سألتُك إياه وغيره (قدير، يا الله يا علي يا عظيم يا حليم) هو الذي سامح عبده الجاني، بترك المؤاخذة مع استحقاقه لها كرماً منه تعالى، وإمهاله للعبد الجاني مع إصراره فضلاً ورعاية (يا حكيم يا كريم) هو الرفيع القدر العظيم الشأن، وهذا كرم الذات والصفات، وكرم الأفعال البداءة بالنوال قبل السؤال والعطاء بلا حد ولا زوال (يا سميع) من السمع الذي هو صفة أزلية زائدة على العلم من غير صماخين تتعلق تعلق انكشاف بكل موجود قديماً وحادثاً فيسمع ذاته، في أزله وجميع صفاته الوجودية ويسمع مع ذلك فيما لا يزال ذوات الكائنات كلها وجميع صفاتها الوجودية سواء كانت من قبيل الأصوات، أو من غيرها أجساماً أو ألواناً، فهو مخالف لسمعنا، لأن من خصائص صفات الله تعالى: أن كل صفة تفعل فعل أخواتها فيسمع بما كان به يبصر هذا ما عليه أهل الكشف بخلاف صفات الخلق، وخالف في ذلك بعض المتكلمين، فقالوا: صفات الله تعالى لا تتعدى مراتبها، فلا يسمع تعالى بما به يبصر، وقس على ذلك بقية الصفات (بأقرب) بإحاطة علمه بكل شيء (يا مجيب) هو الذي يسعف كل سائل بمطلوبه المقسوم له أزلاً (يا ودود) بفتح الواو من الود بتثليثها، وهو الحب أي: المحب للمؤمنين أو المحبوب لهم، وقال البيهقي الودود: هو الوادُّ لأهل طاعته، أي الراضي عنهم والمادح لهم بأعمالهم، أو معناه: أن يوادهم إلى خلقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦] بضم الواو وحكي كسرها، وقيل: الودود كثير الإحسان لمن وده بالطاعة اهـ (حل) امنع، واحجز (بيننا وبين فتنة الدنيا) بالضم من الدنو، وهو القرب لسبقها الآخرة، وقيل لدنوها من الزوال، واختلف في حقيقتها، فقيل: ما على الأرض من الهواء والجو، وقيل كل المخلوقات، قبل الآخرة من الجواهر، والأعراض، وهي موصوفة بالدناءة، أي الخساسة، فمن حيل بينه وبينها على مشاهدة العبودية سعد ودواءها مع كونها خسيسة جريان الأعراض على الحالة الشريعة، (و) فتنة (النساء) إنما خص فتنتهن مع دخولها في فتنة الدنيا لعظيم كيدهن، ولأنهن أكبر الشهوات النفسانية، وقد وصفهن الله تعالى بالكيد العظيم، ولحديث «ما تركت بعدي فتنة أضر

على الرجال من النساء» رواه الإمام أحمد، لأنهن حبائل الشيطان، (و) حل بيننا وبين (الغفلة) هي إهمال الحقوق المندوبة، أو الواجبة بالاسترسال مع دواعي الهوى، وهي مانعة من دخول دائرة الولاية إذ لا يدخلها إلا الطاهر من جنابة الغفلة بالذكر، والفكر أو العناية الإلهية (والشهوة) هي ما كان للنفس فيه لذة وحقيقتها إرادة الالتذاذ بما يطلب أن يلتذ به بخلاف الإرادة، فإنها تتعلق بكل مراد للنفس سواء كان محبوباً أو لا كما أفاده الأستاذ الشعراني في «الكبريت الأحمر» عن الشيخ الأكبر، وهي حاجبة عن الله تعالى داعية للغفلة، وتشغل القلب بالأغراض والعوارض، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عِمرَان: ١٤] الآية، والمزين للشهوات في الحقيقة هو الله تعالى ابتلاء لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ [الكهف: ٧]، (وظلم) جور (العباد) من إضافة المصدر إلى فاعله، وإلى مفعوله، أي: ظلم العباد لنا وظلمنا العباد كما في حديث: «اللهم إني أعوذ بك أن أظلم أو أُظلم»[1]، والظلم مجاوزة الحد بالتعدي أو التصرف في مال الغير بغير إذن شرعي (وسوء الخلق) الخلق هيئة راسخة في النفس تنشأ عنها الأمور بسهولة وسوء ما يترتب عليه من الأفعال القبيحة (واغفر لنا ذنوبنا) جمع: ذنب، أي: استرنا ولا تؤاخذنا بجرمنا، (واقض عنا) بوصل الهمزة (تبعاتنا) بكسر الباء، جمع: تبعة، ككلمة ما يتبع بسببه الإنسان، ويطلب به مما يترتب عليه لغيره من نفس، أو مال، وما يلزمه تأديته بمثل، أو قيمة سواء ترتبت بوجه شرعي، كالبيع والإجارة والقرض، أو بغيره كالغصب، وقضاء الله عنا التبعات، إما بتيسير البراءة والمسامحة ممن له الحق، أو أن الله تعالى يرضي صاحب الحق يوم القيامة، فإن العبد إذا عامله الله بالمغفرة والرحمة الواسعة، أرضى عنه خصمه، لأن حقوقهم لا تترك إظهاراً للعدل، ولذا قال أنس رضي الله تعالى عنه كما في «المواهب» في المقصد الأخير: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة، فقال أحدهما: يا رب خُذْ لي مظلمتي من أخي، فقال له الله تعالى: كيف تصنع بأخيك، ولم يبق من حسناته شيء، قال: يا رب فليتحمل من أوزاري» وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: «إن ذلك اليوم ليوم عظيم

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر ما يستحب للمرء أن يتعوّذ بالله جلّ وعلا، حديث رقم (١٠٣٠) [ج٣ ص٣٠٥]، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء..، حديث رقم (١٩٠٠) [ج١ ص٦٩٧]، وأبو داود في سننه، حديث رقم (١٥٤٤) [ج٢ ص٩١] ورواه غيرهم.

يحتاج الناس فيه أن يحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله للطالب: ارفع بصرك، فانظر، فقال: يا رب أرى مدائن من ذهب وفضة مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا، أو لأي شهيد هذا، قال: هذا لمن أعطى الثمن، قال: يا رب ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه، قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: يا رب، فإني قد عفوت عنه، قال الله تعالى فخذ بيد أخيك فأدخله الجنة» فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله يصلح بين المسلمين يوم القيامة» رواه الحاكم والبيهقي في «المبعث» كلاهما عن عباد بن شيبة الحبطي عن سعيد بن أنس عن النبي ﷺ، فقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(واكشف عنا السوء) أي: أزل عنا كل قبيح حسي أو معنوي واقع أو متوقع، (ونجنا) خلصنا (من الغم) أي: الهم والكرب الذي يغم القلوب بسبب غوائل الذنوب، (واجعل لنا منه مخرجاً) خروجاً وتخلصاً (إنك على كل شيء قدير يا الله) ثلاثاً، أي: يكررها ثلاث مرات، إظهاراً لغاية الاضطراب والالتجاء إلى العزيز الغفار (يا لطيف) قال الجيلي: هو الذي امتنع إدراكه بالأبصار، وتنزه عن المكان فلا يتحيز في الجهات والأقطار، وتعالى عن الحد فلا تعرفه العقول بالفهوم والأفكار، وهو مع ذلك أقرب إلى الأشياء من ذواتها اهـ.

وقيل اللطيف هو: الذي يسرع بكشف الغمة عند نزول النقمة، ففي الحديث: «إن لله في كل طرفة عين نظرة لطف في خلقه»[1] (يا رزاق) مبالغة في الرازق، وهو الذي يمد بفضله كل كائن بما تحفظ به مادته وصورته، فأمد الصور الروحانية كالعقل والروح برزق العلوم والمشاهدات والجسمانية بالأغذية المناسبة لها وفق الإرادة، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين من غير حجر عليه، بل بفضله وكرمه (يا قوي) هو الذي لا يضعف عن إيجاد كل ممكن، أو إعدامه (يا عزيز) هو القاهر لجميع الممكنات. قال الجيلي: العزيز هو الذي جلّت مكانته فلا يذل وبعد عن الإفهام فلا يدرك واستغنى بذاته، فلا يحتاج إلى غيره، وهذا الاسم اسم صفة، وصفته العزة، وهي عبارة عن تجلٍّ تظهر فيه الكمالات الإلهية بمقتضى الكبرياء والمجد. اهـ.

(لك مقاليد) جمع مقلاد أي بيدك مفاتيح (السموات والأرض تبسط) توسع وتعطي (الرزق) الحسي والمعنوي (لمن تشاء) تريده من عبادك امتحاناً، (وتقدر) تضيق على من تشاء ابتلاء (فابسط لنا من الرزق) بالكسر هو ما انتفع به عند أهل الحق، كما قال صاحب «الجوهرة»:

والرزق عند القوم ما به انتفع

---

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

ولما كان من الرزق ما هو سبب الرحمة، ومنه ما يكون سبباً للنقمة، طلب الشيخ المصنف أن يكون سبباً للرحمة، فقال: (ما توصلنا به) أي: بسببه (إلى رحمتك) بحيث لا نخرج به عن طريق العبودية، لكونه مصحوباً بالعناية واللطف محروساً من موارد القطيعة والمكر والاستدراج، واحترز بذلك عن البسط الموجب للطغيان، (و) ابسط لنا (من رحمتك) أراد بها هنا النعمة المحمودة العاقبة (ما تحول به بيننا وبين نقمك) جمع نقمة، بوزن سدرة، ويصح فتح أولها وكسر ثانيها، ضد النعمة، وهي ما فيه مضرة وعقوبة، وانتقام الله للعصاة عقوبته لهم، والنعمة قد تصل إلى المنعم عليه، وفي طيها نقمة، فطلب الشيخ المصنف: نعمة صافية يقوم بشكرها ولا يعصي المنعم بها، (ومن حلمك) أي: معاملتك للمسيء بالحلم الذي هو مقتضى اسمك الحليم (ما يسعنا به عفوك) صفحك، ومحوك السيئات، وتجاوزك عن العقوبات، (واختم لنا بالسعادة) بأن تميتنا على الإيمان الكامل (التي ختمت بها لأوليائك) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، والسعادة وإن كانت حقيقة واحدة، إلا أنها تختلف في المراتب والنسبة، فالأعلى سعادة الأنبياء، ثم الأولياء على مراتبهم، ثم سائر المؤمنين على مراتبهم أيضاً، فشتان ما بين من سعادته أمان من أهوال يوم القيامة جملة وتفصيلاً، وبين من سعادته أمان من الخلود في النار فقط (واجعل خير) أفعل تفضيل (أيامنا وأسعدها يوم لقائك) أي لقاء تجليك، يوم القيامة، فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، أي من تهيأ للقاء المحبوب بخلوه من الذنوب أظهره الله له منح الامتنان (وزحزحنا) أي: أبعدنا (في الدنيا عن نار الشهوة) أي: قونا عليها واجعلها علينا برداً وسلاماً، فإن نار الشهوة توقف السالكين عن تحصيل الطاعات، وتحجب العارفين عن لذيذ المشاهدات وربما أفسدت اعتقاد بعض الناس فرجعوا القهقرى والعياذ بالله تعالى فهي مانعة للفريقين كما قال بعض العارفين:

إذا طالبتك النفس يوماً بشهوة ... وكان عليها للخلاص طريق

فخالف هواها ما استطعت فإنما ... هواها عدو والخلاف صديق

(وأدخلنا بفضلك في ميادين الرحمة) جمع ميدان وهو في الأصل: مجال الخيل، والمراد بها هنا التعطفات والعطايا، وإفاضة الخير على المحتاجين، شبّه ذلك المجال بالميادين في السعة، وأطلق الميادين عليه على سبيل الاستعارة المصرحة، فمن أدخله في الدنيا ميادين الرحمة هداه، ووفقه للأعمال الصالحة، وفي الآخرة يدخله الجنة دار الرحمة لا بموجب الأعمال البدنية، لكن الأعمال دالة على الحال كما في حديث «اعمل فكل ميسر لما خلق له» فالأعمال مع سابقة الإرادة بشرى، وفي

الحقيقة دخول الجنة بالفضل والرحمة، ولا يقدر العبد على الإخلاص إلا أن تغمده الله بالفضل، كما في حديث مسلم «لن يدخل أحد بعمله الجنة» قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته».

قال الجيلي في كتابه المسمى «بالإنسان الكامل»: المراد جنة المواهب لا جنة المجازاة، فإنها بالأعمال الصالحة، قال تعالى في حق هذه الجنة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١] ولا يدخل أحد هذه الجنة إلا بالأعمال الصالحة، فمن لا عمل له لا يدخلها بخلاف جنة المواهب، إذ مواهب الله تعالى لا تتناهى، فقد يهب لمن لا عمل له أكثر ممن له أعمال كثيرة، ثم قال الشيخ المذكور: ورأيت في هذه الجنة أقواماً من كل ملة وطائفة، وكل جنس من أجناس بني آدم، لأنه تعالى تجلّى عليها باسمه الوهّاب، فلا يدخلها أحد إلا بموهبة الله تعالى، وهذه الجنة هي سر قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وهي الجنة التي قال عليه الصلاة والسلام فيها: «إنها لا يدخلها أحد بعمله» فقالوا له: ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»[١] انتهى.

(واكسنا) بالضم والكسر (من نورك) هو عند الصوفية: الظل الواقع في الصدر من المعاني التي بها الواردات، وهو مطية القلب بإيضاح الفهم إلى حضرة عالم الغيب، ومطية الأسرار ببيان العلم إلى حضرة الجبار، فمن طلع في قلبه سار على مطية فهمه، ومن أشرق في أفق سره سار بمطية علمه، وبهذا يحصل الكشف والعلم والتحقيق، وهذا مطلب الشيخ المصنف: أن يكسى من (جلابيب العصمة) أي: ألبسنا من نورك العصمة التي هي كالجلابيب في الستر والمنع عن القبائح من إضافة المشبه به للمشبه، فإذا أراد الله نصر عبده، أمده بالنور وحجبه عن المعاصي، فيقبل على الله ويدبر عن غيره، (واجعل لنا ظهيراً) معيناً بالمجاهدة على أنفسنا إذ من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائره بالمشاهدة (من عقولنا) جمع عقل وهو: لغة المنع، واصطلاحاً كما قاله الشيرازي: أنه صفة يميز بها بين الحسن والقبيح، والمعنى اجعل

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب نهي تمني المريض الموت، حديث رقم (٥٣٤٩) [ج٥ ص٢١٤٧]، ومسلم في صحيحه، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، حديث رقم (٢٨١٦) [ج٤ ص٢١٦٩]، ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الأمر بالتشديد في الأمور..، حديث رقم (٣٤٨) [ج٢ ص٦٠] ورواه غيرهم.

لنا معيناً من عقولنا يمنعنا من ارتكاب المخالفات من فضلك وإحسانك (ومهيمناً) حافظاً ورقيقاً (من أرواحنا) جمع روح وهو: جوهر نوراني علوي رباني مودع في هذا القالب الجسماني، محل الأخلاق المحمودة، والمعنى اجعل لنا كشفاً للبصائر حتى ندرك حقائق أحوالنا، فنكون عليها مشرفين ومراقبين.

تتمة: فإن قلت: فما أول وقت كان فيه تكليف الأرواح، فالجواب كما قال الشعراني في «اليواقيت» في المبحث الثلاثين نقلاً عن سيدي محيي الدين قدس الله سرهما: هي مكلفة من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] في العهد الميثاقي، فلولا أن تكليفها وفعلها موجود ذلك اليوم ما خوطبت، ولا أجابت، وعلى ما ورد في الحديث من الامتحان في الأطفال والمجانين وأصحاب الفترات على لسان رسول يوم القيامة، يرسل إليهم فيقوم بعث ذلك الرسول في ذلك اليوم مقام بعث الرسول إليهم في دار الدنيا، فمن أطاعه نجا ودخل الجنة، ومن عصاه، وخالف أمره هلك ودخل النار ليقوم العدل من الله تعالى في عباده بعد إقامة الحجة والله أعلم اهـ.

فائدة: قال العارف الشعراني قدس سره في «اليواقيت» في المبحث العشرين: اعلم يا أخي أن المعتزلة قد أنكروا هذا العهد والميثاق وزعموا أن معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أن المراد به: أخذ بعضهم من ظهور بعضهم بالتناسل في الدنيا إلى يوم القيامة، وأنه ليس هناك أخذ عهد ولا ميثاق حقيقة، وأن المراد بالعهد والميثاق هو إرسال الرسل واستكمال العقل والنظر والاستدلال، توجيه الخطاب إلى العبد، ولا يخفى ما في هذا المذهب من الخطأ والغلط، وكيف يصح للمعتزلة هذا القول، ومعظم الاعتقاد في إثبات الحشر والنشر مبني على هذه المسألة، والذي يظهر لي أنهم إنما أنكروا ذلك فراراً من غموض مسائل هذا المبحث ودقة معانيه عليهم، فرضوا بالجهل عوضاً عن العلم والحق أن الله تعالى أخذ عليهم العهد لما استخرجهم من ظهر آدم حقيقة، لأنه على كل شيء قدير، فإن قيل: ففي أي محل كان أخذ هذا العهد، فالجواب كما قاله ابن عباس: إن ذلك كان ببطن نعمان، وهو واد بجنب عرفة، وقيل سرنديب من أرض الهند، وهو الموضع الذي هبط به آدم من الجنة، وقيل: بين مكة والطائف، وقيل في الجنة، وكل هذه الاحتمالات قريبة، ولا ثمرة للتعيين بعد صحة الاعتقاد بأخذ الميثاق، فإن قيل: فما كيفية استخراجهم من ظهره، فالجواب: قد جاء في الحديث: «**إن الله تعالى مسح ظهر آدم، وأخرج ذريته كلهم منه كهيئة الذر**»، ثم اختلف الناس هل شق ظهره واستخرجهم منه، أو استخرجهم من بعض ثقوب رأسه، وكلا هذين

الوجهين بعيد، والأقرب كما قاله الشيخ أبو طاهر القزويني رحمه الله تعالى: أنه تعالى استخرجهم من مسام شعرات ظهره، إذ تحت كل شعرة ثقبة دقيقة يقال لها: سم مثل سم الخياط، وجمعه مسام، ويمكن خروج الذرة مثل هذه الثقبة كما يخرج منها العرق المنصب والصنان، وهذا غير بعيد في العقل، فيجب الاعتقاد بأنه تعالى أخرج الذرية من ظهر آدم عليه السلام كما شاء، ومعنى مسح ظهره أنه أمر بعض ملائكته بالمسح فنسب ذلك إلى نفسه، لأنه بأمره كما يقال مسح السلطان طين البلد الفلانية، وما مسحها إلا أعوانه، فإن الرب سبحانه وتعالى مقدّس عن مسح ظهر آدم على وجه المماسة، إذاً لا يصح اتصال بين الحادث والقديم، فإن قيل: كيف أجابوه بقولهم: بلى هل كانوا أحياء عقلاء أم قالوه بلسان الحال، فالجواب: الصحيح أن جوابهم كان بالنطق، وهم أحياء إذ لا يستحيل في العقل أن يؤتيهم الله الحياة والعقل والنطق مع صغرهم، فإن بحار قدرته واسعة وغاية وسعنا في كل مسألة أن نثبت الجواز، ونكل كيفيتها إلى الله تعالى، فإن قيل: إذا قال الجميع: بلى، فلمَ قبل قوماً وردّ قوماً، فالجواب كما قاله الحكيم الترمذي: أنه تعالى تجلّى للكفار بالهيبة، فقالوا: بلى مخافة، فلم يك ينفعهم إيمانهم كإيمان المنافقين، وتجلّى للمؤمنين بالرحمة، فقالوا: بلى طوعاً فنفعهم إيمانهم، وقيل: إن أصحاب اليمين قالوا: بلى حقاً فرجع صوتهم إلى جانب أهل الشمال، وهم سكوت، وكان ذلك لهم كارتداد الصوت في شعاب الجبال والكهوف الخالية الذي يسمونه الصدى، وكان هواء الأرض يومئذ خالياً من الأصوات، إذا لم يكن أحد في الأرض غير آدم، وإنما هو محاكاة للصوت الأول، ولا حقيقة له، ثم قال الشيخ أبو طاهر المذكور: والصحيح عندي أن قول أصحاب الشمال: ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] كان على وفق السؤال، وذلك أن الله تعالى سألهم عن ربهم، ولم يسألهم عن إلههم، ومعبودهم، ولم يكونوا يومئذ في زمان التكليف، وإنما كانوا في حالة التخليق والتربية، وهي الفطرة، فقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] لأن تربيتهم إذ ذاك مشاهدة فصدقوا في ذلك كلهم، ثم لما انتهوا إلى زمان التكليف وظهور ما قضى الله تعالى في سابق علمه، لكل أحد من السعادة والشقاوة، فكان منهم من وافق اعتقاده في قبول الإلهية إقراره الأول، ومنهم من خالفه، ولو أنه تعالى كان قال لهم ألست بأحدٍ وقالوا: بلى لم يصح لأحد أن يشرك به، فافهم.

فإن قيل إذا سبق لنا عهد وميثاق مثل هذا فلمَ لا نذكره اليوم؟ فالجواب إنما كنا لا نذكره، لأن تلك البينة قد انقضت وتداولت الإنسان الغير بمرور الدهور عليها في

أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، ثم زاد الله تعالى في تلك البنية أجزاء كثيرة، ثم استحالت بتصريفها في الأطوار الواردة عليها من العلقة والمضغة واللحم والعظم، وهذه كلها مما يوجب الوقوع في النسيان.

وكان علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه يقول: إني لأذكر العهد الذي عهد إليّ ربي، وأعرف من كان هناك عن يميني، ومن كان عن شمالي، قال: وإنما أخبرنا الله تعالى عن أخذ الميثاق منا تذكرة وإلزاماً للحجة علينا، فهذه فائدة الإخبار لنا لا غير.

فإن قيل: فهل كانت تلك الذرات متصورة بصورة الآدمي أم لا؟ فالجواب: لم يَرِدْ لنا في ذلك شيء إلا أن الأقرب في العقول أنها لم تكن متصورة والسمع والنطق لا يفتقران إلى الصورة، إنما يقتضيان محلاً حياً، فإذا أعطاه الله الحياة والفهم جاز أن يتعلق بالذرة السمع والنطق، وإن كانت غير مصورة بصورة، إنما البنية عندنا ليست بشرط ويحتمل أن تكون الذرات متصورة بصورة آدمي، لقوله تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولفظ الذرية يقع على المصورين، فإن قلت فمتى تعلقت الأرواح بالذرات، قبل خروجها من ظهر آدم أم بعد خروجها منه؟ فالجواب: إن الذي يظهر لنا أنه تعالى استخرجهم أحياء، لأنه سماهم ذرية، والذرية هم الأحياء لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: ٤١] فيحتمل أن الله تعالى خلق الأرواح فيهم، وهم في ظلمات ظهر أبيهم ويخلقها فيهم مرة أخرى، وهم في ظلمات بطون أمهاتهم ويخلقها مرة أخرى ثالثة فيهم، وهم في ظلمات بطون الأرض خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث هكذا جرت سنة الله تعالى، فإن قيل: فهل أعادهم إلى ظهر آدم أحياء، أم استرد أرواحهم، ثم أعادهم إليه أمواتاً، فالجواب: الذي يظهر أنه لما أعادهم إلى ظهره قبض أرواحهم بناءً على أنه لما أراد في الدنيا أن يعيدهم إلى بطن الأرض يقبض أرواحهم، ثم يعيدهم فيها، فإن قيل: أين رجعت الأرواح بعد رد الذرات إلى ظهره؟ فالجواب: إن هذه مسألة غامضة لا يتطرق إليها النظر العقلي، ولم يجيء فيها نص، فإن قيل: إن الناس يقولون: إن الذرية أخذت من ظهر آدم والله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فالجواب: هذا شيء يتعلق بالنظر وذلك أنه لم يقل من ظهر آدم، وإن أخرجوا من ظهره، لأن الله أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهر بعض على طريق ما يتناسل الأبناء من الآباء، فاستغنى به عن ذكر آدم استغناء بظهور ذريته، لأن ذريته خرجوا من ظهره، ويحتمل أن يقال: إنّه أخرج ذرية آدم بعضهم من بعض في

ظهر آدم، ثم أخرجهم جميعاً، فيصح القولان جميعاً، فإذا قال: أخرجهم من ظهورهم صحَّ، وإذا قال: أخرجهم من ظهره صحَّ أيضاً، ومثال ذلك من أودع جوهرة في صدفة، ثم أودع الصدفة في خرقة، وأودع الخرقة مع الجوهرة في حُقة وأودع الحقة في درج، وأودع الدرج في صندوق، ثم أدخل يده في الصندوق، فأخرج منه تلك الأشياء بعضها من بعض، ثم أخرج الجميع من الصندوق، فهذا لا تناقض فيه.

ثم قال الشعراني: المذكور في المبحث الثالث والستين في معنى قوله ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»، اعلم أنه لا يعرف معنى هذا الحديث حقيقة إلا من شهد من طريق كشفه أخذ الذرية من ظهر آدم، وذلك مشهد قدسي قلّ من يشهده، لأنه خاص بالأفراد كسهل بن عبد الله التستري وأبي يزيد البسطامي وأضرابهما، فكانوا يقولون: لم نزل نشهد تلامذتنا وهم نطف في الظهور من أخذ الله الميثاق على الذرية، وهم في صلب آدم، قالوا: ولم نزل نراعي تلامذتنا حتى وصلوا إلينا ونعرف ذلك اليوم من كان عن يميننا، ومن كان عن شمالنا، قالوا: ولما جمع الله تعالى الذرية في تلك الحضرة على وجه التمثيل، فما كان وجهاً لوجه هناك تعارفوا هنا وائتلفوا، وما كان وجهاً لظهر فصاحب الوجه يحب، وصاحب الظهر لا يحب وكذا الحكم فيما كان جنباً لجنب أو جنباً لوجه أو جنباً لظهر يكونون في هذه الدار بحكم ما كانوا هناك والله أعلم اهـ.

ولنرجع لما نحن فيه فنقول: قال الأستاذ المصنف: (ومسخرا) بكسر الخاء المشددة مطيعاً (من أنفسنا) جمع نفس، وهي ظلمانية سفلية شيطانية محل الأخلاق المذمومة والقلب يتقلب بينها وبين الروح، فالروح طيبة شأنها الموافقة، والنفس خبيثة شأنها المخالفة، فالقلب إن مال إلى الروح اتصف بصفتها، وانقهرت النفس معهما، أو إلى النفس فالعكس، وتكون جملة الإنسان مسخراً بعضها ببعض والجميع إنسان واحد. ولعل المصنف يرى الفرق بينهم كالقشيري، وأكثر العلماء يقولون: النفس والروح بل والعقل والقلب شيء واحد، ولكن يختلف بالاعتبار، فإن مالت إلى الذم كانت نفساً، وإن مالت للكمال كانت روحاً، وعقلاً وقلباً، وهذا المطلب طلبه الشيخ المصنف إشارة إلى مقام المجاهدة بالطاعة التي من جملتها، الذكر فلذا قال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ﴾ [طه: ٣٣] تسبيحاً ﴿كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ﴾ [طه: ٣٣، ٣٤] نصفك بصفات الجلال والجمال والكمال بألسنتنا وقلوبنا ﴿كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٤] ﴿إِنَّكَ كُنتَ﴾ [طه: ٣٥] ولم تزل لأنّ كان في حقه تعالى للدوام ﴿بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٥] مشاهداً لظواهرنا وبواطننا بدون جارحة، وهذا مقام المراقبة عند الصوفية، ومعناها علم القلب باطلاع الرّب، ومن عرف أن الله مطلع عليه وعلى جميع أحواله استحى منه أن يراه في غير ما أمره به،

ولما أشار الشيخ المصنف إلى مقام المراقبة نص على طلب المشاهدة إتماماً لمقام الإحسان، فقال: (وهب لنا مشاهدة) لجمالك برفع الحجاب عنا، (تصحبها مكالمة) (وافتح أسماعنا وأبصارنا(لمشاهدة هي رؤية الحق بالحق، بأن يشهدك تجلياته في سائر مخلوقاته، بأن يلهم عيون الأرواح المشاهدة مصحوبة بالمكالمة التي هي خطاب يرد على القلب والروح من عالم الملك والشهادة، وتارة تكون من طريق الخواطر، لأن الأرواح مجردة، فأكرمها الله بالبقاء لتعاين سناء الحضرة العلية، وهي مخلوقة من أمر الله تعالى فيجوز أن تشاهد بعيونها نور التوحيد، فتجذب القلوب إلى مشاهدة الحضرة العلية فتختلي بالمحبوب، فتقع المحادثة اللائقة بكماله تعالى مع الأرواح إذ هي المخاطبة في عالم المثال، ولذا قال ابن الفارض:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سر أرق من النسيم إذا سرى

أي: أمر خفي عن العقول والألباب، وهو التحقق بحقيقة وجود الحق ذوقاً وكشفاً ومعاينة، قال النابلسي قوله: أرق من النسيم، كناية عن الرّوح المنبعث من أمر الله تعالى، والسر الذي هو أرق منه وألطف، و سر وجود الحق الذي من شدة لطافته لا يدرك، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] اهـ.

فقد اتضح لك أن المشاهدة والمكالمة للروح أولاً ثم تسري للقلب، فلا يشتغل بغيره تعالى: ومتى وصل العبد إلى هذه الحالة استغنى عن الأسباب، وإذا طلع الصباح استغنى عن المصباح، وقد أشار بعض العارفين بقوله:

فلما استنار الصبح أدرج ضوءه ... بأنواره أنوار ضوء الكواكب
يجرعهم كأساً لو ابتليت لظى ... بتجريعه طارت كأسرع ذاهب

وهذا مقام المحو للبشرية، وقوله: وافتح أسماعنا لتسمع ما يلقي إليها من المحادثات، وقوله: أبصارنا لنشاهد بها ما يورد علينا من التجليات، قال الشيخ الأكبر في لواقح الأنوار: «إنما كانت الروح من أمر الله تعالى لأنها وُجِدَت عن خطاب الله تعالى من غير واسطة، فقال لها: كوني فكانت».

فإن قلت: إنما قال الشيخ المصنف: أسماعنا، ولم يقل سمعنا فالجواب: إن من أشهده هذه التجليات، كان يسمع الخطاب بجميع بدنه، بأن يخلق الله في جميع الأعضاء قوة السّمع، كما وقع سماع موسى الخطاب من جميع الجهات، فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أوحى الله إلى موسى عليه السلام أني قد جعلت فيك عشرة آلاف سمع حتى سمعت كلامي وعشرة آلاف لسان حتى أجبتني.

ولذا قال ابن الفارض قدس سره:

فإن حدّثوا عنها فكلي مسامع وكلي إن حدثتهم ألسن تتلو

أي: فجميع جوارحي مسامع وكل عضو فيَّ سامع.

(واذكرنا إذا غفلنا عنك) بفتح الفاء، أي: تركنا ذكرك، وذكر الله لعبده كناية عن إيصال النعم إليه، أو الحفظ، أو الثناء عليه، فقد ورد أن الله تعالى يباهي ملائكته بعباده الصالحين (بأحسن مما تذكرنا به إذا ذكرناك) أشار الشيخ المصنف رحمه الله تعالى: إلى مقام أهل العرفان من عباد الرحمٰن، الذين أشرقت أنوار ذواتهم بشمس الأحدية على صدورهم، فمنهم أهل بدر الوارد فيهم قوله ﷺ: «لعلَّ الله أو ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»[١].

والذكر أنواعه كثيرة، وكلها توجب التفكير وتجلب الأسرار والأنوار وتحضر الغائب وتغيب الحاضر، فأول ما يكون باللسان، ثم بالجنان، ثم بالسر، ثم بالجملة، والأركان، ثم ترتقي من عالم شهادتك إلى عالم غيبك، فترى الكل ذاكراً بذكرك فيذكر معك عالم الملك، ثم عالم الملكوت، ثم عالم فعالم حتى الأماكن، والأزمان، فمتى كان الذاكر ذاكراً لذكره في ذكره فهو مع ذكره، فإذا استغرق عن ذكره، فهو مع مذكوره لا مع ذكره، فإن من كان ذكره بالمذكور، كان مع المذكور، والمعية تقتضي الأثنينية، وهي حجاب عند المحبين لله تعالى والحجاب رحمة على المحجوب، وعند رفع الحجاب يفنى الحجاب والمحجوب، فهناك يفنى الذاكر، ويبقى المذكور، فلا ذاكر له سواه تعالى، وهذا قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢]، إذ الوجود لي، ولا وجود لكم، وهذا مقام ترك الذكر، إذ الذاكر هو الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العَنكبوت: ٤٥] إذ لا ذكر للعبد، لأنه لا وجود له، وقال سيدي محمد الغمري رحمه الله تعالى:

الذكر ترك الذكر عند فنا الفنا من دهشة فيها الموحد حائر

أي: فإن الذكر يكون من عدم الشهود عند المحققين، فقد ورد من ذكر لم يشهد، ومن شهد لم يذكر، أي: من كان له وجود يذكرني به، فهو محجوب، والمحجوب لا يشهد، ومن شهد الوجود لي، ولا وجود لغيري علم أني أنا الذاكر والمذكور والذكر، فلم يذكر.

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

وبهذا يتضح قول سيدي محيي الدين رحمه الله تعالى:

بذكر الله تزداد الذنوب وتنعكس البصائر والقلوب
بذكر الله تبتهج القلوب وتتضح السرائر والعيوب
وترك الذكر أفضل كل شيء فشمس الذات ليس لها غروب

يعني: أن الذكر يستدعي ذاكراً ومذكوراً، والذاكر إذا كان غير المذكور كان له وجود مستقل في دعواه حتى ذكر ربه، ودعوى الوجود ذنب لا يقاس به ذنب عند العارفين، فالتوحيد الخالص توحيد الحق نفسه بنفسه، وفي هذا المقام يجمع بين الذكر والشهود، وتكمل للكامل مطالع السعود، فصاحب اليقظة كل أوقاته ذكر، فلا يتحرك حركة إلا بذكر، والذكر على ما مرَّ إما حالي، أو مقالي، والذكر اللساني إذا تمكن من القلب نوّره، وربما صال على عقله وروحه فيسكره فيترقى إلى المقامات المتقدمة، وإذا تمكن الذكر الحالي من الذكر بقلبه أشهده حتى أنه لو تغافل ما استطاع، لم ينقطع شهوده، لأن المحب السائر في طريق الله لا ينقطع شهوده، ولا يغفل عن حبيبه، في حالتي قربه وبُعده كما قيل:

كيف تبقى للعاشقين قلوب وهي من جمرة الغرام تذوب
كيف ينسى المحب ذكر حبيب واسمه في فؤاده مكتوب

ولذا حكي عن ابن الخياط الدمشقي: أنه وقع على باب محبوبه ليلاً سكراناً فجاء له المحبوب وفي يده شمعة، فرأى رجلاً واقعاً على بابه مطروحاً على أعتابه، فأراد الحبيب أن يعرف من الواقع، فوقف على رأسه فسقط من الشمعة نقطة على وجه ابن الخياط، فأفاق من حرارة النقطة وفتح عينيه، فرأى الحبيب واقفاً على رأسه مستخبراً حقيقة حاله بضياء نيرانه فأنشد وقال:

يا محرقاً بالنار وجه محبه مهلاً فإن مدامعي تطفيه
أحرق بها جسدي وكل جوارحي واحرص على قلبي فإنك فيه

أي لأن المحبوب حاضر لديه ومتجل في فؤاده اهـ.

قال القطب الشيخ المصنف: حقيقة الذكر الانقطاع عن الذكر إلى المذكور، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [المُزمّل: ٨] وهو حقيقة ما يُنتهى إليه في السلوك والله خير وأبقى اهـ.

قال بعض العارفين: وإذا قوي الذكر القلبي ربما تضرر صاحبه من الذكر اللساني لغلبة تجلي الحق على قلبه، فلا يذكر به إلا في نحو الصلاة، وهذا نتيجة الإكثار من الذكر اللساني، وهو لا بد منه عند الصوفية في البداية، وبعد تمكنه من القلب يصير رخصة، وعلامة تمكنه من القلب أن يجري على لسانه الذكر حال غفلته من غير قصد.

(وارحمنا إذا عصيناك) خالفناك (بأتمّ مما) أكمل مِنَ الذي (ترحمنا به) بسببه (إذا أطعناك) لنشهد بذلك الفضل منك بلا علة، وهذا من تمام المقام الذي قبله لأن محاسن العباد مساوىء وحقائقهم دعاوى فلذا كان الشيخ المصنف رحمه الله تعالى يقول: ما سألت الله شيئاً إلا قدمت إساءتي بين يديَّ لأن فضله تعالى لا يتوقف على شيء بل مجرد منّة ومنحة إلهية لا يعقبها منع ولا سلب، لأنها ليست من طريق الجزاء.

(واغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها) في حال حياتنا (وما تأخر) منها بعد موتنا أي: اغفر لنا جميع الذنوب من المبدأ والمنتهى بفضلك وكرمك (والطف بنا) قال في جمع الجوامع: اللطف ما يقع به صلاح العبد اهـ.

يعني إذا همّ بمعصية يحصل له اللطف، فيوقع بدلها طاعة، وقال المصنف رحمه الله تعالى: اللطف حجاب عن اللطيف أي السكون إليه والإقامة عنده، ولهذا قال (لطفاً) أي: عصمة ورفقاً (يحجبنا) يمنعنا (عن) شهود (غيرك) سواك، (ولا يحجبنا عنك، فإنك بكل شيء عليم) عالم بأحوالنا، (اللهم إنا نسألك لساناً رطباً) بالفتح ضد اليبس، والمراد هنا عدم الغفلة، فإن القلب إذا غفل يبس لسانه، وخرج عن كونه رطباً، قال أبو الدرداء: إن الذين ألسنتهم رطبة بذكر الله يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك (بذكرك) وهو ترديد اسم المذكور باللسان أو القلب، وسواء في ذلك ذكر الله أو صفة من صفاته أو حكم من أحكامه، أو استدلال على فعل من أفعاله، فالداعي والقارىء والمستمع والمتفقه والمدرس والمتفكر في عظمة الله تعالى ذاكر من غير شيء يقصده ويطلبه منه تعالى، بل تكون طاعته خالصة لوجهه تعالى (و) نسألك (قلباً) يرى كل نعمة أنها منك، فيكون (منعماً بشكرك) وحقيقة الشكر، كما قاله سيدي عبد القادر الجيلاني: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ومشاهدة المنّة، وحفظ الحرمة على وجه معرفة العجز عن الشكر، ويعتقد مع ذلك أنه لم يأتِ بحقيقة الشكر اهـ.

(وبدناً هيناً ليناً) أي: جسداً متحركاً ومنقاداً (لطاعتك) بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، والطاعة لها أنوار ولو كان فاعلها فاسقاً، ولذا قال العارف المصنف: لو ظهر نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، فكيف بنور المؤمن الطائع، وقال أيضاً في «وصية للمريدين» إذا تفرغ لسانك بالذكر، وقلبك بالشكر، وبدنك بمتابعة الأوامر، فأنت إذاً من الصالحين، فلذا طلب جزاء الصالحين الأخروي كما في الحديث القدسي وهو: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[1] وهؤلاء عبيد المنعم، لا عبيد النعمة، وهم قليلون، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] وهم مع الخلق بإيمانهم ومع الحق بقلوبهم لا يفترون عن مشاهدته طرفة عين بقوله: (واعطنا) بقطع الهمزة من أعطاه إذا ناوله، ومنحه (مع ذلك) أي الذي سألتكه في أول المطلب في الدنيا أعطنا جزاءه في الآخرة، (ما لا عين) فاعل، فعل مضمر يفسره (رأت ولا أذن) بضم الذال وسكونها (سمعت) بحذف الرابط (ولا خطر) يقال خطر ببالي، وعلى بالي كذا يخطر خطوراً إذا وقع في وهمك (على قلب بشر) أي: إنسان وسمي بذلك لظهور بشرته وهي الجلد.

قال الشيخ الأكبر في «الفتوحات»: الذين يعطيهم الله في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، هم أهل التوحيد في الأفعال الذين يشهدون أعمالهم خلقاً لله تعالى، لا لهم حال مباشرة الأعمال، فيفعلونها امتثالاً لأمره تعالى من غير أن يعينوا لها في أنفسهم جزاء، فكان جزاؤهم غير محدود، وذلك لأن عيونهم لم ترَ أعمالهم لهم وآذانهم لم تسمع به ولم تخطر أعمالهم على قلب بشر من غيرهم ولأنهم لتجردهم عنها لله وحده ما عدا نسبة التكليف بها اهـ.

(كما) أي مثل الذي (أخبر به) أي بذلك الفضل العظيم في الحديث المتقدم، (رسولك ﷺ حسب ما) بالتحريك، أي على طبق الذي (علمته بعلمك) الأزلي، وفي ذلك من الأدب ما لا يخفى يعني سؤالي لك ليس افتياتاً عليك، فلا أسألك تبديل ما علمت، وإنما أسألك لكي يكون سؤالي سبباً لتبليغ ما طلبته منك مما هو معلوم لك إعطائي إياه، وما وفقتني للطلب، إلا لتعطيني ما طلبته منك (واغننا) بقطع الهمزة

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب ما جاء في صفة الجنة..، حديث رقم (٣٠٧٢) [ج٣ ص١١٨٥]، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة..، حديث رقم (٢٨٢٤) [ج٤ ص٢١٧٤] ورواه غيرهما.

(بلا) أي من غير (سبب) أي أسباب عادية، وهي التي يراها العبد واسطة ويقف عندها إذ الوقوف معها غفلة عن الله تعالى، وأمّا إذا حصل الغنى من غير التفات للأسباب، فهذا هو المطلوب.

وكان أبو العباس المرسي خليفة القطب المصنف رحمهما الله يقول: للناس أسباب وأسبابنا التقوى، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] اهـ.

وقال الإمام علي رضي الله تعالى عنه وكرم الله وجهه: من أراد الغنى بغير مال والعز بغير عشيرة فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة اهـ.

(واجعلنا سبب الغنى لأوليائك) يحتمل أن يراد بهم: أهل الولاية العامة، وهم المؤمنون الموعودون بالنصر والهداية، ويحتمل أن يراد بهم أهل الولاية الخاصة، أو هما معاً، ويكون الشيخ المصنف طلب الخلافة القطبية، فإن القطب هو الممد لأولياء زمانه، ومن فيض أنواره تستمد جميع الأنوار، فإن مقام القطبية أعلى درجات الأولياء بعد الصحابة رضي الله تعالى عنهم، لأنه لا يتمكن في القطبية، كما قاله الشعراني في «اليواقيت» في المبحث الخامس والأربعين نقلاً عن الشيخ الأكبر: إلا بعد أن يُحَصِّلَ معاني الحروف التي في أوائل السّور المقطعة، مثل: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البَقَرَة: ١] و﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ [الأعرَاف: ١] ونحوهما، فإذا أوقفه الله تعالى على حقائقها ومعانيها تعينت له الخلافة، فإن قلت: فما علامة القطب، فإن جماعة في عصرنا قد ادعوا القطبية، وليس معنا علم يرد دعواهم، فالجواب كما قاله الشيخ الأكبر، إن اسم القطب في كل زمان عبد الله وعبد الجامع المنعوت بالتخلق والمتحقق بجميع الأسماء الإلهية بحكم الخلافة، وهو مرآة الحق تعالى، ومجلى النعوت المقدسة، ومحل المظاهر الإلهية، ومن شأنه أن يكون الغالب عليه الخفاء، لأنه محفوظ في خزائن الغيرة ملتحف بأردية الصّون لا يعتريه شبهة في دينه قط، ولا يخطر له خاطر يناقض مقامه، يغار لله، ويغضب لله تعالى لا تظهر روحانيته إلا من خلف حجاب الشهادة والغيب، حاله دائمة العبودية والافتقار له تعالى، ولا يكون له رياسة على أحد من الخلق بوجه من الوجوه مصاحب لهذا الحال دائماً، إن كان صاحب دنيا وثروة تصرف فيها تصرف عبد في مال سيد كريم، وإن لم يكن بيده دنيا، وكان على ما يفتح الله تعالى به لم تستشرف له نفس بل يقصد بنفسه عند الحاجة ببيت صديق ممن يعرفه يعرض عليه ما تحتاج إليه طبيعته كالشافع لها عنده، فيتناول لها منه قدر ما تحتاج إليه ثم ينصرف، لا يجلس عند حاجته إلا لضرورة، فإن لم يجد حاجته لجأ إلى الله تعالى في حاجة

صبعته لأنه مسؤول عنها، ومتول عليها، ثم ينتظر الإجابة من الله فيما سأل، فإن شاء الله تعالى أعطاه ما سأل عاجلاً أو آجلاً، فمرتبته الإلحاح في الدعاء والشفاعة في حق طبعته بخلاف أصحاب الأحوال، فإن الأشياء كلها تتكون عن همتهم، لأن الله تعالى عجل لهم نصيباً من أحوالهم في الجنة، فهم ربانيون والطب منزّه عن الحال ثابت في العلم، فإن أطلعه الله على ما يكون أخبر بذلك على وجه الافتقار لا على وجه الافتخار، لا تطوى له أرض و يمشي في هواء، ولا على ماء، ولا يأكل من غير سبب ولا يطرأ عليه شيء من خرق العوائد إلا في النادر لأمر يراه الحق تعالى، فيفعله بإذن الله تعالى من غير أن يكون ذلك مطلوباً له، وكذلك من شأنه أن يجوع اضطراراً لا اختياراً، كثير النكاح راغب فيه موفي الطبيعة حقها على الوجه المشروع، ومع ذلك يصبر على النكاح لعدم الطول، يعلم من تجلي النكاح ما يحرضه على طلبه والتعشق به، لا يتحقق قط في العبودية في شيء أكثر مما يتحقق به في النكاح، لا يرغب فيه للنسل، وإنما يرغب فيه لمجرّد الشهوة وإحضار التناسل في نفسه لأمر مشروع، فنكاحه لمجرد اللذّة كنكاح أهل الجنة، وقد غاب عن هذه الحقيقة أكثر العارفين لما فيه من شهود الضعف، وقهر اللذة المغيبة له عن إحساسه، فهو قهر لذيذ، وذلك من خصائص الأنبياء ولعلو مراقي هذا المقام جهله أكثر الأولياء وجعلوا النكاح شهوة حيوانية، ونزّهوا أنفسهم عن الإكثار منها.

وبالجملة فالقطب هو الرجل الكامل الذي حصّل الأربعة دنانير، كل من دينار منها خمسة وعشرون قيراطاً، وبها توزن الرجال والأربعة هم الرسل والأنبياء والأولياء والمؤمنون، فهو ورائهم كلهم رضي الله تعالى عنه، ومن شأن القطب الوقوف دائماً خلف الحجاب الذي بينه وبين الحق تعالى، فلا يرتفع حجابه حتى يموت، فإذا مات لقي الله عزّ وجل، فهو كالحاجب الذي ينفذ أوامر الملك وليس له من الله تعالى إلا صفة الخطاب لا الشهود، فإن قلت فهل يحتاج القطب في توليته إلى مبايعة في دولة الباطن. كما هي الخلافة في الظاهر؟ فالجواب: نعم، كما قاله الشيخ الأكبر المذكور في «الفتوحات» وعبارته: اعلم أن الحق تعالى لا يولي عبداً قط مرتبة القطبانية إلا وينصب له سريراً في حضرة المثال يقعده عليه تنبيء صورة ذلك المكان عن صورة المكانة، كما تنبيء صورة الاستواء على العرش عن صورة إحاطته تعالى علماً بكل شيء ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] فإذا نصب له ذلك السرير، فلا بد أن يخلع عليه جميع الأسماء التي يطلبها العالم وتطلبه فيظهر بها حللاً وزينة، فإذا قعد على السرير قعد بصورة الخلافة، وأمر الله العالم ببيعته على السمع والطاعة، ودخل في

البيعة كل مأمور من أدنى وأعلى إلا العالون من الملائكة وهم المهيمون في جلال الله عزّ وجل العابدون لله تعالى بالذات لا بأمر إلهي ظاهر على لسان رسول، واعلم أن أول من يدخل عليه الملأ الأعلى على مراتبهم الأول فالأول فيأخذون بيده على السمع والطاعة، وأول من يبايعه النبي ﷺ، ثم المقدمون من عمار السموات والأرض من الملائكة المسخرة، ثم الأرواح المدبرة للهياكل التي فارقت أجسامها بالموت، ثم الجن، ثم سائر ما سبّح الله تعالى إلا العالون من الملائكة، كما مرّ وكذلك الأفراد من البشر لا يدخلون تحت دائرة القطب وما له فيهم تصرف إذ هم كمل مثله مؤهلون لما ناله هذا الشخص من القطبية لكن لما كان الأمر يقتضي أن لا يكون في الزمان إلا واحد يقوم بهذا الأمر تعين ذلك الواحد، لكن لا بالأولوية، وإنما هو بسبق العلم فيه، بأن يكون هو الوالي، وفي الأفراد من يكون أكبر منه في العلم بالله تعالى وحده.

ثم اعلم أنه لما كان نصب الإمام واجباً لإقامة الدين، وجب أن يكون واحداً لئلا يقع التنازع والتضاد والإفساد، فحكم هذا الإمام في الوجود حكم القطب، قال: وقد يكون من ظهر من الأئمة بالسيف أيضاً قطب الوقت كأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما في وقتهما، وقد لا يكون قطب الوقت، فتكون الخلافة لقطب الوقت، لا يكون إلا بصفة العدل، ويكون هذا الخليفة الظاهر من جملة نواب القطب في الباطن، من حيث لا يشعر، فإن الجور والعدل يقع من أئمة الظاهر ولا يكون القطب إلا عادلاً، واعلم أن القطبية كما أنها قد تكون لولاة الأمور كذلك قد تكون في الأئمة المجتهدين من الأربعة وغيرهم، بل هي فيهم أظهر، ويكون تظاهرهم بالاشتغال بالعلم الكسبي حجاباً عليهم لكون القطب شأنه الخفاء كما تقدم رضي الله عنهم أجمعين. ثم قال الشيخ الأكبر المذكور: وقد اجتمعت بالخضر عليه السلام وسألته عن مقام الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، فقال: كان من الأوتاد الأربعة، ثم سألته عن مقام الإمام أحمد، فقال: هو صديق، فإن قيل هل يكون محل إقامة القطب بمكة دائماً كما هو مشهور؟ فالجواب: هو بجسمه حيث شاء الله تعالى لا يتقيد بالمكث في مكان، ومن شأنه الخفاء كما مر فتارة يكون حداداً، وتارة يكون تاجراً، وتارة يبيع الفول، ونحو ذلك.

ثم اعلم أن لكل بلد أو إقليم قطباً غير الغوث يحفظ الله تعالى تلك الجهة به سواء كان أهلها مؤمنين أو كفار، ثم قال: وقد اجتمعت بقطب الزمان سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بمدينة فاس، وكان أشل اليد، فتكلمت على مقام القطبية في مجلس كان فيه، فأشار إليّ أن أستره عن الحاضرين ففعلت، فإن قلت فهل للقطبية

مدة معينة إذ وليها صاحبها لا يعزل منها حتى تنقضي، فالجواب: ليس للقطبية مدة معينة، فقد يمكث سنة، أو أكثر وأقل إلى يوم أو ساعة، فإنها مقام ثقيل لتحمل صاحبها أعباء الممالك الأرضية كلها ملوكها ورعاياها، فإن قلت: فهل للقطبية تصريف في أن يعطي القطبية لمن شاء من أصحابه، أو أولاده، فالجواب: ليس له تصريف في ذلك، وقد بلغنا أن بعض الأقطاب سأل الله تعالى أن تكون القطبية من بعده لولده، فإذا بالهاتف يقول له ذلك لا يكون إلا في الإرث الظاهر، وأما الإرث الباطن، فذلك إلى الله وحده، والله أعلم حيث يجعل رسالته. ملخصاً باختصار وتصريف اهـ.

واجعلنا (برزخاً) حاجزاً ومانعاً (بينهم) أي: بين الأولياء (وبين أعدائك) وهم بالنسبة للسائرين النفس والشيطان والهوى والدنيا، إذ هم القاطعون عن الوصول إلى المأمول، وبالنسبة لسائر المؤمنين الكافرين، لأن الأولياء بهمتهم وشفاعتهم يمنعون الكفار عن المؤمنين، وقد قيل: إن لله رجالاً إذا نظروا للمرء ألبسوه سعادة، وقد أشار المرسي لنفسه وشهد له شيخه بذلك، كما هو مبسوط في لطائف المنن، وقال سيدي عبد القادر الجيلاني أفاض الله علينا مدده الرحماني:

أنا من رجال لا يخالف جليسه ريب الزمان ولا يرى ما يرهب

اللهم امنحنا ذلك وأهّلنا لما هنالك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] ثم أخذ الشيخ المصنف يذكر خاتمة دعاء الفرج الذي رواه جعفر الصّادق عن أسلافه مرفوعاً بقوله: (اللهم إنا نسألك إيماناً دائماً) يدوم لنا شمسه فلا ينكسف حتى يكون صدرنا مستنيراً بنور اليقين في كل أمورنا إذ الإيمان يرجع إلى نور يلقيه الله تعالى في قلب العبد يعبر عنه بالإذعان والسكينة ودوامه أنْ لا يتخلله غفلة عن ذكره تعالى حتى يختم له بذلك فيلقى ربه بإيمانه، ويؤخذ من ذلك أن المؤمن قد يسلب الإيمان منه نعوذ بالله من ذلك كما أن الولي قد يسلب الولاية ومحله إذا لم يتمكن منه الإيمان، أما إذا تمكن منه بالتصديق والإذعان لا يسلب إيمانه بإشارة قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، قال العلامة الصاوي رحمه الله تعالى في حاشيته على التفسير: إن موت المؤمن على الكفر أندر من الكبريت الأحمر.

(ونسألك قلباً خاشعاً) أي: من خشية الله تعالى ومن حبه، فإن المحب يخشع عند تجلي المحبوب على قلبه، ومتى خشع قلبه امتلأ بالأنوار وخشعت جوارحه،

(ونسألك علماً نافعاً) العلم النافع، هو الذي يبسط في الصدر شعاعه فيظهر له كل شيء على حكمه، لأنه إذا أشرق صدره بالنور عرف القبيح والحسن، فيأتي الحسن ويجتنب القبيح، وأما العلم الحاصل باللسان والتعلم، فإن عمل به نجا، وإلا فلا إذ هو محل للشهوة النفسانية كالرياء وحب الشهوة، ونحو ذلك، فإن ذلك محبط ومضيع للعمل.

فائدة: قال الشيخ الأكبر: اعلم أن المصلي أو المدرس أو نحوهما من عمال الطاعة إذا أضمر في نفسه أن يصلي مثلاً رياءً وسمعة وكان قد أخلص في أول شروعه في الطاعة، فلا يبالي، فإن الأصل صحيح فلا يبطل عمله، فإن ذلك الخاطر من الشيطان، فإن غرضه أن يترك العبد العمل الذي شرع فيه على صحة ليخالف قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محَمَّد: ٣٣] بسبب تلك الشبهة التي يلقيها إلى قلب العبد (ونسألك يقيناً صادقاً) قال في المصباح اليقين: هو العلم الحاصل عن نظر واستدلال، ولا يقبل الاحتمال، وعين اليقين ما حصل عن مشاهدة وعيان وحق اليقين ما حصل عن العيان.

قال سبط ابن الفارض قدس سرهما:

تنقل إلى حق اليقين تنزهاً عن النقل والعقل الذي هو قاطع

يعني تنقل من علم اليقين الذي هو للعوام إلى عين اليقين مرتبة الخواص، إلى حق اليقين مرتبة خواص الخواص، فإن اليقين ما نزلت به الكتب، وجاءت به الرسل من الشرائع والأديان، والأخبار الصادقة، فالعوام يعلمون فقط، والخواص يعاينونه بالكشف عنه فقط، وخواص الخواص يتحققون به في ذواتهم أنه حق مضاف إلى اليقين، وقوله عن النقل: أي عن نقل اليقين المذكور، وقوله والعقل، فإنهم أخذوا علومهم الشرعية من نظر عقولهم في شرائعهم، وإن كان ذلك مقبولاً منهم قطعاً، فإنه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] أي: طاقتها، وقوله الذي هو قاطع صفة للعقل، فإن الناظر بعقله قائم بنفسه، والقائم بنفسه قاطع حبل اتصاله بقدرة ربه وإرادته لاستيلاء الغفلة على قلبه، واستيلاء الغفلة على قلبه لاشتغاله بزخارف الدنيا وزينتها اهـ. قاله النابلسي: أي لأن مشاهدة حق اليقين لا تقع إلا إذا كان العبد في مقام الفناء، وما دام العقل حاكماً لا يصل لهذا المقام، وإيضاح ذلك أن يقال: إن لله بيتاً بمكة ثابت بالأدلة القطعية يجب على القادر السعي إليه والطواف به فهذا هو علم اليقين الثابت بالأدلة، فإذا شاهده وعاينه ببصره، فهذا هو عين اليقين، فإذا أشهده الله

وحققه به بحيث يشاهد نسبته إلى الله تعالى فهذا هو حق اليقين. (ونسألك ديناً قيماً) هذا أعم من كل فرد من الأفراد التي ذكرها لاشتماله على تلك الأفراد، لأن الدين القيم هو السير في الشريعة على الاستقامة والإخلاص، ولا يلتفت إلى سواه تعالى، ولا يتم ذلك إلا بصحبة شيخ عارف، أو أخ صالح يدله على ما يصلح به حاله (ونسألك العافية من كل بلية) سأل الشيخ المصنف العافية، وأكثر من طلبها لقوله ﷺ: «إذا سألتم فاسألوا الله العافية»[1] ولما في السؤال من إظهار الضعف والافتقار والتبري من الحول والقوة، والعافية هي وقاية الله تعالى للعبد من المكاره؛ إما في البدن بحفظه من الآلام والأسقام، وإما في الأسرار بحفظها من الشرك، وإما في الدين بحفظه عن الوقوع في المخالفات، ولا يكله لنفسه وشيطانه وهواه.

(ونسألك تمام العافية) باليقين الموجب للرضا والتسليم فهذه تمام العافية (ونسألك دوام العافية) أي: نسألك الدوام بعد التمام، لأنه قد يعرض له السلب والعياذ بالله تعالى ولما كان الشكر موجباً للزيادة، وبه تزيد النعمة كما في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، قال: (ونسألك الشكر على العافية) ولما كان مبنى طريق الشيخ المصنف العبودية والخروج عن رق الأغيار إلى الحرية، لأن من لم ينقطع طمعه عن الخلق فهو على خطر عظيم، طلب الغنى عن الناس بقوله (ونسألك الغنى عن الناس) ثلاثاً، أي: يكرر التالي: اللهم إنا نسألك إيماناً دائماً إلى هنا ثلاث مرات كما هو عادة الدعاء والسنة كما تقدم، وروى الترمذي في نوادر الأصول بسنده مرفوعاً: أن جبريل عليه السلام بينما هو عند الرسول ﷺ إذ أقبل أبو ذر فنظر إليه، وقال: هو أبو ذر فقال ﷺ: «يا أمين الله وتعلمون أنتم أبا ذر» فقال: نعم، والذي بعثك بالحق إن أبا ذر أعرف في السماء منه في أهل الأرض، وإنما ذلك لدعاء يدعو به كل يوم مرتين تعجبت منه الملائكة فادع به فاسأله عن دعائه؟ فسأله قال: نعم فداك أبي وأمي ما سمعته من بشر، وإنما هو عشرة أحرف ألهمني ربي إليها إلهاماً، وأنا أدعو به كل يوم مرتين أستقبل القبلة فأسبّح الله مائة وأحمده مائة وأكبّره مائة، ثم أدعو بتلك العشر كلمات: «اللهم إنا نسألك إيماناً دائماً إلى الغنى عن الناس» فقال جبريل: يا محمد والذي بعثك بالحق لا يدعو أحد من أمتك بهذا الدعاء إلا غفرت ذنوبه وإن

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل..، حديث رقم (٢٨٠٤) [ج٣ ص١٠٨٣]، ومسلم في صحيحه، باب كراهة تمني لقاء العدو..، حديث رقم (١٧٤٢) [ج٣ ص١٣٦٢] ورواه غيرهما.

كانت أكثر من زبد البحر وعدد تراب الأرض، ولا يلقى أحد من أمتك وفي قلبه هذا الدعاء إلا اشتاقت الجنان إليه، واستغفر له الملكان، وفتحت له أبواب الجنة، وتناديه الملائكة، يا ولي الله ادخل من أي باب شئت: (اللهم إنا نسألك التوبة الكاملة) هي توبة الصديقين، فأل للعهد الذهني، وهي حفظ الربوبية، وقيام بالعبودية لا رغبة في ثواب ولا خوفاً من العقاب، فلا يتعلق بغير محبوبه من الأغيار، إذ التعلق بالأغيار من أشد الذنوب، والصادق المشتاق لم يكن له حاجة إلا الحبيب الخلاق، قد طرح الأكوان فابتهج بالحقائق والعرفان، كما أشار له من حاز الكمال مخاطب ذا الجلال، فقال:

أنت للقلب غذاء — أنت للروح دواء
أنت للعقل ضياء — أنت للنفس شفاء
مدد الرحمٰن دافِقٌ — يمنى كل الحقائق
أيها الصادق سابق — وأجب جاء النداء
قال ربي قل لعبدي — كل ما يرضيك عندي
فتوجه لي وحدي — وأنا شأني الوفاء
أنا أكفي من يكن لي — أنا أغنيه بفضلي
أنا أكفيه بطولي — حين يغشاه العناء
أنا في حضرة قربي — طالع في قلب حزبي
فليعش مبتهجاً بي — فله تم البقاء

وأما توبة العوام فهي من خوف العقوبة من الذنوب، وتوبة الخواص، رجاء الثواب فشتان ما بين تائب من الزلات، وتائب من الغفلات، وتائب من رؤية الحسنات، وانظر إلى استغفار سيد الأخيار من الغين الذي كان يرد على قلبه ﷺ من الأنوار، الحديث وارد في ذلك، وهو قوله ﷺ: **«إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله تعالى في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة»**[1]، والمراد من ذلك أنه دائم الترقي ﷺ فكان يستغفر الله عن كل مقام ترقى عنه، فإن قلت: فما المراد بقوله

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب استغفار النبي ﷺ...، حديث رقم (٥٩٤٨) [ج٥ ص٢٣٢٤]، ومسلم في صحيحه، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، حديث رقم (٢٧٠٢) ورواه غيرهما.

تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فالجواب كما قاله سيدي محيي الدين ابن العربي الحاتمي: أن المراد بهذا الخطاب وجميع العتاب الذي عاتب الله تعالى عليه نبيه ﷺ؛ غيره من الأمة نحو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] فكان من فتوته ﷺ أنه تحمل عن أمته صولة الخطاب بالعتاب والتوبيخ، فالخطاب له، والمراد به غيره من باب قوله: إياك أعني واسمعي يا جارة، كما يشهد لذلك قرائن من الأحوال، والحكمة في ذلك مقابلة إعراض الكفار عن استماع ما جاء به ﷺ، فلذلك أعرض الحق عنهم في الخطاب، مقابلة إعراض بإعراض مع كونهم هم المرادون بذلك الخطاب، فأسمعهم في غيرهم عقوبة لهم واستهانة بأمرهم اهـ.

فائدة: قال سيدي محيي الدين: اعلم أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢] الآية، وتألم النبي ﷺ من ذكر الذنب، فما نزل عليه جبريل بعد ذلك إلا في صورة دحية، وكان قبل نزول هذه الآية ينزل عليه في أي صورة شاء وكان دحية أجمل أهل زمانه، فكأن الحق يقول لنبيه بلسان الحال: ما بيني وبينك إلا صورة الجمال والحسن، لأنك أعظم حبيب، وكان دحية جميلاً، ومن شدة جماله أنه ما رأته امرأة حامل وهو داخل المدينة إلا ألقت ما في بطنها لشهود الجمال فيه.

(والمغفرة الشاملة) قدم التوبة على المغفرة لأنها وسيلة للمغفرة والوسيلة مقدمة على المقصد (والمحبة الجامعة) أي: السالبة لمقام الفرق فيصير المحب فانياً تحت سلطان ظهور المحبوب فتسلبه المحبة عن الغير، وهي المرادة عند القطب المصنف رحمه الله تعالى بالمحبة الجامعة، أي: السالبة للسوى كما علمت، ويراه في كل شيء إن غاب عنه، كما قال ابن الفارض:

تراه إن غاب عني كل جارحة ... في كل معنى لطيف رائق بهج

فالضمير في تراه راجع للمحبوب، والمعنى: إنْ غاب عني الحبيب صارت جوارحي عيوناً تراه لكن تراه في كل معنى لطيف رائق بهيج. (والخلة) بضم الخاء: صفاء المودة، وتخللها في القلب، فلا تدع فيه محلاً إلاّ ملأته، وبفتح الخاء الحاجة، ولذا وصف سيدنا إبراهيم بها، لانقطاعه إلى ربه، وقصر حاجته عليه حين جاء جبريل، وهو في المنجنيق ليلقى فيه، فقال له: ألك حاجة؟ فقال له: أما إليك فلا، فقال: سل ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. والخلة عند أهل الطريق أول

درجات القرب، وانتهاء مقامها ابتداء مقام الحب، وبكسر الخاء النبت المعروف، ومن أمثال العرب: الخلة خبز الإبل، والحميض فاكهتها، والضم هو المختار كما قاله الواحدي: لأن الله تعالى خليل سيدنا محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وكلاهما خليل الله تعالى، ولا يجوز أن يقال الله خليلهما من الخلة بالفتح التي هي الحاجة (الصافية) الخالصة من كدرات التفرقة التي تسقط عن صاحبها التردد والتلوين (والمعرفة الواسعة) وهي الانقطاع إلى الله تعالى بسبب معرفة أسمائه وصفاته، والتخلق بهما فينقطع رجاؤه من غيره تعالى، إذ حقيقة المعرفة هي إدراك الشيء في ذاته وصفاته من الوجه الذي هو به هو هو، ومعرفته تعالى عزيزة لا تدرك بالعقل، بل نعرفه بأسمائه وصفاته كما علمت، (والأنوار) أراد الشيخ المصنف بالأنوار: الأنوار التي للسائرين والتي للواصلين كل بحسبه من الطاعات والتوجهات، وقد تقف القلوب مع الأنوار فتحجب عن منورها لأن وجوه الوقوف مع الأنوار، والمقامات كثيرة: كالأنس بها، واستحلائها، والقنع بها، والنظر إليها مع عدم الالتفات لما بعدها، ورؤيته أنها الغاية التي ليس شيء وراءها، فلذا طلب الشيخ المصنف الأنوار (الساطعة) أي التي لا تحجب عن منورها، والظاهر أن المراد بالساطعة سطوعها في الزمان والمكان والإنسان بأن يكسيه الله خلعة التشريف، لأجل بروزه للناس للإرشاد والتعري والاستئناس به، وإذا دخل مكاناً أو مشى فيه عمّت فيه البركة ظاهراً وباطناً، ومن ذلك ما ذكره الفريد الشيخ الأكبر عن بيت القطب أبي يزيد البسطامي أن كل من دخله وأراد أن يعصي الله تعالى فيه خرجت عليه نار، فأحرقت أثوابه، وهي أثر الروحانية التي تعلقت بالمكان اهـ.

وكان سيدي داود بن باخلا الشاذلي أفاض الله علينا مدده الهاطلي يقول: لو تنفس عارف في بلدة ثبت إيمان كل عبد فيها.

فائدة: فإن قلت: هل يصح لأحد الأُنس بالله تعالى كما يصح الأنس بغيره من الأسماء؟ فالجواب كما في «اليواقيت» للقطب الشعراني رحمه الله تعالى في المبحث الثاني نقلاً عن الشيخ الأكبر في «الفتوحات»: إن الأنس بذات الله تعالى لا يصح لأحد عند جميع المحققين لانتفاء المجانسة بينه وبين خلقه، بل نقول: إنه لا يصح الأنس باسم من أسمائه تعالى أبداً إنما حقيقة الأنس ترجع إلى ما يصل إلى العبد من تجليات الحق تعالى بسبب نور الأعمال لا غير، ومن قال إنه أنس بعين ذات الله تعالى فقد غلط.

(والشفاعة) وهي في الحقيقة كما قاله الشيخ المصنف: إنصباب النور على جوهر النبوة، فيبسط إلى أهل الشفاعة من الأنبياء والأولياء وتندفع الأنوار منهم إلى الخلق، ومعناها لغة الوسيلة والطلب من الشفع ضد الوتر، كأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له، وعرفا سؤال الخير للغير، فهي مقصورة على طلب المنافع، ومن ذلك دفع المضار عن الغير، وقد علمت ما قاله القطب المصنف في معنى الشفاعة (القائمة) أي: التي يقوم لها الناس عند الاحتياج والاضطرار إليها (والحجة البالغة) الحجة ما يستظهر به في المطالب كالبينة الواضحة، فكأن الشيخ المصنف سأل الفوز بالصواب وموافقة الحق في كل أمر يريده، فلذا وصفها بالبالغة، إذ بلاغة الشيء قوة معناه ومطابقته لمقتضى الحال (والدرجة) هي المرقاة ضد الدركة، ومن ثم قيل للجنة درجات والنار دركات، وهو تعالى رافع للدرجات فرفع درجات الأنبياء والأولياء، ويرفع درجات الخلق بالعلوم والمعارف، وجعل لكل من الملائكة درجة معينة، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ١٦٤﴾ [الصَّافات: ١٦٤]، وكذا العلماء جعل لكل منهم درجة معينة، كما قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجَادلة: ١١]، فطلب الشيخ المصنف أعلى درجات القطبية والصديقية، وقد أجابه الحق تعالى كما هو محقق مشهود، فقوله (العالية) أي: الرفيعة في الدنيا كالقطبية، كما علمت (وفك) أطلق وحِلّ (وثاقنا) بفتح الواو ويصح كسرها ما يوثق به الأسير والدّواب (من المَعْصِيَةِ) بغفرانها لأنها من أكبر الموانع عن الإقبال على الله تعالى، (و) فك (رهاننا) ما يرهن به (من) الوقوف مع (النعمة) والتلذذ بها والسكون إليها، والعبد مرهون على مكافأة النعم بالشكر عليها، ولايكون ذلك إلا بعدم عصيان المنعم بها، ومن رهانها الوقوف معها والتلذذ بها، وذلك هو عين الحجاب، لكنه في المعاصي أشد فلذلك استعار الشيخ المصنف لها الوثاق وللنعمة الرهان والمنقذ من ذلك عناية الله تعالى بعبده فلذا قال (بمواهب المنة) التي هي عناية الله تعالى بالعبد لا بالاستحقاق، بل بالفضل والكرم، وروي عن بعض مشايخ الغرب ورهاننا من النقمة بالقاف، أي: الانتقام الناشىء عن المعصية، فيكون طلب فك الرهان من الانتقام بالعفو والمسامحة بطريق الفضل والامتنان، ويكون من باب العجز والافتقار، قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطُّور: ٢١] والذي تلقيناه عن مشايخنا نفعنا الله بهم، الرواية الأولى، ولما كانت التوبة أصل كل مقام فهي بمثابة الأرض للبناء كرر المصنف طلبها فقال: (اللهم إنا نسألك التوبة) أي: الرجوع إليك عما لا يرضيك وللتوبة شروط ستة: الندامة، وإعادة الفرائض، ورد المظالم إلى

أهلها، وأن تذيب نفسك في الطاعة كما أذبتها في المعصية، وإن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، وأن يعزم على أن لا يعود وفي الحديث «التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه، ومن آذى مسلماً عليه من الذنوب مثل منابت النخل»(١).

قال القطب الشعراني في «اليواقيت» في المبحث السادس والخمسين، قال الجلال المحلى: تصح التوبة من ذنب، ولو كان صغيراً مع الإصرار على ذنب آخر، ولو كان كبيراً، وإذا تاب ثم عاود الذنب لم تبطل توبته السابقة، بل ذلك ذنب يوجب توبة أخرى، هذا ما عليه جمهور العلماء، ونقل عن أبي بكر الباقلاني أنها لا تصح بعد نقضها، وقيل غير ذلك.

وقال العلامة السبكي: اعلم أن التوبة من أعظم ما منَّ الله تعالى به على عباده، فإن لم تقع لنا توبة، فالواجب علينا التوبة من ترك التوبة، فإن لم يصح لنا التوبة من ترك التوبة وجب علينا التوبة من الإصرار على ترك التوبة، وهكذا أبداً ما عشنا، وما ثم لنا داء بلا دواء أبداً، فإن لم يصح لنا شيء من ذلك كله، فللّه رحمة خاصة يَمُنُّ بها على من مات مصراً من أهل الإسلام اهـ.

(ودوامها) أي: الدوام مدة الحياة، لأن عدم دوامها يستدعي معاقبة ضدها لها فربما خرج من الدنيا على غير توبة، فالثمرة في الدوام وصدق التوبة.

فائدة: إن قلت: فهل التوبة من المقامات المستصحبة إلى الموت؟ فالجواب: كما قاله الفريد ابن العربي الحاتمي: نعم هي باقية ما دام العبد مخاطباً بها حتى تطلع الشمس من مغربها، فحينئذ يسد باب التوبة ويغلق فلا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، ثم قال ابن العربي المذكور: ولا يخفى أن المؤمن لا يغلق له باب يمنعه من التوبة، وإنما يغلق عليه الباب حتى لا يخرج إيمانه من قلبه، وكيف يغلق دونه، وقد جاوزه وتركه وراء ظهره باستقرار الإيمان في قلبه، فكان من سعادته غلق هذا الباب على إيمانه حتى لا يخرج منه بعدما دخل فلا يرد الله تعالى بعد ذلك مؤمناً أبداً إذ ليس هناك للإيمان باب يخرج منه، فعلم أن غلق باب التوبة رحمة بالمؤمن ونقمة على الكافر، والتوبة من الفرائض حال التكليف، فإن أخَّرها إلى الاحتضار لم تقبل، ولهذا لم يقبل إيمان فرعون.

---

(١) القسم الأول من الحديث رواه ابن ماجه في سننه، باب ذكر التوبة، حديث رقم (٤٢٥٠) [ج٢ ص١٤١٩]، والبيهقي في السنن الكبرى، باب شهادة القاذف، حديث رقم (٢٠٣٤٨) [ج١٠ ص١٥٤] ورواه غيرهما.

قال الشعراني في «اليواقيت»: كذب والله وافترى من قال إن الشيخ محيي الدين يقول بإيمان فرعون، وهذا نصه في «الفتوحات»: يكذب الناقل والله أعلم اهـ.

فإن قلت: فمتى يصح من العبد التوبة النصوح التي ما بعدها ذنب؟ فالجواب كما قاله ابن العربي: إذا استوفى جميع ما قدره الله تعالى عليه من المعاصي، فهناك يتوب العبد التوبة النصوح لا محالة حتى لو أراد أن يعصي ربه لم يجد ما به يعصي، وما دام الله يخلق للعبد المعصية، فهو واقع لا محالة، ولكن لم يتركه الحق سدى بل أمره بالتوبة.

(ونعوذ بك) أي: نعتصم بكمال ذاتك يا الله (من المعصية و) من (أسبابها) بتقدم موانعها، وفقد أسبابها فتفنى عن نظرنا، ولا تخطر على قلوبنا، (وذكِّرنا بالخوف) أي: اجعله حاضراً في قلوبنا (منك) لأن من عرف الله خافه بالضرورة، وقد ورد رأس الحكمة مخافة الله تعالى. وقال بعضهم: ليس الخائف من يبكي ويمسح دمع عينيه، ولكن الخائف من يترك ما يخاف أن يعذب عليه (قبل هجوم) ورود (خطراتها) أي المعصية على القلب (واحملنا على النجاة) أي: التخلص من الهلاك (منها) أي المعاصي، (ومن التفكر في طرائقها)، فإن قلت: عود الضمير على الخطرات التي هي أقرب أولى وأشمل لاستلزامه التخلص من الجميع، لأن من خلص من الخطرات خلص من المعاصي بالطريق الأولى دون العكس. قلت: إنما رجعنا الضمير للمعاصي خشية التكرار مع قوله. ومن التفكر في طرائقها، اللهم إلا أن يقال بالفرق بين الخطرات والتفكر، لأن الخطرات هي العوارض من غير قصد والتفكر ما كان بقصد من المتفكر فحينئذ يحسن عود الضمير على الخطرات، ومن راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله تعالى في حركات جوارحه، فكأن الشيخ المصنف سأل الله تعالى أن يحفظه من جميع المعاصي الظاهرة والباطنة والسلامة من أسبابها الجلية والخفية، (وامح) أزل (من قلوبنا حلاوة ما) الذي (اجتنيناه) ارتكبناه وفعلناه (منها) أي المعاصي وأسبابها (واستبدلها) أي: أبدل حلاوة المعصية بنقلها إلى الطاعة، وتحويلها (بالكراهة) الطبيعية (لها) إذ الكراهة ما يأباه الإنسان إمّا طبعاً أو شرعاً، والمراد: اجعل طبعنا نافراً منها ليوافق الطبع الشرع (والطبع لما) للذي (هو بضدّها) وهو الخير والباء زائدة هنا استعارة بالكناية شبّه الطاعة بالعسل تشبيهاً مضمراً في النفس، وذكر الطعم الذي هو من ملازمه وإثباته لها تخييل، وقد جاء هذا التشبيه في قوله ﷺ: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله تعالى رباً. . .»** الحديث، لأن الطعم هو اللذة، وهو إدراك الملائم من حيث كونه ملائماً كطعم الحلاوة عند الذوق، وقيّد الحيثية للاحتراز

عن إدراك الملائم لا من حيث ملاءمته، فإنه ليس بلذة كالدواء النافع المر البشع، فإنه ملائم من حيث النفع، لا من حيث تعاطيه، والطاعة، وإن كانت في ابتدائها ثقيلة ومكروهة للنفس، لكن عاقبتها محمودة لقوله ﷺ: **«حُفّت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات»**(١) (وأفض عَلَيْنَا) من فاض الماء إذا كثر حتى سال، ثم استعير لكثرة الإحسان (من بحر كرمك) أي: من فيض إحسانك وجودك الشبيهين بالبحر، (وعفوك حتى نخرج من الدنيا) بعد انقضاء آجالنا (على) أي مع (السلامة من وبالها) أي الدنيا أو المعاصي، والوبال عاقبة السوء والجزاء على الجرم، ومن خرج من الدنيا سالماً دام له الإكرام (واجْعَلْنَا عند الموت ناطقين) بكلمة (الشهادة عالمين بها) أي: بمدلولها في قلوبنا، وفي الحديث **«من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله محمد رسول الله دخل الجنة»**(٢).

(وارأف بنا) بضم الهمزة وفتحها من الرأفة، وهي إحسان مبدؤه شفقة المحسن (رأفة الحبيب) أي: المحب (بحبيبه) أي: محبوبه، (عند الشدائد) متعلق برأفة، وهي أولى من تعلقه بفعل الأمر لإفادته الرأفة المطلقة في الأولى، والقصر على حالة الشدائد في الثاني (ونزولها) أي: وعند انتقالها من أعلى إلى أسفل، ويستعار النزول لتبدل الأحوال الشريفة بالخسيسة، وإنما أتى الشيخ المصنف بقوله: ونزولها لأن من الشدائد قد يكون محتم الوقوع كسكرات الموت، كما في الحديث إن للموت لسكرات، فحسن للمصنف التخصيص بعد التعميم بطلبه الرأفة عند نزول الشدائد مطلقاً (وأرحنا) أعطنا راحة كاملة للقلوب والأبدان (من هموم الدنيا) ومن (غمومها) بوجود الرزق والرحمة المطلقة في الدنيا والآخرة. وليس هذا مكرراً مع طلبه السلامة من وبالها لاختلاف أحوال الراحة في الدنيا، فمن الناس من هو تعبان في الدنيا والآخرة، ومنهم من هو مستريح فيهما، ومنهم من هو تعبان في الدنيا مستريح في الآخرة، وبالعكس، فلذا طلب أن تكون راحة مصحوبة (بالرَّوْح) بالفتح الراحة والرحمة (والريحان) طيب الرائحة، وفي البخاري الريحان في كلام العرب الرزق.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة. . ، حديث رقم (٢٨٢٢) [ج٤ ص٢١٧٤]، وابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار مما يجب على المرء. . ، حديث رقم (٧١٦) [ج٢ ص٤٩٢] ورواه غيرهما.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الجنائز، حديث رقم (١٢٩٩) [ج١ ص٥٠٣]، وأبو داود، باب اليقين، حديث رقم (٣١١٦) [ج٣ ص١٩٠] ورواه غيرهما.

وقال أبو بكر الوراق الروح النجاة من النار والرّيحان دخول دار القرار (إلى الجنة ونعيمها) المؤبد الذي لا كدر فيه ولا تعب (اللهم إنا نسألك توبة سابقة منك إلينا) حتى لا يعتريها زوال لأن توبة العبد أثر توبة الله تعالى كما أن محبة العبد أثر محبة الله تعالى، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة: ٥٤] فلذا قال: (لتكون توبتنا تابعة منك إلينا)، لأنه متى أراد توبة عبد ألهمه التوبة لسبق علمه بها فتوبة العبد مرتبة على توبة الله له وحب العبد مرتب على حب الله تعالى في الأزل كما علمت، ولذا حكي أنَّ ذا النون المصري لمّا دخل الكعبة المشرفة رأى رابعة العدوية رحمها الله تعالى متعلقة بأستار الكعبة، وهي تقول: بحبك لي إلا ما غفرت لي، فقال لها ذو النون: تأدبي يا رابعة، وقولي بحبي لك، فقالت له: خلِّ عنك يا ذا النون لولا حبه سبق حبي ما أحببته.

(وهب لنا التلقي منك) هو ما يرد على العبد بطريق الوحي الإلهامي (كتلقي آدم) عليه السلام ما ورد عليه (منك) من (الكلمات) أراد المصنف التشبيه في مطلق التلقي وإلاَّ فتلقى آدم بالوحي، وتلقى الولي بالإلهام، وإن كان الكل من لطائف صولة خطاب الحق تعالى ولما تلقى آدم الكلمات، وهي ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] الآية، وقيل: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك جدك، ولا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، استقبلها وأخذها بالقبول والإقبال، فتاب الله عليه من صورة المعصية عليه السلام، وفتح لنا باب التوبة، فكان قدوة لنا أي: ليعرّف بنيه كيف يفعلون إذا وقعوا في المنهي عنه.

فائدة: قال في «اليواقيت» في خاتمة أول الجزء الثاني نقلاً عن الشيخ الأكبر: اعلم أن أكل سيدنا آدم من الشجرة بعد النهي عنها كانت معصية صورية، ولو لم يقع ذلك من آدم لوقع على يد غيره، فكانت معصية آدم من عين نعمة الله تعالى عليه، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا ينتقلون من حال قط إلا لأعلى منها، لأن الله تعالى اصطفاهم بسابق العناية، فلا يمكر الله تعالى بهم أبداً، ومن هنا يعلم أن هبوط آدم وحواء إلى الأرض لم يكن عقوبة لهما، وإنما كان عقوبة لإبليس وحده، فإن آدم عليه السلام أُهبط بصدق الوعد السابق، بأن يكون خليفة في الأرض من بعد ما تاب الله عليه من صورة المعصية واصطفاه، وبعدما تلقى الكلمات من ربه بالاعتراف، فكان اعترافه عليه السلام في مقابلة قول إبليس: أنا خيرٌ منه إلخ، فعرفنا الحق تعالى مقام الاعتراف عند الله تعالى لنتخذ ذلك طريقاً إذا خالفنا أوامر ربنا، فكان ما وقع كالتعليم لبنيه، إذا وقعوا في مخالفة كيف يكون خلاصهم كما علمت.

ثم قال الشيخ الأكبر: وقد سمح لي أن أضرب لك مثالاً تعلم به يقيناً تنزيه آدم عليه السلام من المعصية المحضة كما يقع فيها غيره، فأقول، وبالله التوفيق:

اعلم أن الله سبحانه وتعالى لما قضى في سابق علمه بالسعادة لقوم والشقاوة لقوم، ولم يبدل ذلك القول لديه، فلا بد من فاتح يفتح القبضتين، فكان إبليس فاتحاً لقبضة الشقاوة، وآدم عليه السلام فاتحاً لقبضة السعادة، فإبليس شقي وآدم سعد هو ومن اتبعه في التوبة والاعتراف، فإن آدم مع علمه بأن ما وقع فيه كان بقضاء وقدر اعترف بذنبه، وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] الآية، وأضاف الذنب إلى نفسه ليُعلِم بينه كيف يخرجون إذا وقعوا في المعصية عن الإثم ولا يصرون على المعاصي من غير توبة ولا اعتراف كما وقع فيها إبليس وجنوده من الإنس والجن، فكان حكم آدم عليه السلام، فيما وقع له من الحق تعالى حكم عبد قال الحق تعالى فيما بينه وبينه: إني أريد أن أُظهِرَ في هذا الوجود ما كان مكنوناً في علمي وحكم أسمائي في أهل حضراتها من السعداء والأشقياء، وتظهر حجتي على عبادي قبل أن أُخرِجَهم من جواري فإن علمي سبق بذلك، وأنا كريم ومن شأن الكريم أن لا يخرج أحداً من جواره إلا بحجة ظاهرة تقام عليه بين المحجوبين عن سماع ما قلته لك من سري، فإذا قلت لك لا تقرب هذه الشجرة فاعلم أني أذنت لك في القرب منها، فاقرب لأقيم عليك الحجة وأخرجك إلى دار خلافتك وترقيك بالأعمال، فإن هذه الدار التي أنت فيها لا تكليف فيها ولا ترقي لأحد بأعماله، كما هي أعمال أهل الجنة التي يؤول أمر المؤمنين إليها، فلا يسع العبد صاحب هذا السر إلا أن يبادر إلى ما أذن له فيه سيده، وهذا السر من وراء المحجوبين، ولم يكن ذلك معصية إلا عند المحجوبين عن سماع ذلك السر الذي أسره الحق تعالى لآدم عليه السلام، وأما الحاضرون السامعون ذلك فليس ذلك بمعصية عندهم، فإن الإذن من الحق في فعل شيء والأمر به واحد في تلك الحضرة، وإنما فرق بينهما في لسان ظاهر الشرع فقط، لأن الأمر غير الإرادة في أحكام الشريعة، فاكتفى الحق تعالى فيها بإلجاء ذلك العبد في الباطن إلى وقوع ذلك الفعل من غير أن يأمره بذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] فافهم.

فعلم أن في ندائه تعالى بالمعصية نفعاً عظيماً لذريته المحجوبين الذين يخالفون حدود الله تعالى فيتأسون بأبيهم آدم في الندم والاعتراف والاستغفار، فلم تكن هذه المعصية مقصودة لآدم بالأصالة كما هي ذنوب الغاوين من ذريته، وإنما بكى آدم عليه السلام مع إذن الحق تعالى له في أكله من الشجرة سراً على ما مر تشريعاً

لذريته، فكان بكاؤه صورياً، فإن قلت: فلمَ لم يفتح آدم عليه السلام قبضة السعادة بالطاعة الصرف دون وقوعه في المعصية الصورية، ثم توبته منها، فالجواب: إنما كان الأمر بعد وقوع المعصية ليظهر لآدم بذلك سعة فضله ورحمته وحلمه على عباده الذين سبق في علمه أنهم يقعون في معاصيه تعالى ولو أنه فتح قبضة السعادة بالطاعة المحضة لتعطلت حضرات كثير من الأسماء الإلهية المتعلقة بالعالم المخالف، إذ الطائع لا يحتاج إلى مغفرة، ولا رحمة، ولا حلم لعدم من يغفر له أو يرحم أو يحلم عليه، ويؤيد ذلك حديث «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم**»(١) اهـ.

وكان الشيخ أبو العباس القزويني شيخ الشيخ محيي الدين يقول: أيعصي آدم ربه معاذ الله تعالى، وإنما عصى من كان في ظهره من ذريته الذين هم أهل الشقاء، لأن ظهره كان كالسفينة لسائر أولاده.

فإن قلت: قال القوم إن معرفة العبد بالله تمنعه من الوقوع في معصيته تعالى وآدم عليه السلام من رؤوس العارفين بالله تعالى فكيف وقع في أكله من الشجرة بعد النهي عنها، فالجواب كما قاله الشيخ الأكبر: إن المعرفة تمنع العارف بلا شك ولكن إذا أراد الله تعالى أن يوقع أحداً من الأكابر فيما قدره عليه لحكمة سبق بها علمه تعالى فلا بد أن يزين الله تعالى الوقوع له في ذلك بتأويل يقع له فيه وجه الحق ولا يقصد بذلك العمل انتهاك الحرمة كما وقع لآدم عليه السلام، ثم إذا وقع ذلك المقرب في المعصية بذلك التأويل أظهر الله فساده له فإذا تحقق بعد الوقوع أنه أخطأ علم أنه عصى فعند ذلك يحكم عليه لسان الشريعة بأنه عصى، وأما في حال وقوع الفعل منه فلا لأجل شبهة التأويل، فهو كالمجتهد في زمان فتواه بأمرٍ ما اعتقاداً منه أن ذلك عين الحكم المشروع في المسألة، وفي ثاني الحال يظهر له بالدليل أنه أخطأ، فيكون لسان الظاهر يحكم عليه أنه أخطأ في زمان ظهور الدليل لا قبل ذلك اهـ. ملخصاً.

ويؤخذ مما تقدم من الأجوبة أن سيدنا آدم عليه السلام فاتح لنا أبواب التوبة، فكان قدوة لنا في ذلك، فلذا قال الشيخ المصنف: (ليكون) أي: آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (قُدْوَةً) بضم القاف وكسرها (لولده) لذريته المؤمنين الذين اتبعوه في الرجوع إليك (في التوبة والأعمال الصالحات) أي: كما وقع من آدم عليه السلام. روى الحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال: قال آدم: «**يا رب ألم تخلقني بيديك؟ قال:**

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب سقوط الذنوب. . ، حديث رقم (٢٧٤٩) [ج٤ ص٢١٠٦]، وأحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (٨٠٦٨) [ج٢ ص٣٠٩] ورواه غيرهما.

بلى، قال: يا رب ألم تنفخ فيّ الروح من روحك؟ قال: بلى، قال: يا رب ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: يا رب إنْ تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى جنتك؟ قال: نعم» وقول آدم أراجعي بتخفيف الياء اسم فاعل أضيفت إلى المفعول، وأنت فاعل لاعتماده على الاستفهام، أو مبتدأ خبره ما قبله، ثم أن الشيخ المصنف شرع يطلب مقام المتقين الذين إذا ألمّ بهم شيء من الشيطان تذكروا عقاب الله وثوابه، فإذا هم مبصرون بقوله: (باعد بيننا وبين العناد) بالتكبر، ومخالفة الأوامر الشرعية، والمعنى اجعلنا من المتقين الذين إذا ألمّ بهم شيء من الشيطان تذكروا عذاب الله وثوابه، فإذا هم مبصرونه الحق من غيره، فلا يرجعون، ولا يصرون ويستغفرون لإلهام الله لهم الخوف بتذكيره لهم بالعقاب. ولذا قال العارف الشعراني في «الكبريت الأحمر» عن الشيخ الأكبر قدس الله سرهما في تفسير قوله ﷺ، لا يزني الزاني حين يزني، وهو مؤمن، أي: مصدق بالعقاب عليه، إذا لو كان معه تصديق بالعقاب ما وقع في الدنيا الزنا كما إذا أوقدنا ناراً عظيمة لعبد من العبيد، وقلنا له ازن بهذه المرأة لنحرقك بالنار لا يزني بها أبداً، ولو مكثنا نأمره مدى الدهر لمشاهدته العقاب فافهم اهـ.

وقد ثبت أنّ أهل الكشف أجمعوا على أنه لا يصح لعارف أن يعصي الله تعالى حال الكشف والشهود أبداً، فإن علمه بأنه تعالى يراه يمنعه من الوقوع، ثم لو فرض أن العاصي يشهد أن الله يراه حال المعصية، فلا بد أن يشهده غير راض عنه في تلك المعصية. ولما قيل لأبي يزيد البسطامي: أيعصي العارف فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] فلم يقل لا يعصي. ولا أنه يعصي أدباً مع الله تعالى، ومعنى ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] أن معصية أهل الله تعالى بحكم القدر النافذ فيهم لا غير، ولا يصح في حقهم أن يقعوا في المعاصي قط بشهوتها كما يقع فيها غيرهم، لأن في ذلك انتهاكاً لحرمات الله تعالى، وأهل الله تعالى محفوظون من شهوة المعاصي والتلذذ بها، فإن الإيمان المكتوب في قلوبهم يمنعهم من ذلك اهـ.

قال سيدي على الخواص رحمه الله تعالى، ومن حكمة وقوع العبد في المخالفة للأوامر وقوعه في مقام الإدلال بالطاعات، وعجبه بها، فإن توالى الطاعات الصرف ليلاً ونهاراً تورث غالب الناس الزهو وشهود، أنهم خير من كثير من الناس، وهذا غاية البعد من حضرة الله تعالى وما جعل الله تعالى التكاليف إلا ليذل بها النفوس بين يديه تعالى، ولا يرى بها المكلف شرف نفسه على أحد من خلقه تعالى، فإن ذلك ذنب إبليس الذي أخرج به من حضرة الله تعالى، وكل من ادعى مقام القرب مع عدم الإذلال، فهو كاذب، اهـ قاله الشعراني في «اليواقيت».

وروى الطبراني وغيره مرفوعاً عن النبي أنه قال: «إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم»(١) الحديث، قال الشيخ الأكبر: المراد بالعقول المسلوبة التي تشهد نظر الحق إليها حال المعصية يعني: العقول الذاكرة إنها بين يدي الله تعالى حال عصيانها لا عقول التكليف إذ لو كان المراد بها ذلك ما آخذ الله بها أحداً لعدم التكليف، وقد ثبتت المؤاخذة بالنصوص الشرعية اهـ.

(والإصرار) وهو: الملازمة والدوامة على الذنوب، وفي الحديث: «ويل للمصرين الذين يصرون على ما يفعلون وهم يعلمون»(٢) ومن الإصرار الغل والحقد وهو ربط القلب على الخباثة والمكر والخديعة (والشبه) اعلم أن الشبه مختص بالمشاركة في الكيفية بخلاف التساوي، فإنه يختص بالمشاركة في الكمية، والشكل يختص بالشاركة في القدر، والند يختص بالمشاركة في التعدد والمساحة، والمثل عام في جميع ذلك، ولهذا لما أريد نفي المشاركة له تعالى في جميع الوجوه قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

(بإبليس رأس الغواة) جمع: غاوٍ من الغي وهو الضلال، وجعله الشيخ المصنف رأس الغواة أخذاً من قوله تعالى إخباراً عنه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] أي: خيبتني من رحمتك، ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] أي: بالإضلال عن الطريق المستقيم بإلقاء الوسوسة في قلوبهم فثبت أنه رأس الغواة، كما أن آدم رأس الهداة المهديّين، فالعداوة بين الثقلين من عداوة الأبوين، ولذا لما أمر بالسجود لآدم امتنع، وقال تسفيهاً للأمر الإلهي: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] فالإباء الذي أخبر الله عن وقوعه من إبليس امتناعه من السجود على سبيل التسفيه للأمر الإلهي، واعتقاد أنه أفضل من آدم عليه السلام والأفضل لا يخضع للمفضول، فكفره وطرده ليس بترك الواجب، وهو السجود وحده بل معه تسفيهه للأمر، وتكبره على آدم عليه السلام، وأنه أفضل منه، فإن قلت: فأي عداوة أشد: عداوة إبليس لآدم أو عداوته لذريته؟ فالجواب كما قاله الشيخ الأبكر: إن عداوته لبني آدم أشد من عداوته لآدم، وذلك أن بني آدم خلقوا من ماء والماء منافٍ للنّار، وأما آدم عليه السلام فقد جمع بينه وبين إبليس اليبس الذي في التراب، فكان بين التراب والنار جامع،

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب، باب إذا أراد الله إنفاذ قضائه...، حديث (١٤٠٨) [ج٢ ص٣٠١].

(٢) رواه أحمد في المسند عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، حديث رقم (٦٥٤١) [ج٢ ص١٦٥]، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب حديث رقم (٣٤١٣) [ج٣ ص١٤٠] ورواه غيرهما.

ولهذا صدقه لما أقسم له بالله إنه لمن الناصحين، وما صدقه الأنبياء في ذلك لكونهم أضداده، فلهذا كانت عداوته للأنبياء أشد من عداوته لأبيهم.

تتمة: قال الشعراني رحمه الله تعالى في «اليواقيت»: قال إبليس للحق تعالى: يا رب كيف تطلب مني السجود ولم ترد ذلك مني ولو أردته لسجدت، ولم أقدر على المخالفة، فقال له الحق تعالى: متى علمت أني لم أرد منك السجود بعد وقوع الإباءة منك، أو قبل ذلك؟ فقال إبليس: ما علمت بذلك إلا بعدما وقعت مني الإباءة، فقال الله عزّ وجل له بهذا آخذتك، فللّه الحجة البالغة.

(واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت) كآدم عليه السلام (ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت) كإبليس، فإنك تغفر سيئات من أحببته، ومن أبغضته كانت حسناته مردودة عليه، وإبليس اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وكان اسمه قبل ذلك عزازيل، وقيل الحارث، وقيل: الحكم، وهو شخص روحاني خلق من نار السموم عبد الله تعالى سبعمائة ألف سنة وسبعين ألفاً وخمسة آلاف سنة، وكان اسمه في سماء الدنيا عابداً، وفي الثانية راكعاً، وفي الثالثة ساجداً، وفي الرابعة خاشعاً، وفي الخامسة قانتاً، وفي السادسة مجتهداً، وفي السابعة زاهداً، وتحت يده سبعون ألف ملك وجناحاه من زمردة خضراء، خزن الجنة مع رضوان ألف سنة، وكان مستجاب الدعوة، فرأى مكتوباً: «إنَّ لي عبداً من جملة عبادي المقربين آمره بأمر فلم يمتثل أمري فأطرده عن بابي وأجعل عبادته هباءً منثوراً». فقال: يا رب ائذن لي أن ألعنه، فأذن له، فلعن ذلك العبد ألف سنة، قيل: لما ظهر على إبليس ما ظهر بعد المجاهدة. والرياضة طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان زماناً طويلاً، فأوحى الله إليهما ما لكما تبكيان كل هذا البكاء، وهو أعلم بكل شيء، فقالا: يا ربنا لا نأمن مكرك فنبكي خوفاً من مكرك بنا، بالتغيير والتبديل، كما وقع لإبليس، فقال الله لهما هكذا كونا لا تأمنا مكري هذا فلما خلق الله تعالى آدم وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر لسبق شقاوته في علمه تعالى القديم أسأل الله الكريم بجاه وجاهة النبي العظيم وأصحابه وأتباعه وأولاده وأزواجه وأحبابه أن يمنّ علينا برحمته الواسعة من فضله وجوده وإحسانه وأحبابي والمسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

(فالإحسان) أي: فعل ما كان حسناً من الطاعات (لا ينفع مع البغض منك) كقصة برصيصا العابد وبلعام بن باعوراء من بني إسرائيل[١]، وكان يعرف الاسم الأعظم فكفر وصار كالكلب، وإبليس لم تكن في السّماء والأرض بقعة إلا وله عليها

---

(١) سبقت الإشارة إليهما.

سجدة وركعة، ومع هذا لم تنفعهم طاعتهم لكونهم في علم الله تعالى مبغوضين، (والإساءة) أي: فعل القبائح المذمومة شرعاً (لا تضر مع الحب منك) فقد ورد «إذا أحبّ الله عبداً لم يضره ذنب»[1] (وقد) للتحقيق، (أبهمت الأمر) واحد الأمور، وهو الشأن والحال والوصف (علينا) فلم نعلم هل نحن من المحبوبين، أو لا، وأعمالنا مقبولة، أو مردودة، فلذا قال ابن الفارض:

حائراً فيما إليه أمره   حائر والمرء في المحنة غي

قال النابلسي: يعني أن الصَّبَّ المتقدم ذكره في القصيدة متحير فيماذا تكون نهاية أمره فهل يختم له بالسعادة أو بالشقاوة، وهذا الأمر قد قطع قلوب الصّدّيقين، وهذه الحيرة هي محنة يعجز الإنسان عن حملها، وقد قال تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البَقَرَة: ٢٦٤] فهم على ما يكسبونه من الخير أو الشر غير قادرين فكيف يقدرون على ما لا يكسبونه فحائر اسم فاعل من حار يحار حيرة، لم يهتدِ الصواب، وحائر الثاني اسم فاعل أيضاً لكن من الحور، وهو الرجوع (لنرجو ونخاف) اللام للتعليل، والرّجاء طمع يصحبه عمل في تحصيل المطموع فيه لأجل تحصيله، وإلا فهو أمنية كاذبة ودعاوى خائبة.

قال سيّدي معروف الكرخي: «طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور والرجاء المحمود من عمل الحسنة يرجو لها القبول، ومن عمل السيئة ثم تاب منها يرجو المغفرة» اهـ.

(فأمّن خوفنا) في الدارين من أنواع المحن والبلايا والأهوال، (ولا تخيب رَجَاءنا) أي لا تجعلنا خائبين بعدم الظفر مما ترجيناه، (واعطنا) بقطع الهمزة (سُؤْلنا) بضم السين وإسكان الهمزة ويصح إبدالها واواً أي المسؤول والمطلوب (فقد أعطيتنا الإيمان) أي: مننت علينا به (من قبل أن نسألك) إعطائه حيث جعلت جميع المؤمنين مظهراً لاسمك المؤمن والهادي، وقدمتهم إلى الرتب العلية فمالت قلوبهم إلى الحق عن الباطل وحققتهم بحقائق الإيمان مِنّةً وفضلاً منك، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحُجرَات: ٧] الآية (وكتبت) أي: أثبَت الإيمان في قلوبنا (وحببت) أي جعلته محبوباً لأهله حتى سهلت سبيله عليهم (وزينت) أي حسنته لهم، وكرهت الكفر للمؤمنين (وأطلقت) أنطقت (الألسن بما به ترجمت) إذ اللسان ترجمان القلب، فما رسخ في القلب ترجم عنه اللسان، كما قيل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

---

(١) هذا الحديث سبقت الإشارة إليه.

ولما ذكر الشيخ المصنف: أنَّ الله تعالى أعطاه أفضل النعم التي هي الإيمان من غير سؤال وأطلق لسانه بذلك، حمله ذلك على المدح والحمد لمن أعطاه هذه النعم، فقال مادحاً وإشعاراً لتعظيم الثناء (فنعم الرب أنت) أي: الذي لا ربَّ لي سواه، فلا أعول على غيره، ولا أغترف إلا من بحر جوده (فلك الحمد على ما أنعمت) ما مصدرية، أي: على إنعامك وأعظمها الإيمان في الدنيا ومشاهدة الذات على ما يليق بجلاله في الجنة، ولما كان المؤمن يرى ذنوبه مثل جبل واقع عليه لنور قلبه بالإيمان، فيحسن بالذنب لصقالته على نور قلبه، بخلاف الفاجر، فإنه يراها مثل الذباب الذي يمر على أنفه لظلام قلبه، كرر المصنف طلب المغفرة في حزبه فقال: (فاغفر لنا) ما وقع منا من الذنوب الظاهرة والباطنة (ولا تعاقبنا بالسلب) لما أنعمت به علينا سيما نعمة الإيمان، وهي أفضلها.

(بعد العطاء) لها إذ حقيقة السلب لا تتصور إلا في الموجود المعطي، وأما قبل الإعطاء يقال له حرمان، فذكر ذلك الشيخ المصنف إعلاماً وإشعاراً لشدة العقوبة بعد ذوق الحلاوة، لأن عقوبة المحروم أخف لعدم ذوقه لحلاوة النعم (ولا) تعاقبنا (بكفران النعم) أي: بسترها وجحدها (وحرمان) عطف على ما قبله، أي: ولا تعاقبنا بحرمان (الرضا) بوجود ضده وهو السخط، (اللهم رضنا بقضائك) الرضا هنا: قبول ما يرد من الحق، وفي الحديث: **«اعبد الله على الرضا، فإن لم تستطع فبالصبر على ما تكره»**[1] وفي الحديث إن الله يقول: **«من لم يرضَ بقضائي ولم يصبر على بلائي،**

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ إنما ورد بألفاظ أخرى منها لفظ أحمد في المسند عن ابن عباس حديث رقم (٢٨٠٤) [ج١ ص٣٠٧] ونصه: عن حنش الصنعاني عن ابن عباس ولا أحفظ حديث بعضهم عن بعض أنه قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: **«يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟»** فقلت: بلى، فقال: **«احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله قد جفّ القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً وإن النصر مع الصبر وإن الفرج مع الكرب وإن مع العسر يسراً»**

ورواه الأصفهاني في حلية الأولياء بلفظ: عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال له: **«يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة إذا سألت فاسأل ا وإذا استعنت فاستعن بالله جفّ القلم بما هو كائن ولو اجتمع الخلق على أن يعطوك شيئاً لم يكتبه الله عزّ وجل لك لم يقدروا عليه ولعى أن يمنعوك شيئاً كتبه الله عزّ وجل لك لم يقدروا عليه فاعمل لله تعالى بالرضى في اليقين واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً»** [ج١ ص٣١٤].

ولم يشكر على نعمائي فليتخذ إلهاً سوائي»[١]، (وصبّرنا على طاعتك) أي: بالمحافظة عليها في أوقاتها مع الإخلاص فيها (و) عن (معصيتك) بمطالعة الوعيد، وحضوره على الخاطر، وذكره بقلبه فيصير إيمانه سالماً ولولا تصديقه بالوعيد ما صبر عن المعصية، (وعن الشهوات) أي: وصبّرنا عن الأفعال المشتهيات (الموجبات المؤديات (للنقص)، هو ضد الكمال، (أو البعد عنك) هذا للمبتدي من السّائرين، لأنّ السائر كلما أراد النهوض أخلفته الشهوة عن السير في طريق الله تعالى، ولذا قال بعض العارفين: لدغ الزنابير على الأجسام المقرحة، أيسر من لدغ الشهوات على القلوب المتوجهة في طريق الله تعالى.

(وهبْ لنا حقيقة الإيمان بك) الحقيقة بوزن فعيلة، مشتقة من حق الشيء إذا ثبت وياؤها للنقل من الوصفية إلى الاسميّة، كما في علامة لا للتأنيث، قاله الجرجاني في «التعاريف» وفي الاصطلاح الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح التخاطب، وقد يراد بالحقيقة علم الباطن، وهي التي قال فيها سيدي مصطفى البكري قدس اللّهُ سره ونفعنا ببركاته:

حاء الحقيقة تحقيق وإتقان والقاف قلب صفى ما فيه سلوان
والياء ينبذ غير الحب مجتهداً والقاف قهر الهوى إذ ذاك فتان
والهاء هجر لها يقصي المتيم عن أحبابه فقد غير الحبّ وجدان

وحقيقة الإيمان كما قاله العارف الجيلي نفعنا الله ببركاته كناية عن سكون القلب إلى تحقيق ما أخبر به من الغيب لسكونه إلى ما شاهده ببصره من الوجود، فلم يشعر به ريب ولا شك، وهذا أول مدارج الكشف عن عالم الغيب، وهو المركب الذي يصعد براكبه إلى المقامات العلية والحضرات السنية اهـ.

فينبغي للعبد أن يراقب ربه ويتحلى بحلية الأولياء التي من جملتها عدم إظهار الكرامة، لأن إظهارها من أكابر الرجال معدود من رعونات النفس إلا إذا كان لنصرة دين الله أو جلب مصلحة، لأن الله هو الفاعل عندهم لا هم قاله الشيخ الأكبر، ثم قال: اعلم أن الكرامة على قسمين: حسية ومعنوية، ولا تعرف العامة إلا الحسية كالكلام على الخاطر، والأخبار بالمغيبات والمشي على الماء وطيّ الأرض وإجابة الدعوة، فهذا هو الولي عند العامة، وأما الكرامة المعنوية، فهي التي بين الخواص من أهل الله تعالى وأعظمها وأشرفها أن يحفظ الله على العبد آداب الشريعة، فيوفق لفعل

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (٨٠٧) [ج٢٢ ص٣٢٠] وابن حجر الهيثمي في مجمع الزوائد، باب ما جاء فيمن يكذب بالقدر. . ، [ج٧ ص٢٠٧] ورواه غيرهما.

مكارم الأخلاق، واجتناب سفسافها، وتحليته بالمراقبة في الأنفاس فهذه هي الكرامات التي لا يدخلها المكر والاستدراج، فالكامل من قدر على الكرامة وكتمها اهـ.

قال الشيخ الخواص: إذا وقع على يد الكامل شيء من الكرامات المحسوسة خاف وضجَّ إلى الله تعالى وسأل الله ستره بالعوائد، وأن لا يتميز عن العامة بشيء يشار إليه فيه، ما عدا العلم، فإنه هو المطلوب وتقع المنفعة به.

فإن قلت: فما الذي يحفظ الولي من المكر والاستدراج الذي في الكرامة الحسيّة، فالجواب: يحفظه من ذلك عدم رمي ميزان الشريعة من يده ليزن بها حاله في كل نفس، نقلاً عن سيدي محيي الدين بن العربي.

فإن قلت: فهل التطور الذي يقع من الرجال كمال أم نقص؟ فالجواب كما قاله الشيخ الأكبر: هو كمال لا نقص، لأنه يدل على فناء بشريتهم وقوة أرواحهم حتى صاروا كأهل الجنة يلبسون من الصور ما شاؤوا. ومن ذلك ما ذكره الفريد الشيخ الأكبر المذكور: أن الحلاّج كان يدخل بيتاً عنده اسمه بيت العظمة، فكان إذا دخله ملأه كله بذاته في أعين الناظرين حتى أن بعض الناس نسبه إلى علم السيميّا لجهله بأحوال الفقراء في تطوراتهم، ولما دخلوا عليه ليأخذوه للصلب، كان في ذلك البيت، فما قدر أحد يخرجه من ذلك البيت لأن الباب يضيق عنه فجاءه الجنيد وقال له سلّم لله تعالى واخرج لما قضاه وقدّره المولى سبحانه وتعالى، فرجع إلى حالته المعهودة. فخرج فصلبوه.

وكان ينشد وهو يرفل في قيوده حال ذهابهم به إلى الصلب:

حبيبي غير منسوب إلى شيء من الحيف
سقاني ثم حياني كفعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكاسات دعا بالنطع والسيف
وذاك الأجزاء من يشرب مع التنين في الصيف[1]

---

(١) الأبيات في ديوان الحلاج وردت على النحو التالي:

نديمي غيرُ منسوبٍ إلى شيءٍ مِنَ الحَيفِ
سَقاني مِثلَما شَرِب فِعلَ الضَيفِ بِالضَيفِ
فَلَمّا دارَتِ الكَأسُ دَعا بِالنِطعِ وَالسَيفِ
كَذا مَن يَشرب الراح مع التنين في الصيف

ثم قال الشيخ الأكبر: إن أعظم الكرامات أن يصل العبد إلى حد لو غفل العالم كله عن الله تعالى لقام ذكر ذلك الولي مقام الجميع، فإذا قال سبحان الله مثلاً انتقش في جوهر نفسه جميع ما كان يقوله ذلك العالم كله لو ذكروا الله تعالى، وذلك لأن الله تعالى إذا جازى ذلك الولي أعطاه مثل ثواب جميع العالم.

تنبيه: قال الشيخ الشعراني في «اليواقيت» نقلاً عن أئمة الأصول: اعلم أن المعتزلة أنكرت كرامات الأولياء لعجزهم عن الفرق بين المعجزة والكرامة، مع أنها ثابتة بنص القرآن مثل كرامة السيدة مريم بنت عمران، ونقل عرش بلقيس، وجريان النيل بكتاب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وكشرب خالد بن الوليد السم من غير تألم به، ورؤية سيدنا عمر بن الخطاب جيشه وهو أي الجيش بنهاوند العجم، وهو على المنبر بالمدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام حين قال لأمير الجيش: يا سارية الجبل محذراً له ممن وراء الجبل لمكر العدو به هناك، وفي ذلك كرامتان إحداهما رؤيته سارية مع بُعد المسافة، والثانية إسماع سارية كلامه كذلك، ومن ذلك كلام الطفل لجريج الراهب حين قيل له: من أبوك؟ قال: فلان الراعي، ومن ذلك أيضاً قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين دعوا الله تعالى بصالح أعمالهم فارتفعت عنهم الصخرة التي لا يستطيع الجم الغفير أن يزحزحها عن فم الغار، ومن ذلك كلام البقرة التي حمل عليها صاحبها المتاع، وقولها إني لم أُخلق لهذا، وإنما خُلقت للحرث كما في الصحيحين، ومن ذلك أن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أكل مع ضيفه، فكان كلما أكل لقمة من تلك القصعة يربوا من أسفلها أكثر منها حتى شبع الضيوف وهي أكثر مما كانت قبل الأكل بثلاث مرات، ومن ذلك استجابة دعوة سعد بن أبي وقاص في الرجل الذي كذب عليه كما في الصحيحين، وكان يقول: أصابتني دعوة سعد.

ومن ذلك ما رواه أبو نعيم في الحلية أن عون ابن عبد الله بن عتبة كان إذا نام في الشمس أظلّته الغمامة. ومن ذلك حديث البخاري في قصة خبيب حين كان أسيراً موثقاً بالحديد، وكانوا يجدون عنده العنب وما بأرض مكة حينئذ عنب، ومن ذلك قصة العلاء الحضرمي حين أرسله النبي ﷺ في غزاة وحال بين الجيش وبين عدوهم قطعة من البحر، فدعا الله تعالى ومشوا كلهم بخيلهم ودوابهم على الماء، ومن ذلك تسبيح القصعة التي أكل منها سلمان الفارسي وأبو الدرداء رضي الله عنهما حتى سمع تسبيحها الحاضرون، روى هذا والذي قبله الحافظ أبو نعيم وغيره، ومن ذلك أن عمران ابن الحصين كان يسمع تسليم الملائكة عليه، ومن ذلك ما رواه أبو نعيم عن عبد الله بن شقيق أنه كان إذا مرت عليه سحابة يقول لها: أقسمت عليك بالله تعالى إلا أمطرت علينا فتمطر في الحال، ومن ذلك أن عامر بن عبد قيس كان يُعطى عطاء

فيضعه في حجره ويصير يقبض منه ويعطي الناس حتى يصل إلى داره فيعده فيجده لم ينقص منه شيء، وبالجملة فقد ورد عن السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الكرامات ما يبلغ حد الاستفاضة، وهؤلاء الرجال المتقدم ذكرهم ليسوا بأنبياء. وبالجملة أيضاً من عاشر الصالحين بالصّدق وخالطهم رأى كراماتهم عياناً وعرف صدقهم هذا. والفرق بين المعجزة والكرامة ظاهر إذ المعجزة هي التي تظهر وقت الدعوى بخلاف الكرامة، فإن صاحبها لا يتحدا بها ولو أظهرها وقت الدعوى كانت شعبذة، والمراد بالتحدي هو الدعوى للرسالة فيظهر الله له المعجزة على يده دليلاً على صدقه، ولأن النبي إذا توقفت الإجابة على المعجزة يجب عليه أن يتحدى بها ويظهرها بخلاف الكرامة، لا يجب على الولي إظهارها، لأنه إنما يدعو بحكم التبع لشرع نبيه الثابت عنده، فلا يحتاج إلى دليل على صحة طريقه ودعواه بل يجب عليه إخفاء الكرامة، وإذا ظهرت منه الكرامة، تكون من غير اختياره غالباً، وقد فرّق بعضهم بينهما بأن المعجزة تقع عند قصد النبي وتحديه بخلاف الكرامة، فقد تقع من غير قصد الولي. فإن قلت: فما الفرق بين المعجزة والسحر والشعبذة؟ قلت: المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي بخلاف الساحر، فإنه إذا دعى بسحره، أو كهانته، أو شعبذته نبوة، ربما قابله ساحر آخر فيبطل دعواه النبوة، وأيضاً المعجزة تبقى هي أو أثرها بعد النبي زماناً، والسحر سريع الزوال. فإن قلت ما دليل تسمية ما وقع على يد المتبعين للشرع كرامة دون المخالفين، فالجواب كما قاله الشيخ الأكبر: دليلهم في ذلك أن الكرامة صادرة من حضرة اسمه تعالى البر، فلا تكون إلا للأبرار من عباده جزاءً وفاقاً، ألا ترى أن السحر والكهانة والشعبذة لا تظهر إلا على يد فاسق، قال القزويني: وقد اختلف الناس في السحر، وأثره فقيل: إنه يمكن به تبديل الصورة فيقلب الإنسان كلباً أو تمساحاً، أو حماراً والظاهر أن أمثال ذلك خرافات العوام، وأطال في ذلك اهـ.

قال الشيخ الأكبر: اعلم أني رأيت من طريق كشفنا عصا موسى حية، وعصى السحرة حيات، ولم تفرق العامة بين الحيتين، فلهذا كان الوصول إلى علم ذلك عزيزاً جداً، فإن قلت: فما المراد بتلقف عصى موسى لما صنعوا، فالجواب كما قاله الشيخ الأكبر: إن عصا موسى إنما تلقفت صور الحيات من حبال السحرة وعصيهم فقط، فبدت للناس حبالاً وعصياً كما هي في نفس الأمر هذا تلقفها وذلك كما يبطل الخصم حجة خصمه بالحق، فليس المراد بتلقفها لها إعدامها لها، إذ لو كان المراد أن الحبال أو العصي انعدمت كما توهم بعض المفسرين لدخل على السحرة الشبهة في عصا موسى والتبس عليهم الأمر، فكانوا لم يؤمنوا، فتنبه يا أخي، لذلك فإن الله يقول: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ [طه: ٦٩] وما صنعوا الحبال والعصي بسحرهم، وإنما صنعوا في

أعين الناظرين صور الحيات من الحبال والعصي، وعلى ما توهمه بعضهم يكون المعنى الذي جاء به موسى من قبيل ما جاءت به السحرة، إلا أن سحره أقوى من سحرهم، فإن قلت: فما سبب خوف موسى من عصاه حين ظهرت في صورة حية؟ فالجواب: إنما خاف سيدنا موسى من عصاه ليعلم السحرة أنَّ ذلك ليس هو بسحر منه، فإنه لا يخاف أحد من فعل نفسه، لأنه يعلم أنه لا حقيقة له في نفس الأمر، فإن قلت: فلِمَ سمي السِّحر سحراً؟ فالجواب: لأنه مأخوذ من السَّحر الذي هو قبل الفجر، وهو اختلاط الضوء والظلمة، فما هو بليل لما خالطه من ضوء الصبح، ولا هو نهار لعدم طلوع الشمس، وكذلك هذا الذي يسمى سحراً بسكون الحاء، ما هو باطل محقق، فيكون عدماً، فإن العين أدركت أمراً ما لا تشك فيه، وما هو حق محض، فيكون له وجود في عينه، فإنه ليس هو في نفس الأمر كما تشهده العين ويظنه الرائي، والله أعلم. فعلم أن معجزة كل نبي إنما تكون بحسب ما هو غالب على قومه كما أتى موسى بما يبطل السحر لمَّا كان السحر غالباً على قومه، وكما أتى عيسى بإبراء الأكمه والأبرص، لمَّا كان الطب غالباً على قومه، وكما أتى سيدنا محمد ﷺ بالقرآن الكريم المعجز بفصاحة كل بليغ وفصيح، لمَّا غلب على قريش التفاخر بالفصاحة والبلاغة. باختصار.

وبالجملة: فمن تحقق بالإيمان يعتقد ويصمم أنه لا يضر ولا ينفع سواه تعالى، فلذا قال الشيخ المصنف (حتى) للتعليل (لا نخاف غيرك)، أي سواك (ولا نرجو غيرك) لأن من خاف شيئاً سوى الله تعالى أو رجاه أغلق عليه أبواب كل شيء وسلّط عليه المخافة وحجب قلبه بسبعين حجاباً (و) حتى (لا نحب غيرك) لأن كمال الإيمان أن يرى أنه لا إحسان إلا منه تعالى، وأن الجمال جماله، فلم يحب إلا إياه (ولا نعبد شيئاً سواك) لأن حقيقة الإيمان توجب التحقق بالعبودية لمشاهدته حضرة الربوبية فتنتج دوام العبادة، وملازمته للخدمة له تعالى، وفي الحديث **«لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»** الحديث، (وأوزعنا) أي ألهمنا إلهاماً مصاحباً للتوفيق بدون انقطاع (شكر نعمائك) الرواية هنا بفتح النون مع المد، أي: نعمتك، قال سيدي أحمد زروق: الشكر فرح القلب بالمنعم لأجل نعمته حتى يتعدى ذلك للجوارح فتنبسط بالأوامر وتنكف عن الزواجر، ولما كان زوال النعم قد يكون ظاهراً جلياً، وهو السلب، وقد يكون باطناً خفياً، وهو الاستدراج، وهو يتقي أكثر لغموضه، قال العارف المصنف: (وغطنا برداء عافيتك) من الاستدراج الذي هو كمون المحنة في عين المنّة، وقوله: عافيتك هي السلامة من الآفات الظاهرة والباطنة، ومن أعظمها الاستدراج كما علمت (وانصرنا) أيدنا وأعنّا على أعدائنا الظاهرة والباطنة (باليقين) أي: بالاطمئنان على ما قضيته وقدّرته فينا.

وهو على ثلاثة أقسام: يقين خبر، وهو العلم الحاصل عن خبر الأنبياء بما غاب عن المشاهدة من الجنة والنار وغيرهما من أحوال البرزخ والقيامة، ويقين دلالة وهو الحاصل بالنظر الدال على حدوث العالم وقِدَم مُحدِثه، وكمال صفاته، ويقين مشاهدة، وهو العلم الذي يخلقه الله في قلوب خاصته (والتوكل عليك) وهو الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد. قال القطب المصنف رحمه الله: أول مقام التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عزّ وجل كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء.

وقال سهل: علامة المتوكل على الله تعالى أن لا يسأل أحداً من الخلق حاجة إلا عند الضرورة، ولا يردّ شيئاً جاءه لحديث **«ما أتاك من غير سؤال فخذه، فإنما هو رزق رزقه الله تعالى»**[1] ولا يحبس ما حصل بيده حرصاً عليه لمنافاته التوكل.

قال في اليواقيت للقطب الشعراني: اعلم أن الاكتساب لا ينافي التوكل، ولا ينبغي نصب خلاف في أن السعي أفضل من التوكل على هذا، لأن الله تعالى جعل الرزق على حالين، فما سبق في علمه تعالى أنه يأتيك محمولاً بلا سعي لا يقال فيه أن السعي أفضل وما سبق في علم الله أنه لا يأتيك إلاّ بالسعي في تحصيله، لا يقال فيه: ترك السعي أفضل، فإن الرزق في طلب صاحبه دائر والمرزوق في طلب رزقه حائر، ويسكون أحدهما يتحرك الآخر، ولكن هذا الحال يحتاج إلى كشف. ومن لا كشف عنده، فهو مخيّر بين السعي وعدمه، وغالب الخلق يقولون: كل شيء رأيناه يحتمل أن يكون قُسِمَ لنا فنراهم يتجاذبونه وكل من غلب صاحبه تبين أنه له كالزقاق الذي يدخله الجاهل به، فإن رآه ينفذ خرج منه، وإن رآه مسدوداً رجع هذا على مذهب الصوفية، وأما على مذهب المتكلمين، فرجّح قوم التوكل مطلقاً، وآخرون الاكتساب مطلقاً، قال ابن السبكي والمختار: أن ذلك يختلف باختلاف الناس، فمن كان في توكله خالياً عن السخط إذا ضاق رزقه، ولا تتطلع نفسه إلى ما في أيدي الناس، فالتوكل في حقه أرجح، وقد سُئلَ الحسن البصري رحمه الله تعال عن شخص يريد أن يجلس في بيته كان تاركاً للحرفة ولا يخرج، ويقول: أنا متوكل على الله تعالى، فقال: إن كان له يقين كيقين سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، فليفعل، وإلا فليخرج إلى الحرفة لئلا يصير يأكل بدينه وزهده ويصطاد بهما الدنيا اهـ.

وقال الفريد ابن العربي: اعلم أن اضطراب قلب المؤمن في أمر رزقه لا يقدح في أصل إيمانه، وإنما يقدح في كماله فقط، وذلك لأن هذا الاضطراب ما هو عن تهمة في حق الله تعالى، في أنّ الله تعالى لا يرزقه، وإنما هو اضطراب البشرية لعدم

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

الصبر والإحساس بألم الفقر، فإن العبد يعلم بالإيمان أن الله يرزقه، ولا بد من حيث كونه حيواناً، ولكن لم يعلمه الحق تعالى متى يرزقه، إنما أعلمه أنه لا يموت حتى يستكمل رزقه، فما يدري عند فقد السبب الجالب للرزق، هل فرغ وجاء أجله، فيكون فزعه من الموت أم رزقه لم يفرغ في علم الله تعالى، فيكون اضطرابه لجهله بوقت حصول الرزق بانقطاع السبب فيخاف من ألم الجزع للتوقع، أو من دوامه إن كان وقع فهذا سبب الاضطراب اهـ.

ثم قال الشعراني: وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: قد يدّعي بعض الناس التوكل ويسعى كل السعي، وإن لامه أحد على ذلك يقول سعيي لأجل العيال لا لأجل نفسي، فمثل هذا يجب عليه أن يمتحن نفسه بأن يفرق جميع ما يكتسبه على العيال أولاً فأولاً، ولا يدخر لنفسه منه شيئاً وينظر، فإن وجد في نفسه رائحة اضطراب فليعلم أنه غير متوكل على الله، وإنما هو مدّعٍ كذاب، فإن القوم ما سعوا في الرّزق إلا امتثالاً لأمر الله تعالى، حتى لا تتعطل الأسباب فهمتهم امتثال الأمر لا الاعتماد على الأسباب (واسفر) أشرق (وجوهنا) جمع وجه، (بنور صفاتك) في الدارين، أما الدنيا فدليله قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، فكان كل من رأى سيدنا موسى عليه السلام أحبه، وفي الحديث: «كنت سمعه وبصره»[1] فهذا تجلي الصفات في الدنيا يلبس الله ملابس هيبته لأهل ولايته، فيقومون بعزته مسفرين، وفي الآخرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨﴾ [عَبَسَ: ٣٨] أي: منورة بنور التجلي الصفاتي ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ [عَبَسَ: ٣٩] مسرورة بالفراغ من الحساب ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عَبَسَ: ٣٩] بما أتاها الله من الكرامة، (وأضحكنا) المراد لازمه، وهو السرور (وبشرنا) الظاهر أنها من البشارة بفتح الباء، وهي الحسن والجمال، أي: أعطنا الجمال والحسن (يوم القيامة بين أوليائك) جمع ولي، أي المعنيين بآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يُونس: ٦٢] (واجعل يدك) أي: نعمتك الظاهرة والباطنة فتشمل العلوم والمعارف اللدنية والأخلاق السنية (مبسوطة) منشورة (علينا) أي: على القطب المُصَنِّف، ومن انتسب إليه من أتباعه بتقوى الله تعالى، لأن من اتصف بالتقوى وتحقق بالعبودية، فهذا هو النسب الحقيقي يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقال ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: اليوم أرفع أي أترك أنسابكم، وأضع أي: أثبت نسبي، فأين المتقون» وقال بعضهم:

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه ... فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وقال ابن الفارض:

نسب أقرب في شرع الهوى ... بيننا من نسب من أبوي

والمعنى: أن النسب الكائن بيننا من جهة المحبة والتقوى أقرب من النسب الكائن من أبي وأمي، لكن أقربنيه بشرع الهوى والمحبة والتقوى لا بغيرها، كما علمت، (وعلى أهلينا) أهل الرجل عشيرته، وأقاربه، والمراد هنا: أهل الدين والنسب والطريقة، وهو الأوجه بمقام العارف المصنِّف، ويكون ما بعده تخصيصاً بعد تعميم (على أولادنا) جمع ولد يصدق بالواحد والجمع والمذكر والمؤنث، (ومن معنا) صحبة ومحبة إلى يوم القيامة، كما قال العارف المصنِّف نفعنا الله ببركته: قيل لي يا علي ما شَقِيَ مَنْ رآك ولا من رأى من رآك بعين المحبة والتعظيم، وقال أيضاً: أعطيت سجلاً مد البصر فيه أتباعي وأتباع أتباعي إلى يوم القيامة عتقاء من النار (برحمتك) أي: بإفاضتك إياها علينا، لأن النعمة قد تبسط على غير المرحوم، فيكون من معنى ما تقدم من قوله: فابسط لنا من الرزق ما توصلنا به إلى رحمتك إلى آخره، (ولا تكلنا) تحوجنا إلى (أنفسنا) في كل شيء، فإن النفس جاهلة عاجزة عن تدبيرها (طرفة) أي مقدار لمحة (عين) قيل لما وصل الأستاذ المصنِّف إلى هنا نودي في سرّه (ولا أقل من ذلك) يا أبا الحسن فقال (يا نعم المجيب) ثلاثاً، أي: يكرر يا نعم المجيب ثلاث مرات، فإن قلت: حرف النداء مختص بالأسماء، وهنا أدخله المصنِّف على فعل المدح، وهو نِعْمَ: أجيب بأنه حرف تنبيه، لا حرف نداء والمنادى محذوف أي: يا مجيب مقولاً فيه نعم المجيب، والمجيب هو الذي يقابل الداعي والسائل بالعطاء، (يا من) أدعو الذي (هو) ضمير الشأن مبتدأ وجملة (هو هو) خبره، لأن خبر ضمير الشأن لا يكون إلا جملة، والجملة صلة الموصول، فهو الثاني ضمير يعود على الموصول، ولاثالث بسكون الواو اسم عند القوم من الهوية، وهي عبارة عن: الصفات الكمالية المغيبة في بطون الذات الأقدسيّة فلا يحتاج عندهم، أي: عند القوم إلى تقدير بل هو مفيد، وكلام تام بدون شيء آخر يتصل به، أو يضمر له لاستهلاكهم في حقائق القرب واستغراقهم في بحار الحبّ وغيبوبتهم عن شهودهم وإحساسهم، وفنائهم في رسومهم وأوصافهم، وفقدهم من يشار إليه بهو إلا هو، فلا يسبق إلى قلوبهم سواه كما قال بعضهم:

قم واجتلي صفوة المعالي ... في صفوة الكأس إذ جلاه
واسمع إذا غنت المثاني ... تقول لبيك لبيك يا هو
ما قلت للقلب أين حبي ... إلا وقال الضمير ها هو

ويحتمل عود هو الأول على من وخبره هو الثاني بمعنى: الله، أي: يا من هو المشار إليه بهو، وهو الثالث توكيد، وعلى هذا الاحتمال فهما بسكون الواو فإن الثالث توكيد للأول.

قال سيدي أحمد زروق في النصيحة الكافية لا يجوز يا هو إلا لرجل استغرق في التعظيم حتى لم يبقَ له من رسومه غير الإشارة، ولم يجد حاله إلا في الإبهام، وقال في تعليقه هنا على هذا الحزب معناه: هو الذي لا يمكن أن يشار إليه لجلالته وعظمته، فكأن الذي يقول: يا هو قائل من أنا حتى أعرفك من أنا حتى أخاطبك، وأين المناسبة بين الخالق والمخلوق.

وبالجملة فهو اسم مستقل بمعناه لا ضمير غيبة كما هو موضوع في أصله، بل نقل وسار العُرف عند الصوفية بإطلاقه على الله تعالى، كإطلاق سائر الظواهر، بل ساغ عندهم نداؤه وإدخال يا عليه، وليس عندهم ضمير غيبة فيعترض بأنه لم يسمع في كلام العرب إلا نداء ضمير الخطاب على خلاف فيه، على أنه إنْ قيل لا تجعلوا لأهل الظاهر حجة على أهل الباطن فتجهيل أبي حيان للصوفية في ذلك ليس في محله، لأنه يجهل حالهم، وقال العلامة الجيلي بعد بسط الكلام في هذا المقام: اعلم أن هو عبارة عن حاضر يرجع إليه بالإشارة من شاهد الحس إلى غائب الخيال، وذلك الغائب، لو كان غائباً عن الخيال لما صحت الإشارة إليه بلفظة هو فلا تصح إلا إلى الحاضر بل هو أخص من اسمه الله وأنه سرّه، ألا ترى أنّ اسم الله ما دام هذا الاسم موجوداً فيه كان له معنى يرجع به إلى الحق تعالى، وإذا فكّ عنه بقيت أحرفه غير مفيدة المعنى مثلاً إذا حذف الألف من اسم الله بقي لله ففيه الفائدة، وإذا حذفت اللام الأولى من اللامين بقي له وفيه الفائدة أيضاً، وإذا حذفت اللام الثانية بقي هو والأوفى هو إنها هاء واحدة، بلا واو وما لحقت بها الواو إلاّ من قبيل الإشباع والاستمرار العادي جعلها شيئاً واحداً فاسم هو أفضل الأسماء، ثم قال الشيخ المذكور: وقد اجتمعت ببعض أهل الله بمكة زادها الله شرفاً في آخر سنة تسع وتسعين وسبعمائة فذاكرني في الاسم الأعظم الذي قال النبي ﷺ فيه أنه في آخر سورة البقرة، وأول سورة آل عمران، وقال إنه كلمة هو، وأنّ ذلك مستفاد من ظاهر كلام النبي ﷺ، لأن الهاء آخر قوله سورة البقرة، والواو أول قوله، وأول سورة آل عمران، وهذا الكلام وإن كان مقبولاً، فإني أجد للاسم الأعظم رائحة أخرى وما أوردت ما قاله هذا

البعض إلا تنبيهاً على شرف هذا الاسم، وكون الإشارة النبوية وقعت عليه من الجهة المذكورة أنه أعظم الأسماء اهـ.

(في علوه قريب) أي: قريب مع رفعة شأنه، وعظمة سلطانه، فقربه تعالى ليس قرب مسافة ولا مساحة، لاستحالة ذلك عليه تعالى.

قال الأستاذ الشعراني في «اليواقيت»: سألتُ شيخنا الخواص عن فلان قريب من الله أو بعيد منه تعالى، وهو تعالى أقرب إلى كل إنسان من حبل الوريد، فقال رضي الله عنه: القرب والبُعد يرجعان إلى شهود العبد في نفسه لا إلى الحق تعالى، فهو أمر إضافي لله تعالى، فانظر ببصر الإيمان تجد الله في كل شيء، وعند كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء، وقريباً من كل شيء، ومحيطاً بكل شيء، بقرب هو وصفه، بمحيطة هي نعته، فهو منزّه عن الظرفية والحدود، قال الفاسي: اعلم أنما جرى في كلامه تعالى من الظروف ليست زمانية، ولا مكانية، لأنها من جملة الأكوان، وإنما هي أمور ذوقية اهـ.

وقال بعض العارفين: قرب العبد من الله تعالى كرامته له، وبُعده طرده وإهانته له، لأن تداني الذوات محال عليه تعالى، (يا ذا الجلال) هو عبارة عن صفات العظْمة والكبرياء والمجد، (والإكرام) أي: الإنعام على عبيده بالإيجاد والإبقاء، وغير ذلك (يا محيطاً بالليالي والأيام) وغيرهما من كل شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فُصِّلَت: ٥٤] إحاطة تليق بجلاله.

(أشكو إليك) الشكوى إظهار البث، والبث عظيم الحزن، الذي لا يصبر عليه حتى يُبث إلى الناس، قال بعضهم:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع[1]

والشكوى من السالكين قبيحة ومن المحبين فضيحة، بل ربما كانت تزيد في اللهيب، لأن الشكوى لا تنشأ إلا عن دعوى الوجود من المحب، كما قال ابن الفارض:

ومتى أشكو جراحاً بالحشا ... زيد بالشكوى إليها الجرح كيْ

---

(١) هذا البيت هو لابن نباتة المصري من شعراء العصر المملوكي (٦٨٦ ـ ٧٦٨هـ) وقبلهما بيتان هما:

وناعورةٌ كانت قضيباً فأصبحت ... إلى القضبِ شوقاً كالحمامة تسجع
شكوتُ لها ضرّ الغرام وحالها ... كحالي بكاءً أو حنيناً يرجع

ومعنى هذا البيت: كلما حصلت مني شكاية للجراح المستقرة عندي في باطني رجاء زوالها حصل لي كي وإحراق لباطني زيادة على ما عندي، فالمحن بالشكاية تزيد، لأن الشكوى مبنية عن دعوى الوجود معها، والمحبوب يغار أن يكون معه في الوجود غيره، قال الجنيد قُدس سره، ونفعنا به: ما انتفعت بشيء كانتفاعي بأبيات سمعتها، وأنا مار في بعض الطرقات، وهي:

إذا قلت أهدى الهجر لي حلل البلا ... تقولين لولا الهجر لم يطب الحبّ
وإن قلت هذا القلب أحرقه الجوى ... تقول بنيران الجوى شرف القلب[1]
وإن قلت ما ذنبي إليك أجبتني ... وجودك ذنب لا يقال به ذنب

والشكوى من المجذوبين إذا كانت لله بالله صحيحة، ومن الكاملين موازين رجيحة، قال تعالى حكاية عن سيدنا يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦] فالمطلوب من المحب أن لا يبث شكواه في سره، ونجواه إلا له تعالى. قال العلامة القليوبي: أشكو إليك، أي أستجير بك (من غم الحجاب) وهو كل ما أشغل عن الله تعالى، واعلم أن الحق تعالى ليس محجوباً، وإنما المحجوب هو العبد عن النظر إلى الله تعالى، لأن المحجوب اسم مفعول، ولا بد أن يكون الحجاب أعظم من المحجوب، ولا أعظم من الله تعالى بل ولا عظيم معه سبحانه وتعالى فعلم أن الحق لا يحجب، وإنما المحجوب هو العبد، كما علمت فمن رق حجابه وطهر نفسه من العيب كشف له الغيب (وسوء الحساب) أي: المناقشة فيه والذي يناقش في الحساب هو المحب للدنيا المعرض عن الله تعالى، فإذا مات مات محروماً من معشوقه التي هي الدنيا محروماً من رؤية جمال الله تعالى، (وشدة العذاب) هو النكال والعقوبة، ولولا الحجاب، ما وقع العذاب. ولذا كان يقول السري السقطي: اللهم إن عذبتني بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب، فالحاصل أن الحجاب هو السبب في الحساب والعذاب، لأنه متى حجب، وقع منه المخالفات فيحاسب ويعذب عليها فعطف سوء الحساب وشدة العذاب على غم الحجاب من عطف المسبب على السبب (وإن ذلك) أي: غم الحجاب، وسوء الحساب وشدة العذاب، ﴿لَوَٰقِعٞ﴾ [الطُور: ٧] نازل بي ﴿مَّا﴾ [الطُور: ٨] ليس ﴿لَهُۥ﴾ [الطُور: ٨] لوقوعه ﴿مِن دَافِعٖ﴾ [الطُور: ٨] يدفعه عني (إن لم ترحمني) برحمتك الواسعة

(١) هذان البيتان أوردهما اليافعي في كتابه «مرآة الجنان وعبرة اليقظان» نقلاً عن الإمام الجنيد الذي سمعهما بدوره من جارية تنشدهما.

الاختصاصية الإلهية ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] معبود ترفع إليه الشكوى ﴿إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] هي من يونس بن متى عليه السلام، إخباراً عن الماضي من ذهابه عن قومه مغاضباً بلا إذن خاص، وإما من غيره، فهي إخبار عن الحال، فهي للدوام لا للماضي، والشيخ المصنف لما شكى من غم الحجاب وما بعده، نادى بها تأسياً بيونس عليه السلام حين أحاط به الذنب، فنجاه الله ووعد من آمن وصَدَقَ في الالتجاء إلى الله تعالى، واعترف بالذنب أن ينجيه، وهو تعالى لا يخلف الوعد، ويكرر التالي للحزب ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ثلاث مرات، لما ورد في فضلها أنه لم يدعُ بها رجل مسلم في شيء إلا أجابه الله تعالى فيه اهـ.

تنبيه: قال الشعراني في «اليواقيت» عن ابن العربي قال: إن الجواب عن سيدنا يونس عليه السلام، فيما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] الآية، فالمراد بقوله: أن لن نقدرَ عليه أي يونس ظن أن الله لا يضيق عليه لما عهده من سعة رحمته من باب قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] أي ضُيِّقَ عليه، وإنما آخذه الله تعالى لكونه قصر في ذلك الاتساع الإلهي على نفسه فقط، ولم ينظر ذلك في حق غيره من أمته فأُسْكِنَ في ظلمة بطن الحوت ما شاء الله تعالى لينبهه تعالى على حالته حين كان جنيناً في بطن أمه من كان يدبره فيه وهل كان في ذلك الموطن يتصور منه أن يغضب أو يغاضب، بل كان في كنف الله تعالى لا يعرف سوى ربه، فرده تعالى إلى هذه الحالة في بطن الحوت تعليماً له بالفعل لا بالقول، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي سبحانك يا رب تفعل ما تشاء وتبسط رحمتك على من تشاء، وهذا كالاعتذار عن أمته، وقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي: أثر غضبي رجع عليَّ كونه من غير إذن كما مرّ ما أنت ظلمتني، لأن علمك ما تعلق بي إلا على هذا الحال، ثم لما زالت ظلمة المغاضبة ظلمة تليق بمقام الأنبياء، وانتشر النور اللائق بكمال النبوة في قلبه استجاب له ربه فنجاه من الغم، فقذفه الحوت من بطنه مولداً على الفطرة السليمة، فلم يولد أحد من بني آدم ولادتين سوى يونس عليه السلام، فخرج ضعيفاً كالطفل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ [الصافات: ١٤٥] ورباه تعالى باليقطين، وذلك لأن ورقه ناعم لا ينزل عليه ذباب إذ الطفل لضعفه لا يستطيع أن يرد الذباب عن نفسه فغطاه الله تعالى بهذه الشجرة التي لا يمر عليها ذباب مع نعومة ورقها، فإنه مثل القطن في النعومة اهـ. ولما وقعت الشكوى من الشيخ المصنف أتى بما يدل على أن له أسوة بمن سيذكرهم

من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقال: (ولقد شكى إليك يعقوب) أبو بني إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، حاله من فراق ولده، وتوالي همومه وأحزانه (فخلصته من حزنه) بفرحه لما شم رائحة القميص التي أوصلها إليه ريح الصبا بإذن الله تعالى من مسيرة ثلاثة أيام، لأن ريح الصّبا من شأنها أن تبلغ الأخبار، ولذا ترى العشاق يذكرونها في أشعارهم، كقول بعضهم:

أيا جبلي نعمان بالله خليا طريق الصبا يخلص إليّ نسيمها
أجد بردها أو تشف مني حرارة على كبد لم يبق إلا صميمها
فإن الصّبا ريح إذا ما تنفست على كبد حرا تجلت همومها[1]

وكان القميص من حرير الجنة، أتى به جبريل لإبراهيم حين ألقي في النار، فورثه يعقوب من أبيه إسحاق، وجعله في قصبة من فضة وسد رأسها ووضعها في عنق يوسف عليه السلام لخوفه عليه من العين، فكان لا يفارقه، فلما قضى الله بذهاب حزن يعقوب، أمر جبريل يوسف أن يرسل القميص لأبيه، فهبّت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا فشمها، فاستبشر بحياة يوسف، فانشرح صدره، وذهب حزنه، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، (ورددت عليه ما ذهب من بصره) أي ما زال منه من صورة العمى، وليس عمى حقيقة، لأنه مستحيل على الأنبياء، (وجمعت بينه وبين ولده) يوسف الصديق بمصر بعد طول الفراق قبل ثمانية عشر سنة، وقيل أربعون، وعليه الأكثر، ولما حضر يعقوب الوفاة أوصاه بحمله ودفنه عند آبائه إبراهيم وإسحاق وسارة بجيرون بأرض الشام فكان كذلك، ورجع يوسف عليه السلام إلى مصر، وعبر الشيخ المصنف بالشكوى لمناسبة قول يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦].

لطيفة: قد ذكر الفريد ابن العربي في «الفتوحات» في الباب السابع والستين وثلاثمائة: أن روحه اجتمعت بروح سيدنا يوسف الصديق عليه السلام في بعض الإسراءات الروحية، فقال له: يا نبي الله ما معنى الاشتراك في إخبار الله تعالى عنك

---

(١) قائل هذه الأبيات هي أسماء المرية من العصر الجاهلي. روى القالي في أماليه أن أسماء المرية هي صاحبة عامر بن الطفيل، وقال البكري أسماء فزارية أمها مرية ولها شعر في كتاب شعر قبيلة ذبيان في الجاهلية. والأبيات ضبطت على النحو التالي:

أيا جَبَلي نُعمانَ باللهِ خَلّيا نَسيمَ الصَبا يَخلُص إِلَيَّ نَسيمُها
فَإِنَّ الصَبا ريحٌ إِذا ما تَنَفَّسَت عَلى قَلبِ مَحزونٍ تَجَلَّت هُمومُها
أَجِد بَردَها أَو تَشفِ مِنّي حَرارَةً عَلى كَبِدٍ لَم يَبقَ إِلّا صَميمُها

بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يُوسُف: ٢٤]، فإنه تعالى لم يعين في ماذا ولا يخفى إن اللسان يدل على أحدية المعنى، فقال يوسف عليه السلام: نعم ولذلك قلت للملك على لسان رسوله أن يسأل النسوة، فما ذكرت المرأة إلا أنها راودتني عن نفسي، وما ذكرت أني راودت، فافهم ما قلت لك، فإنه به يزول ما كان يتوهمه بعض الناس لما لم يعين الله تعالى أمر همي وهمها، فقلت له: يا نبي الله اللسان يؤذن بالاشتراك، فقال: نعم صدقت، لكن في اللفظ دون المعنى، فإنها همت بي لتقهرني على ما كانت أرادت مني، وهممت أنا بها لأقهرها بالدفع عن ذلك فالاشتراك في طلب القهر مني ومنها، فكأنه تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ [يُوسُف: ٢٤] يعني في عين ما همّ بها، وليس إلا القهر فيما يريد كل واحد من صاحبه، دليل ذلك قول المرأة: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يُوسُف: ٥١] وما جاء في قصتي قط أنني راودتها عن نفسها، فأراني الله تعالى البرهان غير إرادتي القهر في دفعها عني أولاً بالقول اللين كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] أي لا تعسف عليها يا يوسف وسسها، فإنها امرأة موصوفة بالضعف على كل حال، ثم قال الشيخ محيي الدين المذكور: فقلت له: أفدتني أفادك الله فافهم اهـ. (ولقد ناداك) أي دعاك صفيك ﴿نُوحٌ﴾ [نُوح: ٢١] ابن لامك اسمه عبد الغفار وسمي نوحاً لكثرة نوحه عل نفسه ابن متوشلخ ابن أخنوخ وهو إدريس ابن يرد ابن مهلايبل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم، والأكثر على أن بين هبوط آدم عليه السلام من الجنة، وبين الطوفان ألفي سنة ومئتين واثنتين وأربعين سنة، وأن نوحاً عاش ألف سنة منها في قومه مرسلاً وغير مرسل ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان خمسين سنة، وكانت معجزته في نفسه، لأنه عمر ألف سنة، فلم ينقص له سن ولم يشب له شعرة، ولم تنقص له قوة، ولم يصبر أحد على أذى قومه ما صبر هو مع طول عمره وهو أول نذير على الشرك وأول من عُذبت أمته لردهم دعوته، وأهلك الله أهل الأرض بدعائه إلا من كان معه في السفينة، أي بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نُوح: ٢٦] قال في «اليواقيت» للشيخ الشعراني: إنما كان دعاء سيدنا نوح على قومه رحمة بهم، خوف أن يشتد عليهم غضب الله تعالى أكثر مما كانوا فيه، وقد أمرنا نبينا ﷺ أن يقول أحدنا إذا خاف من وقوعه في فتنة: «**اللهم توفني إذا كانت الوفاة خيراً لي**»[1] فلم يكن دعاؤه على قومه من غضب نفسي حاشا الأنبياء من ذلك،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب نهي تمني المريض الموت، حديث رقم (٥٣٤٧) [ج٥ ص٢١٤٦]، ورواه مسلم في صحيحه، باب تمني كراهة الموت لضر نزل به، حديث رقم (٢٦٨٠) [ج٤ ص٣٠٦٤] وورواه غيرهما.

وقال الشيخ ابن العربي رحمه الله تعالى: ليست دعوة نوح التي يعتذر بها يوم القيامة، قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [نوح: ٢٦] الآية، إنما هي قوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] لكونه تحكم على الله فيما لم يعرفه، ولم يزل الحق يربي أنبياءه بأدب بعد أدب، ولما أنزل على النبي ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] الآي، قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[١] اهـ (من قبل) أي: قبل يعقوب، فقطع عن الإضافة لفظاً ونوى معنى فبنى على الضم، (فنجيته من كربه) أي من أذى قومه ومن الغرق، (ولقد ناداك أيوب) هو من ذرية العيص بن إسحاق، وكان من الأنبياء الذين بسط الله لهم في الرزق، (من بعدُ) أي من بعد نوح ويعقوب حين ابتلي بفقد أولاده، وهلاك جميع أمواله، وتمزيق جسده بصورة الجدري، وهجر الناس له إلا زوجته، وكانت من ذرية يوسف الصديق عليه السلام وطالت مدة البلاء إلى ثمان سنين، وقيل أقل، وقيل أكثر (فكشف ما به من ضر) أي شفيته من المرض، وأحييت أولاده الذكور والإناث ومثلهم معهم ورددت ماله عليه وأضعافه.

فائدة: قال في «اليواقيت» للشيخ الشعراني قدس الله سره ونفعنا ببركته: اعلم «أن سيدنا أيوب في جمعه الذهب في ثوبه لما أمطر الله عليه رجلاً من جراد من ذهب، وقال له ربه: ألم أكن أغنيتك عن هذا، فقال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن خيرك وبركتك» فأجيب عنه بأن أكابر الأولياء فضلاً عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لا ينقص كمالهم أخذ الدنيا وإمساكها، فإن كان أيوب عليه السلام جمع الذهب في حجره لما هو عليه من ظاهر الحال، فهو صحيح مع أنه قانع بلا شك، لأن القناعة عند أهل الله تعالى ليست هي الاكتفاء بالموجود من غير طلب مزيد، وإن كان فعل ذلك ليقتدي به قومه فما فعل إلا ما هو أولى بالقربة إلى الله تعالى من تركه، لا سيما وأيوب عليه السلام ممن هدى الله تعالى، وممن أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقتدي بهداهم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] فقد رجعت القناعة بهذا التقرير إلى بابها في لسان العرب، وهي المسألة، فإن القانع هو السائل، لكن من الله لا من غيره، قال تعالى في الظالمين يوم القيامة: ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي: رافعين رؤوسهم إلى الله تعالى يسألونه العفو والمغفرة عن جرائمهم، فعلم أن من سأل غير ربه فهو ظالم إلا أن يرى أن ذلك الغير باب من أبواب الله تعالى من غير وقوف معه، فإن لم يكن كذلك خيف عليه الحرمان والخسران، ولا يخفى أن السائل موصوف بالركون إلى من يسأله، والله تعالى يقول:

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٦٤) [ج١ ص٧٢] وأورده ابن حجر العسقلاني في «الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع» [ج١ ص٩٧].

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هُود: ١١٣] ومن ركن إلى نفسه، أو إلى جنسه فقد ركن إلى ظالم لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ [الأحزَاب: ٧٢] أي الإنسان ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزَاب: ٧٢] ثم قال سيدي محيي الدين: اعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكمل الأولياء ما أمسكوا الدنيا إلا باطلاع عرفاني أنتج لهم ما عشقهم في الإمساك من نفع الأنفس بالأقوات التي قدر الله تعالى وصولها لأصحابها في أوقات مخصوصة، فما أمسكوا الدنيا عن بخل ولا ضعف يقين حاشاهم من ذلك، قال: وانظر إلى أيوب عليه السلام: كيف أعطته المعرفة المذكورة أنه صار يحثو في ثوبه من الذهب لما أمطر عليه، وهو يقول: لا غنى لي عن بركتك، (ولقد ناداك يونس) ذو النون، أي صاحب الحوت، وهو ابن متى اسم لأبيه على قول الأكثر، وقيل اسم لأمه من بني إسرائيل من ذرية بنيامين بن يعقوب ومبعثه بعد سليمان، وقيل بعد شعيب، وقيل بعد إلياس (فنجيته من غمه) أي: بإخراجه من بطن الحوت، وألقيته بجانب البحر، وأنبت عليه شجرة اليقطين حتى نبت جلده وصح جسمه، وأرسلته ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصَّافات: ١٤٧]، (ولقد ناداك زكريا) بالمد والقصر ابن برخيا من ذرية سليمان بن داود حيث قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عِمرَان: ٣٨] (فوهبت له ولداً) وهو يحيى، وكان سيداً متبوعاً وحصوراً ممنوعاً من النساء ونبياً من الصالحين، لم يعمل خطيئة قط، ولم يهم بهم، وآتاه الله الحكم صبياً، قيل نُبيء، وهو ابن ثلاث سنين، وقتله اليهود في حياة أبيه، فغضب الله عليهم فسلط عليهم قسطنطين ملك الروم، فقتل منهم سبعين ألفاً، ولم يترك القتل منهم حتى سكن دم يحيى عن الفوران، ولما كانت الولادة، قد تكون بالتبني والرضاع، قال هنا (من صلبه) أي: من ظهره (بعد يأس أهله) أي: زوجته، واسمها أشاع أخت أم مريم بنت عمران، لأن يحيى ابن خالة مريم، وولد سيدنا عيسى بعد يحيى بثلاث سنين، وكان حملها بعد أن بلغت من العمر ثمانياً وتسعين سنة، (وكبر سنه) فإنه بلغ نهاية السن الطبيعي مائتان وعشرون سنة، وكبر بكسر الكاف، وفتح الباء (ولقد علمت ما نزل بإبراهيم) ابن تارخ، وهو آزر على ما قيل، وولد ببابل وعاش مائة وعشرين سنة، ومات ودفن بمزرعة جيرون عند زوجته سارة (فأنقذته من نار عدوه) وهو النمرود فنزع الله من النار طبعها من الحرق والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق، وأنبع الله له عين ماء عذب، وأنبت الله له الورد والنرجس، وجاءه جبريل بقميص من حرير الجنة، وطنفسة، وألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة، وقعد معه يحدثه، وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام، وكان سنه إذ ذاك ثلاثين سنة، وفي الحديث الشريف لما ألقي إبراهيم في النار قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣] فما احترق منه إلا موضع الكتاف أي الشيء الموثوق به.

فائدة: ذكر الشيخ الأكبر في الباب السابع والستين وثلاثمائة من «الفتوحات»: أنَّ روحه اجتمعت بروح سيدنا إبراهيم عليه السلام، قال: فقلت له: يا أبت لمَ قلت: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠] مع أنك من المؤمنين بذلك بلا شك، فقال: صحيح، ولكن للأحياء وجوه كثيرة كما كان إيجاد الخلق فمنهم من أوجده الله تعالى عن كلمة كن ومنهم من أوجده بيديه، ومنهم من أوجده عن خلق آخر، فطلبت العلم بتعيين وجه من هذه الوجوه، فإذا أعلمني به اطمأن قلبي. ثم قال الشيخ: فقلت له يا أبت، ثم قلت: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] قال: لأنهم كانوا قائلين بكبرياء الحق تعالى على آلهتهم التي اتخذوها، فقلت له: فماذا أردت بإشارتك بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، قال لي: أنت تعلم المراد بها، فقلت له: إني أعلم أنها إشارة ابتداء وخبره محذوف يدل عليه قولك: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] إقامة للحجة عليهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما زدت على ما كان الأمر عليه» فقلت له: فما كانت خطيئتك في قولك: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٢] فقال: هي نسبة المرض إلى نفسي في قولي، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٠] مع أنه في الحقيقة لم يمرضني إلا الله تعالى، فهذا كان خطيئتي، فكان في إضافة المرض إلى نفسي ثم طلبي المغفرة من تلك الإضافة أدبان، فقلت له: فلمَ قال تعالى في حقك: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٠] فخص صلاحك بالآخرة، وأطلق الصلاح لغيرك من الدنيا والآخرة، فقال: لأن الصلاح من شرطه أن لا يضيف إلى نفسه شيئاً إلا بإضافة الله تعالى، وقد أضفت إلى نفسي ما ليس لها بغير إذن خاص من الله تعالى بقولي: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٠] وقولي: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصَّافات: ٨٩]. قاله الشعراني في «اليواقيت» نقلاً عن الشيخ الأكبر المذكور.

(وأنجيت لوطاً وأهله) وأولاده (من العذاب النازل بقومه) وهم من أهل المؤتفكة، وكانت مدائنهم سبعة، وكان بها أربعة آلاف ألف، فلما طغوا وبغوا وتجاهروا باللواط والمعاصي أنزل الله عليهم العذاب، بأن أدخل جبريل جناحه تحت مدائنهم، واقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ولم يكفِ لهم إناء ولم يتنبه نائم، ثم أسقطها مقلوبة، وأمطر عليها بعد القلب حجارة من طين طبخ بالنار يتبع بعضها بعضاً مكتوب عليها اسم من يرمي بها، ولما أتى الشيخ المصنف بذكر ما وقع لهؤلاء الأخيار، كما دلّ عليه القرآن النازل بالإنذار، وكان ذلك دليلاً على حسن عوائده تعالى مع المختارين، وقرب إغاثته للمضطرين من عباده المؤمنين، قال ملتجأ لفضله بفضله (فها أنا ذا عبدك) المحتاج لما عندك، فقير

لفضلك تتصرف فيه كيف تشاء من غير حجب عليك، والهاء للتشبيه والضمير مبتدأ، واسم الإشارة بدل منه وعبدك خبر (إنْ تعذبني بجميع ما عَلِمت) الرّواية بالفتح خطاباً للحق تعالى (مِنْ) أنواع (عذابك) الذي لا علم لأحد بأنواعه غيرك (فأنا حقيق به) لكوني مملوكاً لك، ولك التصريف المطلق والعبد مجبول على النقص الذاتي، فلا يناسبه إلا الإبعاد عن حضرة القدس، لولا أن الله تعالى يدركه بالعناية الأزلية، والرحمة الربانية الواسعة، كما قلت وقولك الحق، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النّور: ٢١].

والحاصل: أن محاسن العباد مساوىء وحقائقهم دعاوى، لأن الدعوى الصادقة تحدث في القلب ظلمة، فكيف بالكاذبة كما قيل:

فدعوة المرء تطفي نور بهجته ولو بحق فكيف المدعي زللا

وسئل إسماعيل السلمي رحمه الله تعالى عن هذه الدعاوى من أين تتولد، فقال: من الاغترار وتشويش الأسرار، ويقول أيضاً: إنما تتولد من فساد الابتداء فمن صحت بدايته صحت نهايته.

وكان العارف ذو النون المصري يقول: كل مدع محجوب بدعواه.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته يقول: عليك بالعمل وإياك وشقشقة اللسان بالكلام في طريق القوم دون التخلق بأخلاق أهله.

وسمعت من شيخنا الأستاذ السباعي نقلاً عن والده العارف السيد صالح السباعي قدس الله سرهما ونفعنا ببركاتهما أنه كان يقول منشداً:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها(١)

وقال الأستاذ الشعراني نفعنا الله تعالى به في العهود الصغرى: أخذت علينا العهود أن لا نقر النفس قط على دعواها العلم والمعرفة فوق جميع أقرانها، وقد كثرت الدعوى في هذا الزمان، وكثر المرشدون مع احتياجهم للمربي، وانتهكوا حرمة الطريق ويتكلمون بما يوهم الناس أنهم من أهلها، ويحسبون أنهم على شيء، يملأون بطونهم من الطعام سواء كان حلالاً أو حراماً.

---

(١) هذا البيت هو للشيخ أبي بكر الشبلي دلف بن جحدر، كان في مبدأ أمره والياً في دنباوند من نواحي رستاق الري ثم زهد في الدنيا وصار من أئمة التصوف الذين يستشهد بأقوالهم، ولد في مدينة سر من رأى سنة ٢٤٧هـ وتوفي في بغداد سنة ٣٣٤هـ.

وقد أشار إلى ذلك ابن الفارض قدس سره بقوله:

تعرّضَ قومٌ للغرام وأعرضوا بجانبهم عن صحة فيه فاعتلوا
رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا
فهم في السرى لم يبرحوا عن مكانهم وما ظعنوا في السير عنه وقد كلّوا

يعني: أن هؤلاء القوم المذكورين تصدوا لدعوى المحب الرباني مع كونهم معرضين عن طريق السداد متصدين بمجرد الدعوى الكاذبة بتدليس أنفسهم عليهم أنهم عرفوا الله المعرفة الذوقية فأحبوه تعالى مع أنه لا يعرف الله تعالى المعرفة المذكورة إلا من فني واستهلك عن بشريته في وجود الحضرة الإلهية، وبيان ذلك أن سبب الفناء المذكور أن المحبوب الحقيقي إذا توجه بجماله إلى عبده السالك في طريقه تعالى نور قلبه، فتضمحل رسوم ذلك العبد فيموت الموت الاختياري بموت نفوسهم.

كما قال سبط ابن الفارض:

فاحياء أهل الحب موت نفوسهم وقوت قلوب العاشقين مصارع

كما مر مع كونهم لا يفنون عن دعوى وجودهم في وجود ربهم الحق، فلم يعرفوه المعرفة الذوقية، فلم يموتوا الموت الاختياري، ومع ذلك ادعوا معرفة الله كذباً، كمن ينظر إلى غيره، وهو يأكل شيئاً حامضاً فيتلمظ هو من الحموضة متوهماً إنه ذائق لذلك، وليس في فمه شيء، وكذلك هؤلاء المدعون ليس عندهم شيء.

فائدة: قال الشيخ الشعراني في «الكبريت الأحمر» نقلاً عن الشيخ الأكبر بعد كلام طويل في هذا المعنى: والحاصل أن كل من أبعده الله تعالى عن شهود حضرته وتجليات أسمائه وصفاته، فإنه يموت ويهلك من حيث إنسانيته. وروحانيته، وكل من أدناه من شهود حضرة أسمائه وصفاته، فإنه يحيا به تعالى ويتجلى حياته الأبدية عليه، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ثم قال الشعراني المذكور عن الشيخ المذكور في معنى هذه الآية: اعلم أن ورود الموت على النفوس لا يكون إلا عن حياة سابقة، إذ الموت لا يرد إلا على حي والتفرق لا يكون إلا عن اجتماع، وكذا الحكم في موت النفس بعد العلم، فإن قيل إن العلم بالله طارىء الذي هو حياة النفوس، والجهل ثابت لها قبل وجود العلم، فكيف يوصف الجاهل بالموت، وما تقدم عِلْمٌ يحيا به، قلنا العلم بالله سبق إلى كل نفس في العهد الميثاقي حين أشهدهم على أنفسهم، فلما عَمُرَتْ الأنفس الأجسام الطبيعية في الدنيا، فارقها العلم بمعرفة الله وتوحيده، فبقيت النفوس ميتة بالجهل بمعرفة الله وتوحيده، ثم بعد ذلك أحيا الله بعض النفوس بمعرفة الله وتوحيده تعالى وإحياؤها كلها بوجود الله إذ كان من ضرورة

العقل العلم بوجود الله تعالى، فلهذا سمي ميتاً، فلما ردّ إليه علمه حَيي به كما ترد الأرواح إلى أجسادها في الدار الآخرة.

ولنرجع لما نحن فيه فنقول: قال الشعراني في العهود الصغرى المذكورة وبالجملة، فالشيخ الذي يدل على الله تعالى يجب أن يكون قد سلك على طريقة شيخ عارف من مشايخ الطريق وتعب فيها وجاهد نفسه حتى زالت عنها الدعوات، وسلم من العقائد الزائفة، وإلا فيجب اجتنابه، فينبغي لمن تشوقت نفسه إلى سلوك طريق التجريد حتى يستغرق في بحار التوحيد، أن يلازم التقوى والالتجاء إلى الله تعالى والتوسل إليه برسوله الصادق الأمين ﷺ أن يجمعه على شيخ عارف يدله على الله تعالى ويصافيه ويسقيه من خمر المحبة الإلهية، فإذا اجتمعت به فشد يدك عليه، وكن كالميت بين يديه، وقل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] ثم خذ في الجد والاجتهاد، وجد بنفسك لا بالمال، كما قال ابن الفارض:

ومن لم يجد في حب نعم بنفسه وإن جاد بالدنيا إليه انتهى البخل

ثم قال: وإن أفصحنا عن المفاسد الواقعة الآن يطول علينا الحال والأمر لله وإنا إليه راجعون.

ولنرجع لما نحن فيه فنقول: قال المصنف: (وإن ترحمني) برحمتك الواسعة التي لا تتوقف على شيء بل مجرد هبة ومنّة، (كما رحمتهم) أي مثل رحمتك لهؤلاء الأصفياء الأخيار، (مع عظيم إجرامي) أي آثامي وذنوبي، (فأنت أولى بذلك) الفضل والإنعام الناشىء عن الرحمة، لأنك الموصوف بالكمال، والغنى المطلق (وأحق من أكرم) أنعم (به) لأن الكريم لا يتخطاه أمل المؤملين، لكن لما كان إكرام الله لعبده ومعاملته له بالكرم غيباً لا اطلاع لنا عليه، وجب على العبد أن لا يغتر بكرم الله تعالى، كأن يتهاون بالأوامر، ويفعل المعاصي ويتكل على كرمه تعالى، لأن ذلك من تلاعب الشيطان ألا ترى أن الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه يقول: والله لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى رجلي في الجنة والأخر خارجها بل يعمل ويرجو القبول اتكالاً على الكرم، كما تقدم نظير ذلك، ولما استشعر الشيخ المصنف أن من تقدم من الأنبياء لهم طاعات ومقامات تقتضي ما فعل بهم لكونهم أفضل خلقه تعالى، وأنى لغيرهم ذلك قال (فليس كرمك) بإنعامك وإحسانك (مخصوصاً بمن أطاعك) دواماً من غير تخلل عصيان، (وأقبل عليك) كمن تقدم ذكرهم من الأنبياء الأصفياء الأخيار، (بل) إضراب انتقالي على سبيل الترقي.

(هو) أي كرمك (مبذول) بالذال المعجمة من البذل، وهو العطاء من غير مقابل (بالسبق) المتقدم الأزلي (لمن) للذي (شئت) أردته (من خلقك) فإن الفضل بيدك تؤتيه من تشاء من عبادك (وإن عصاك) بأنواع العصيان غير الشرك، (و) إن (أعرض) أي: مال عنك إلى الأغيار اعتباراً بإحسانك السابق واللاحق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرّعد: ٦].

وقال السفيري في شرح البخاري: قيل إن موسى عليه السلام قال في بعض مناجاته: يا رب، قال له تعالى: لبيك يا موسى، يا رب أنت أنت، ومن أنا حتى أجاوب بالتلبية، فقال: يا موسى إني آليت على نفسي أن لا يدعوني عبد من عبادي بالربوبية إلا أجبته بالتلبية، فقال موسى: يا رب هذا لكل عبد طائع، قال: ولكل عبد مذنب، قال: يا رب الطائع فبطاعته، فما بال المذنب، فقال تعالى: يا موسى إني إذا جازيت المحسن بإحسانه، وضيعت المسيء لإساءته، فأين جودي وكرمي اهـ.

وكل ذلك بالفضل والمنّة لا تأثير للعمل فيه (فليس من شأن الكرم) الذي يستوي عند صاحبه تعالى طاعة المطيع ومعصية العاصي (أن لا تحسن) أي تنعم بالثواب والإكرام إلا لعبد أحسن إليك، وحاصل المعنى: هو وصف لك ليس مخصوصاً بمن لازم الطاعة، وقوله: إلا لمن أحسن إليك، أي على عبادك، لأن الإحسان لله إحسان لخلقه، لأن الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥] أي يقرض عباد الله المحتاجين (وأنت المفضال الغني) عن الخلق، وعن عبادتهم، قال في الحكم لا تنفعه طاعتك، ولا تضره معصيتك، وإنما أمرك بهذه، ونهاك عن هذه لما يعود إليك، لا له تعالى، لأنه الغني على الإطلاق الذي لا يجوز ولا يصح افتقاره، ولا احتياجه لشيء، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فَاطِر: ١٥] الآية اهـ.

(بل من الكرم أن تحسن) بما تشاء من أنواع النعم (إلى من أساء إليك) أي عصاك أو أساء إلى عبادك كما علمت، وفي التنزيل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزَاب: ٥٧] الآية، أي يفعلون في الله ما صورته أذى، وإن كان تعالى لا يلحقه ضرر من ذلك حيث وصفه تعالى بما لا يليق بكماله، وفي الحديث القدسي: **«كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه فقوله: اتخذ**

الله ولداً، وأنا الأحد الصمد»[1]. وفي بعض الأخبار «من آذى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»[2] وفي حديث أبي هريرة «فقد آذنته بالحرب» (وأنت الرحيم) فيّاض الرحمة على عبادك (العلي) أي عز أن يدرك كرمك أحد من خلقك (كيف) لا تحسن لمن أساء إليك (و) الحال إنك (قد أمرتنا) أي: في كتابك القديم، (أن نحسن إلى من أساء إلينا) بقولك: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٩٥]، (فأنت أولى) أحق (بذلك) أي: بالإحسان إلى المسيء (منا) معاشر الناقصين، وأنت لكمالك الذاتي أكرم الأكرمين، واعلم أن هذا الكلام أتى به الشيخ المصنف إشارة إلى مقام الشطح الذي هو مقام أهل الدّلال والانبساط الذين دأبهم عدم الخوف منه تعالى لغاية قربهم من تجلياته تعالى على قلوبهم، فهم أهل جذب وأحوال فقد يمكث المجذوب دهره كله لا يحس بجوع ولا عطش ولا برد بل ربما ذهب عمره كله كلمحة بارق، قال ابن العربي، واعلم أن حالة أيام جذب المجذوبين تكون بحسب الحالة التي جذبه الحق تعالى عليها، فإن جذبه في حال قبض فعمره كله قبض، وإن جذبه في حال بسط فعمره كله بسط، وضحك أو تبسم بحسب التجليات، وإن جذبه في حال كلام دنيوي، فكذلك أو أخروي فكذلك، حتى أني رأيت بعض القضاة جذب فكنت لا أزال أراه إلا ويقول: لا حقاً ولا استحقاقً ولا دعوى ولا طلباً وقع بينهما الإيجاب والقبول إلخ، ورأيت بعض النحاة جذب فكنت لا أزال أراه إلا ويقول: باب النعت النعت تابع للمنعوت في نصبه وخفضه إلخ، فتأمل اهـ.

والشيخ الشاذلي المصنف نفعنا الله تعالى به ممن يشهد وحدة الأفعال فانطوى انبساطه في شهود تجلي اسمه الباسط فاتسعت همته بحسب اتساع الحقيقة، وشهود جمال الحق تعالى، وكان المصنف رجع من شهود الجمال الموجب للدلال إلى شهود الجلال الموجب للذل والانكسار، فإن للحق تعالى صولة وبطشاً، فقال ما قاله أبو البشر عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعرَاف: ٢٣] بفعل المعاصي (وإن لم تغفر لنا وترحمنا) بالهداية (لنكونن من الخاسرين) ويكرر التالي للحزب هذه الآية في بعض الروايات ثلاث مرات، قيل: أوحى الله إلى آدم أورثت ذريتك التعب وورثتهم التوبة، فمن دعاني منهم بدعوتك لبيتهُ يا آدم أنا أحشر التائبين من القبور مستبشرين الخير لما

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ [الرُّوم: ٢٧] حديث رقم (٣٠٢١) [ج٣ ص١١٦٦]، وابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر الدال. . ، حديث رقم (٢٦٧) [ج١ ص٥٠٠] ورواه غيرهما.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

مننتَ عليهم من الفضل، وفي الحديث: «رُبَّ ذنب أدخل صاحبه الجنة»[١] وقال أبو مدين: «انكسار العاصي خير من صولة المطيع» وفي الحديث: «**خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير، حسن الظن بالله تعالى، وحسن الظن بعباد الله تعالى وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر سوء الظن بالله تعالى وسوء الظن بعباد الله تعالى**»[٢].

فالمطلوب من العبد الندم والخوف الموجب للانزعاج لا اليأس والقنوط، فإن من عرف ربه استصغر ذنبه، كما قيل:

قل للذي ألف الذنوب وأجرما ... وغدا على زلاته متندما
لا تيأسن من الجميل فعندنا ... فضل يعم التائبين تكرما

(يا الله يا الله يا الله) يكررها ثلاث مرات بعد اعترافه بذنبه، فكأن حال التالي يقول: يا منفرداً بوجود الوجود، وموصوفاً بنعوت الربوبية، وجامعاً لصفات الألوهية ويكررها بقصد هذه المعاني ليكون مقتضياً للقبول (يا رحمٰن) يا ذا الرحمة المطلقة (يا قيوم) هو القائم بنفسه المحتاج إليه غيره، ومعناه في اللغة المدبر لخلقه كما قيل:

يا حي يا قيوم أنت إلٰهنا ... أنت الذي قامت به الأشياء
أنت الذي قمنا به فقيامنا ... أبداً لك التدبير، والآلاء
يا من هو القيوم دبّر أمرنا ... وأهدي فلا تهوي بنا الأهواء
ها نحن نشهد أنك الله الذي ... من فضله إنا له شهداء
فلك المحامد ربنا ولك الغنى ... عنا ونحن عبيدك الفقراء

فالقيومية وصف له تعالى باعتبار وجود الأشياء وحفظها مع غناه عنها (يا من) أي أدعو الذي (هو) مبتدأ، (هو) خبره، (هو) تأكيد والجملة صلة الموصول، أي: يا من لا يتبدل ولا يتغير له حال ولا وجود بل هو على ما كان عليه «كان الله ولا شيء معه» وهو الآن على ما عليه كان (يا هو) أدخل ياء النداء عليه، لأنه اسم مستقل بمعناه لا ضمير غيبة، كما هو موضوع في أصله بل نقل وسار العرف عندهم بإطلاقه على الله تعالى كإطلاق سائر المظاهر كما مر، (إن لم نكن لرحمتك أهلاً أن ننالها) معاشر العصاة من المؤمنين، لكوننا ليس لنا من طريق الحكم بالعدل سبب يوجب لنا بالوعد الحق رحمة لأنه لا ينالها إلا من كان رحيماً، ففي الحديث الصحيح «مَن لا

---

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) هذا الحديث لم أجده بهذا اللفظ إنما وجد معناه بألفاظ أخرى.

يَرحم لا يُرحم»[١] وفي الحديث **«الراحمون يرحمهم الرحمٰن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**[٢] (فرحمتك أهل أن تنالنا) فضلاً منك وإحساناً، لأن رحمتك واسعة، وغناك مطلق يسع فقرنا، وعلمك يسع جهلنا، وقد ادخر الله تسعاً وتسعين قسماً من الرحمة، وتكون في الآخرة للمؤمنين، ونحن من أهل الإيمان ولو تلبسنا بالعصيان فرحمته تعالى أهلٌ أن تنالنا على ما كان منا، ولما كان الشيخ المصنف على القدم المحمدي تأسى بحديث **«ما من صوت أحب إلى الله تعالى من صوت لهفان»** قالوا: يا رسول الله ما اللهفان؟ قال: **«عبد أصاب ذنباً، فكلما ذكر ذنبه امتلأ قلبه فرقاً»**[٣] أي خوفاً من الله تعالى. قال: يا رباه فلذا قال هنا: (يا رباه يا مولاه) هذا نداء الإشفاق وخوف من المنادي أن يعذبه بذنوبه، والألف فيهما بدل عن لام الاستغاثة، والهاء للسكت، والعرب إذا أرادوا أن ينادوا بتوجه وصلوه بمدة وهاء ليبرز التوجع في المدة فيقولون آمحمداه فتكون المدة للأسف والأنين وتحريك الهاء هنا لمناسبة قوله (يا مغيث من عصاه) والمغيث هو المنقذ من الشدائد بحسن الخلاص منها، وإغاثته تعالى عامة لا تختص بمؤمن طائع أو عاص بل تشمل الجميع، كما عوهد من سعة كرمه، فتكون بالمؤمن التقي أولى وأحق، (أغثنا) ثلاثاً أي: يكررها التالي ثلاثاً للتأكيد ولأن العارف لا يزال مضطراً لتحققه بفقره وفاقته،فلا يكون مع غير الله قراره، لاستيحاشه مما سواه فهو مستأنس بقربه منطلق لسانه بذكره (يا رب) الرواية هنا بضم الباء، فهو مفرد معرّف بالقصد والإقبال فيفيد الربوبية للمتكلم، وهو تعالى رب كل شيء (يا كريم) هو المتفضل بالإكرام قبل السؤال، (وارحمنا يا بر) يا عطوف على عباده بلطائف بره وإحسانه (يا رحيم) صيغة مبالغة حتى قيل إنه أبلغ من الرحمٰن وصيغ المبالغة في حقه تعالى بالنسبة إلى كثرة المتعلق وزيادة الفعل وتعدد المفعولات كما تقدم في البسملة، أول الكتاب والمعنى: يا رحيم، أي بما أوجبت على نفسك الرحمة للمتقين من عبادك، وذلك بالفضل

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب رحمة الولد وتقبيله..، حديث رقم (٥٦٥١) [ج٥ ص٢٢٣٥]، ومسلم في صحيحه، باب رحمته ﷺ الصبيان..، حديث رقم (٢٣١٨) [ج٤ ص١٨٠٨] ورواه غيرهما.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب البر والصلة، حديث رقم (٧٢٧٤) [ج٤ ص١٧٥]، وأبو داود في سننه، باب في الرحمة، حديث رقم (٤٩٤١) [ج٤ ص٢٨٥] ورواه غيرهما.

(٣) أورده الجرجاني في الكامل في ضعفاء الرجال [ج٧ ص١٠٢].

والمنّة فمظهره قبضة أهل السعادة في الدنيا والآخرة (يا من ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]) مرّ الكلام على ذلك (أسألك الإيمان) الكامل إيماناً ملتبساً (بحفظك) من الزيغ والزوال وهم الرزق كما أشار إليه بقوله (إيماناً يسكن به قلبي مِنْ هم الرزق، وخوف الخلق) إنما خصهما بالذكر وإن تقدم أنه قال: وهب لنا حقيقة الإيمان بك حتى لا نخاف غيرك إلخ، لكونهما أعظم ما يحجب عن الله تعالى، وقَدَّم الرزق، لكونه أشد الحجابين، لأن كثيراً من الناس قد يخلو من خوف الخلق، ولا يخلو من هم الرزق إلا القليل (وأقرب مني) بسكون القاف وضم الراء وفتحها بمعنى الدنو أي قرب كشف وعيان من غير كيف ولا أين (بقدرتك قرباً) بلا حلول واتحاد أي تجلياً خاصاً للإكرام والتشريف يقتضي دوام الشهود، ويحكم على القلب بدوام السجود والخضوع (تمحق) من المحق، وهو لغة المحو والإزالة وعند القوم أن يشغله الله تعالى به حتى يغيب عن نفسه بالكلية، فهو أتم من مقام السحق، لأنه يبقى معه بقية في النفس يتنعم بها فالمحق لا يبقي أثراً بل يزيل الأشياء بالكلية، ومطلب القوم أن يمحقهم الحق تعالى عن مشاهدتهم لأنفسهم (به) أي بالقرب (عني كل حجاب محقته) أزلته (عن إبراهيم خليلك، فلم يحتج) إبراهيم عليه السلام لما محقت عنه الحجاب وأدخلته ساحة الاقتراب (لجبريل) أبي الفتح، وهو عبد الله وجبريل اسم أعجمي، قال الشهاب سرياني، وقيل عبراني لا اشتقاق له من شيء على الصحيح، وهو أمين الوحي (ورسولك) الذي اخترته سفيراً بينك وبين أنبيائك بتبليغ رسالتك (ولا لسؤاله منك) جاء في بعض الأخبار أن جبريل استقبل إبراهيم وهو موثق في المنجنيق، ليلقى في النار، فقال له: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال له: سل ربك، فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي، كما تقدم، قال الأستاذ المرسي خليفة القطب المصنف، قدس الله سرهما في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النّجْم: ٣٧] أي بقوله حسبي من سؤالي علمه بحالي حيث صبر على حر النار، ولم يستعن بمخلوق بل اكتفى بعلم الله تعالى به، فلذا سلم من النمرود اهـ.

فأفاد الشيخ المصنف أنَّ محق الحجاب وحصول القرب هو الداعي للخليل للاستغناء عن غيره تعالى وعن سؤاله من الله فلذا قال: (حجبته بذلك) المحق الموجب للشهود (عن نار عدوه) النمرود بن كنعان (وكيف لا يحجب) إبراهيم وغيره ممن تلاشت في عينه الأسباب، (عن مضرة) أذية (الأعداء) جمع عدو، وهو: الذي

يفرح لحزنك، ويحزن لفرحك بخلاف الصديق، وشمل الأعداء المعنوية كالمال والهوى والدنيا والشيطان والنفس، وغير ذلك من الجن الذين لولا الملائكة وحمايتهم لاختطفت الموحدين.

مسألة: قال الشعراني في «اليواقيت»: فإن قلت فهل من الجن من يقسم الإنسان عليه بأسماء الله تعالى فلا يبر قسمنا، أم كلهم يبرون قسم من أقسم عليهم؟ فالجواب: كلهم يبرون قسم من أقسم عليهم لا يقدرون على رد أنفسهم عن ذلك خلاف الإنس، قال الشيخ أبو طاهر ويقال: إن الجن لا يجيبون إلا بالعزائم، وإنها إذا قرئت على المصاب كان له شعاع كشعاع الشمس يقع على الجن فيحضرهم، ويردهم إلى الطاعة طوعاً بحيث لا يمكنهم العصيان، ولقد كانوا مسخرين لسليمان عليه السلام، كما سخرت له الريح، وهم أجساد لطاف كالريح يدخلون أجواف بني آدم دخول النار في الفضة المذابة فتراها تضطرب في البوطة، وكذلك المصاب يضطرب عند قراءة العزائم عليه اهـ.

فإن قلت فما صورة تناكح الجن؟ فالجواب: كما قاله سيدي محيي الدين: إن صورة تناكحهم التواء مثل ما يبصر الدخان الخارج من الألوان، أو من قرن الفخار، عند حرقه، يدخل بعضه في بعض فيلتذ كل واحد من الشخصين بذلك الداخل، ويكون حملهم من ذلك كلقاح النخل بمجرد الرائحة اهـ.

وكلها حجب عن الله تعالى: قال تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٧﴾ [الشُعَرَاء: ٧٧] (من غيبته عن منفعة الأحياء) أي: الاستناد إليهم والاعتماد عليهم (كلا) بمعنى حقاً، ويكون الكلام راجعاً لما قرره من قصة الخليل عليه السلام (أني أسألك أن تغيبني بقربك مني) حتى أستغرق في الشهود وأترقى إلى أعلى المقامات بالصعود (حتى لا أرى) شيئاً من الظلمات والأنوار (ولا أحس بقرب شيء) من الأغيار (ولا ببعده عني) في كل الأطوار، ولما كان جميع ما طلبه الشيخ المصنف من متعلقات القدرة الأزلية، قال: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمرَان: ٢٦] أي: قادر القدرة، ومن ذلك إعطاء المراتب العالية والعفو عن كل خطيئة دينية، ثم إن الشيخ المصنف ختم حزبه بآيات تدل على الحث على ترك الغفلة عن الله تعالى، وعن الاجتهاد في الطاعة مع الإخلاص وتجريد القلب للتوحيد، وعلى التذكر والتفكر، لأن أشرف المجالس، وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، وفي الحديث الشريف «**تفكر ساعة خير من عبادة سنة**»، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ [المؤمنون: ١١٥] ظننتم ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أوجدناكم ﴿عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] لعباً من غير حكمة، بل خلقناكم لحكمة، وهي الطاعة والتكليف

ليتميز المحسن من المسيء، فالخالق لم يهملكم في الدنيا بل جعلها لكم دار عمل، كما جعل الآخرة دار جزاء (و) حسبتم ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] في الآخرة للجزاء، ففي الآية الحث على اليقظة والقيام بالتكاليف والاشتغال بالفكر مع الخوف للغافل والرجاء للمستيقظ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ [المؤمنون: ١١٦] تقدس عن كل نقص ومنه العبث ﴿الْمَلِكُ﴾ [المؤمنون: ١١٦] المحيط بأهل مملكته علماً وقدرة وحفظاً وتصرفاً ﴿الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٦] الثابت الدائم ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المؤمنون: ١١٦] فلا يوجد له نظير لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وهو ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] ثم نصَّ على أن كل من ادعى الألوهية لغيره تعالى فهو مبطل وجزاؤه جهنم خالداً فيها، بقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ﴾ [المؤمنون: ١١٧] يزعم ويعبد ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] سواء كان سماوياً أو أرضياً حيواناً أو جماداً ﴿لَا بُرْهَانَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] دليل ﴿لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧] صفة كاشفة لا مفهوم لها، ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ﴾ [المؤمنون: ١١٧] جزاؤه الذي يليق به كائن ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧] الذي خلقه ورباه ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] أي لا يسعدون لكونهم حقت شقاوتهم بإخراج أرواحهم على الكفر، ولما بيّن الله أحوال الكفار في جهلهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة، أمر الله نبيه ﷺ بالانقطاع إليه والالتجاء إلى غفرانه ورحمته بقوله تعالى: ﴿وَقُل﴾ [المؤمنون: ١١٨] يا أفضل الخلق ﴿رَّبِّ﴾ [المؤمنون: ١١٨] أي: أيها المحسن إليَّ أحسن تربيتي، فإن قلت: أكثر الأنبياء في دعائهم يذكرون اسم الرب دون غيره من الأسماء مع أن اسم الله تعالى أعظم فلمَ خصُّوا اسم الرب في الدعاء، أجيب بأن العبد كأنه يقول: إني كنت في العدم المحض فأخرجتني إلى الوجود برحمتك وفضلك وربيتني، فاجعل تربيتك وإحسانك سبباً لإجابة دعائي، حتى قيل: إنَّ «رب» في الدعاء هو الاسم الأعظم ﴿اغْفِرْ﴾ [المؤمنون: ١١٨] استر عيوبنا، ولا تظهر إلا الجميل، ﴿وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، أي أفضل راحم وخير من عظمت رحمة، ولما افتتح الشيخ المصنف حزبه بآيات التوحيد ختمه كذلك تنبيهاً على أن التوحيد هو مبدأ الأمر ومنتهاه، قال: ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ [غافر: ٦٥] الذي لا يجوز عليه موت وبه حياة كل شيء، المنفرد بالحياة المطلقة الذاتية، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ﴾ [غافر: ٦٥] أي: اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥] أي الطاعة من الرياء والشرك الجلي والخفي والإخلاص روح الأعمال، ولا عبرة بصورة لا روح فيها، كما أنه لا قيام لروح دون صورتها والحاصل إن النية الحسنة روح العمل كما قاله الشيخ الصاوي في حاشيته على شرح شيخه الدردير الصغير إذصور الأعمال كالأجساد، والنية الحسنة روحها كما أن الجسم، لا قوام له بدون روح كذلك لا قيام لصور الأعمال الصالحة بدون حسن

النية، والدليل على ذلك قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»[1] وهذه الجملة الأخيرة كالدليل لما قبلها، ثم قال الشيخ الصاوي المذكور: ولربما قلبت المعصية طاعة، ورُبَّ هنا للتكثير، أو للتحقيق، وذلك كالكذب، فإنه معصية وتقلبه النية الحسنة طاعة، فتارة يكون واجباً كما في الكذب للتخليص من المهالك، وتارة يكون مندوباً كما في الكذب للإصلاح بين المتشاحنين، وهذا قلب لحقيقتها حال وقوعها وتارة يكون قلبها بعد وقوعها بوصف العصيان، كما إذا أورثته أحزاناً وإقبالاً وندماً وأسفاً وهو معنى قول صاحب الحكم: رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

فإن قلت: ما صورة تبديل السيئات بالحسنات، هل تغير نفس المعصية التي وقعت حسنة في صحيفة العبد، أو يصير العبد يطيع الله تعالى بعد أن كان يعصيه؟ فالجواب كما قاله القطب الشعراني في «اليواقيت» نقلاً عن أهل الكشف الصحيح: أن صورة التبديل أن يبدل اسم السيئة في الصحيفة، ويكتب مكانها حسنة تشاكلها، فإن كانت المعصية كبيرة كتبت مكانها حسنة كبيرة، أو كانت صغيرة كتبت مكانها حسنة صغيرة، وهذا الأمر من أعظم عنايات الله تعالى بالعبد إن صح، لأنه يعطي النفس حظها في الشهوات الدنيوية، ثم يكتب له في صحيفته أعمالاً صالحة لم يعمل عينها بالفضل والمنّة، فعلم أن الله تعالى إذا بدّل سيئات العارف حسنات رأى ذلك من أكبر النعم عليه اهـ.

ولنرجع لما نحن فيه فنقول: قال العلامة الصاوي المذكور: ويحتمل أن مراد الشيخ وقوع المعاصي من أهل الحقيقة الذين يطالعون الغيب فيشاهدون الأمر مبرماً بالمعصية فيقدمون عليه امتثالاً للمبرم لاستحالة تخلفه، فقدومهم على المعصية بالإكراه كالساقط من شاهق، ففي الصورة يرى مختاراً وهو يشاهد سلب الاختيار عن نفسه وهذا المعنى قد شرحه العارف الجيلي بقوله:

ولي نُكْتَةٌ غَرّا هُنا سأقُولُها	وَحُقَّ لها أن ترعَويها المَسامِعُ
هي الفرقُ ما بين الوليّ وفاسقٍ	تَنَبَّه لها فالأمرُ فيه بدائعُ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. . ، حديث رقم (١) [ج١ ص٣]، وابن حبان في صحيحه، باب الإخلاص وأعمال السر، حديث رقم (٣٨٨) [ج٢ ص١١٣]، وأبو داود في سننه، باب فيما عني به الطلاق والنيات، حديث رقم (٢٢٠١) [ج٢ ص٢٦٢] ورواه غيرهم.

وما هو إلا أنَّهُ قبلَ وَقعِهِ ... يُخَبِّر قلبي بالذي هُوَ واقِعُ
فأجني الذي يقضيه فِيَّ مُرادُها ... وعَيني لها قبلَ الفِعَال تُطَالِعُ
وكُنتُ أرَى مِنها الإرادةَ قبلَ ما ... أرى الفعلَ مِنّي والأسيرُ مُطاوعُ
إذا كنتُ في أمرِ الشريعةِ عاصياً ... فإنّي في حُكمِ الحقيقةِ طائعُ

وعلى هذا المعنى تحمل الوقائع الخضرية ووقائع أخوة يوسف معه، وأكل آدم من الشجرة، فتأمل إن كنت من أهل النور، وإلا فسلم لأهله مقالهم، كما قال الشاعر:

وإذا لم ترَ الهلال فسلّم ... لأُناس رأوه بالأعيان

اهـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الفَاتِحَة: ٢] قال ابن عطية جملة متصلة بما قبلها مقولة لقول محذوف تقديره: ادعوه قائلين ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الفَاتِحَة: ٢]، ويدل له ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من قال لا إله إلا الله، فليقل ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الفَاتِحَة: ٢]. والحمد عرفاً فعل ينبيء عن تعظيم المنعم، ولغة الثناء باللسان على الجميل الاختياري على جهة التعظيم والعالم اسم لما خلقه الله في الدنيا والآخرة عند الزجاج، وقيل: الدنيا وما فيها، وقيل: للعقلاء، وقيل: كل جنس ونوع عالم، فإذا جمعت الكل قلت عالمين، فإذا قلت رب العالمين فقد أتيت بكل موجود أبدعه الله تعالى من ذروة العرش إلى منتهى الثرى وعوالمه تعالى لا تحصى، وفي الحديث: «**من قال الحمد لله رب العالمين كتب له ثلاثون حسنة**» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [الأحزَاب: ٥٦] يصلي على نبيه صلاة الجود الذاتي ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ﴾ [الأحزَاب: ٥٦] صلاة الكرم الأسمائي والصفاتي، قال بعضهم: وإنما قرر هذا التقرير لعلة منع التشريك للأعلى والأدنى في ضمير واحد، فصلاة الله على نبيه هنا ثناؤه وتعظيمه وصلاة الملائكة طلب ذلك له من الله تعالى، أي: الزيادة له ﷺ ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزَاب: ٥٦] سيدنا محمد ﷺ، فأل للعهد الذهني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأحزَاب: ٥٦] أراد بهم: جميع المكلفين الداخلين في ملته ﷺ ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزَاب: ٥٦] في هذا الأمر تشريف للمؤمنين حيث أخبر أنه تعالى يصلي عليه هو وملائكته، ثم أمرهم بالمشاركة في ذلك فصلاة الملائكة عليه دليل على احترامه ﷺ في الملأ الأعلى، وأمرنا بالصلاة عليه دليل على احترامه في الملأ الأدنى، ولما كان المؤمنون ينازعون بنفوسهم أمر ربهم لغفلتهم وجهلهم، أمرهم الله بعد ذلك بقوله ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزَاب: ٥٦] بتأكيد الفعل بالمصدر لتبقى

صلواتهم مثل صلاة الملائكة بأمر الله تعالى القديم لا بدعوى نفوسهم فتكون هي صلاة الله الأمرية الروحانية أيضاً، فالتسليم بمعنى المسالمة والانقياد ويحتمل أنه من السلام مصدر بمعنى: السلامة، وهي التعري عن الآفات الظاهرة والباطنة. ومن الأول، أي: الظاهرة قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البَقَرَة: ٧١] ومن الثاني أي: الباطنة قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٩] وسميت الجنة دار السلام لسلامتها من الآفات، وسمّى الله تعالى نفسه السلام لتنزهه عن النقائص، أو بمعنى الثناء الحسن، كما في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الصَّافات: ١٣٠] ومنه تحية أهل الجنة، قال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يُونس: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرَّعد: ٢٣]﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ [الرَّعد: ٢٤] أي: قائلين ذلك، وقد ورد أنه تعالى سلّم على نبيه ليلة المعراج، وقيل: إن السلام بمعنى الصلاة، والذي استقر عليه الأمر: أن الأمر هنا للوجوب، وقد أجمعوا عليه ولو في العمر مرة، ثم اختلفوا في التعيين، فقيل كلما ذكر، وقيل في كل صلاة من غير تعيين المحل، وقيل في التشهد، وقيل في الجلوس الأخير قبل السلام، وما زاد على الواجب فهو متأكد الاستحباب، فينبغي الإكثار من غير حصر لعظم فضلها وكثرة نفعها للمصلي.

ثم اعلم أن الإجماع منعقد على أن في هذه الآية من تعظيم النبي ﷺ والتنويه بقدره الشريف، ما ليس في غيرها، قال الحافظ السخاوي: هذه الآية مدنية، وإن الأمر بالصلاة على النبي ﷺ كان في السنة الثانية من الهجرة، وقيل في ليلة الإسراء، وأنّ المقصود منها أن الله تعالى أخبر عباده بمنزلة نبيه ﷺ عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأنّ الملائكة يصلون عليه، ثم أمر أهل العالم السفلي بالصلاة عليه والتسليم كما تقدم ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي، وقال أبو عثمان الواعظ: سمعت الإمام أبا سهل بن محمد بن سليمان يقول: هذا التشريف الذي شرّف الله تعالى به نبيه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ﴾ [الأحزَاب: ٥٦] الآية، أتم وأجمع من تشريف آدم عليه السلام بأمر الملائكة بالسجود له، لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة بذلك التشريف بخلافه هنا. قال: وأخبر الله تعالى عن نفسه بالصلاة على النبي، ثم عن الملائكة بالصلاة عليه فالتشريف الصادر منه تعالى أبلغ من تشريف تختص به الملائكة من غير أن يكون الله تعالى معهم في ذلك، فينبغي الإكثار من الصلاة عليه، لقوله ﷺ: «تخلّقوا بأخلاق

الله تعالى»[١]، وقد أمر نبيه موسى أن يصلي على محمد ﷺ وكفى بهذا شرفاً، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أوحى الله إلى موسى عليه السلام أني قد جعلت فيك عشرة آلاف سمع حتى سمعت كلامي، وعشرة آلاف لسان حتى أجبتني، وأحبُّ ما تكون إلي وأقربُه إذا أكثرت الصلاة على محمد ﷺ، أخرجه القشيري في رسالته وليست الصلاة شفاعة منا له، فإن مثلنا لا يشفع في مثله ﷺ، ولكن الله أمرنا بالمكافأة لمن أحسن إلينا وأنعم علينا، فإن عجزنا عنها كافأناه بالدعاء، فأرشدنا الله تعالى لما علم عجزنا عن مكافأته ﷺ إلى الصلاة عليه لتكون صلاتنا عليه مكافأة بإحسانه إلينا إذ لا إحسان على الإطلاق أفضل من إحسانه ﷺ.

ثم إن المصنف ختم حزبه بما ختم الله به سورة الصافات مما يدل على براءته تعالى عن قول المبطلين فقال: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ [الصَّافات: ١٨٠] اسم بمعنى التسبيح، وهو التنزيه، ﴿رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [الصَّافات: ١٨٠] هي الصفات الجامعة للوحدانية، والمعنى أعتقد تنزيه الله تعالى ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصَّافات: ١٨٠] أي عن الأوصاف التي يصفونه بها الكفار ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ [الصَّافات: ١٨١] من الله تعالى عظيم لا يمكن أن يعبر عنه ﴿عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصَّافات: ١٨١] أي المبلغين عن الله تعالى التوحيد والشرائع، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصَّافات: ١٨٢] على هلاك الأعداء، وخذلانهم ونصرة الأنبياء، وأمانهم.

وهذا آخر الحزب على ما عليه الشرّاح، ومقتضى رواية أحمد بن عباد في كتابه المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، إن فيه زيادة ذكرها بين آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآية، وبين ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [الصَّافات: ١٨٠] وهي: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وارحم محمداً وآل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ثلاثاً، أي: يكررها ثلاث مرات، اللهم وارضَ عن ساداتنا الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعلى سيدنا الحسن والحسين وأمهما فاطمة الزهراء وعن الصحابة أجمعين، وعن أزواج نبيك أمهات المؤمنين، وعن التابعين وتابع التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ﴿سُبْحَٰنَ﴾ [الصَّافات: ١٨٠] الآية، والشيخ ابن عباد حُجة، قال شيخنا الأستاذ البهي رحمه الله تعالى: سمعت شيخنا الأستاذ الواصل السيدي الشيخ عبد الرحمٰن الغِريتي الشاذلي يقول: رأيت في المنام صاحب الحزب يقول لي: صلِّ على النبي ﷺ بعد

---

(١) أورده المناوي في التعاريف [ج١ ص٥٦٤].

ختم الحزب ثلاث مرات، فلذلك كان أستاذنا السيد مجاهد يكرر الإبراهيمية ثلاث مرات، فعلى هذه الزيادة أنوار لائحة، وحيث كان لنا انتساب بهؤلاء الأعيان فلا بأس بشرح هذه الزيادة على سبيل الإيجاز فنقول: (اللهم) أي: يا الله، وهو يدل على الذات والصفات (صل) أي: زد من الإنعام والتشريف والإكرام زيادة مقرونة بالتعظيم والاحترام، على (سيدنا محمد) سماه بهذا الاسم جده عبد المطلب سابع ولادته، سماه الله قبل أن يخلق آدم عليه السلام بألفي عام، وله أسماء كثيرة حتى نقل ابن الهائم عن أبي بكر التونسي أنها ألفان وعشرون اسماً، وربما اختير هذا الاسم لأنه كما قيل ألذها في الأسماع وأشوقها إلى الصلاة على الحبيب المطاع، وخصت به كلمة التوحيد (وصلّ على آل محمد) هذا دليل على جواز الصلاة على غير الأنبياء تبعاً وأتى بعلى رداً على الشيعة في منعهم الإتيان بعلى بين محمد وآله في الصلاة ويروون في ذلك حديثاً باطلاً والآل هنا كل مؤمن وهو اللائق بمقام الشيخ المصنف، (وارحم محمداً وآل محمدٍ) دلت هذه الرواية على جواز الدعاء للنبي ﷺ بالرحمة تبعاً للصلاة والمعتمد جوازه تبعاً على وجه الإطناب والحكاية ولا يجوز استقلالاً، لأنه ممنوع وحرام لإيهامه النقص والقصور، ولأنه ﷺ قال: «من صلّى عليّ»[1] ولم يقل من ترحم عليّ أو دعا لي بالرحمة فلا يقال، قال النبي رحمه الله تعالى، لأنه خلاف الأدب، وخلاف المأمور به عند ذكره من الصلاة عليه ولا ورد ما يدل عليه فقوله: وارحم محمداً، أي: الرحمة اللائقة به ﷺ فإن أنواع الرحمة لا تنحصر فعلم من ذلك أنّ الدعاء للنبي ﷺ بالرحمة استقلالاً حرام كما علمت، والمعتمد كما ذكره العلامة الشبراملسي: أنها مكروهة كراهة تنزيه، وإنما دعا له بالرحمة مع أنه عينها بنص ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] لأن كونه رحمة لهم من جملة رحمته له ﷺ ولله عليه رحمات أخر تطلب له بالدعاء بالرحمة. قاله ابن حجر اهـ.

(وبارك على محمد وعلى آل محمد) أي: أفض بركات الدنيا والدين أو أدم ما أعطيته من التشريف والتكريم له ﷺ، (كما صليت) الكاف للتشبيه. قال الفاسي رحمه الله تعالى: فإن قلت: إن العلماء أجمعت قديماً وحديثاً على أن المشبه بالشيء يكون مثله، وقد يكون أدنى، وأما أعلى فلا يكون ومن المعلوم المقرر الثابت أن نبينا ﷺ أفضل من سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أجيب بأن تشبيه الشيء قد يكون في

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب استحباب القول مثل..، حديث رقم (٣٨٤) [ج١ ص٢٨٨]، وابن خزيمة في صحيحه، باب فضل الصلاة على النبي ﷺ..، حديث رقم (٤١٨) [ج١ ص٢١٨]، وابن حبان في صحيحه، باب ذكر حط الخطايا عن المصلي على المصطفى..، حديث رقم (٩٠٤) [ج٣ ص١٨٥] ورواه غيرهم.

قدره أو نوعه، وهو المراد هنا، فلما تقدم وجود الخليل في هذه الدار، واتصل به حكم الصلاة بقول الملائكة في بيته ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هُود: ٧٣] وتأخر وجود الحبيب ﷺ وآله كان سؤال الصلاة له ولآله من نوع ما حصل لإبراهيم والقدر متفاوت، فهو كقوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [النِّساء: ١٦٣] فهو تشبيه راجع إلى مطلق الفعل من غير تعرض إلى قدر زائد من كم أو كيف. أو يقال إنَّ الوقف على محمد والتشبيه بين الآل وإبراهيم وآله فقوله: اللهم صل على محمد مقطوع في التشبيه، وقوله: وعلى آل محمد متصل بكما صليت. أو يقال: معنى كما صليت: أي سبقت منك الصلاة على إبراهيم وآله، فنسألك منك الصلاة على محمد وآله بطريق الأولى لأن الذي يثبت للفاضل يثبت للأفضل بالأولى، فهو تشبيه للوقوع الاستقبالي بالوقوع الماضي، فهذا باعتبار الوجود الجسماني وأما باعتبار الوجود الروحاني فوجود محمد ﷺ مقدّم على سائر الأنبياء والخلائق أجمعين، فإنه أول موجود أبرزه الحق تعالى والصلاة متصلة به حين الأولية. أو يقال: بمنع المقدمة أولى، وهي أن المشبه به يكون أرفع من المشبه بأن ذلك ليس مطرداً، بل قد يكون التشبيه بالمثل، بل بالدون، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النُّور: ٣٥] وأين نور المشكاة من نوره تعالى، ولكن لما كان المراد من المشبه به أن يكون شيئاً ظاهراً واضحاً للسامع حسُن تشبيه النور بالمشكاة أيضاً، وكذا هنا لما كان تعظيم إبراهيم وآل إبراهيم بالصلاة عليهم واضحاً مشهوراً عند جميع الطوائف حسن أن يطلب لمحمد وآل محمد بالصلاة عليهم مثل ما حصل لإبراهيم، وآل إبراهيم، ويؤيد ذلك ختم الطلب المذكور بقوله في العالمين أي: كما أظهرت الصلاة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين فالتشبيه المذكور ليس من باب إلحاق الناقص بالكامل، لكن من إلحاق ما لم يشتهر بما اشتهر اهـ.

وسر التشبيه بإبراهيم كما قاله أبو محمد المرجاني رحمه الله تعالى دون سيدنا موسى عليه السلام: لأنه كان التجلي له بالجلال والعظمة فخرّ موسى صعقاً، والخليل كان التجلي له بالجمال لأن الخلة والمحبة من آثار التجلي الجمالي، فأمرهم ﷺ أن يصلُّوا عليه كما صلّى على إبراهيم ليسألوا له التجلي بالجمال لا التسوية فيه، فيتجلى لكلٍ بحسب مقامه ورتبته. أو يقال: إنما خصه بالتشبيه دون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأنه الأقرب إلى سيدنا محمد ﷺ من غيره لأبوته له، وأرفع شأناً من غيره بعد سيدنا محمد ﷺ، ولأنه أمر نبينا بالاقتداء به ولإجابة دعائه بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٤]. وروي عنه أنه قال: «اللهم أجرِ ذكري على لسان أمة محمد ﷺ فاستجاب الله دعاءه وسماه في الصلاة مع النبي ﷺ (و) كما

(رحمت) بكسر الحاء وتخفيفها كما قاله الرافعي وأيده صاحب القاموس (و) كما (باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم) هو إسماعيل وإسحاق، ومن كان تابعاً له ﷺ في العمل الصالح (في العالمين) يحتمل رجوعه لصليت ورحمت وباركت وحذف نظيره من فعل الدعاء له لدلالة هذا عليه، والمعنى اجعل الصلاة منتشرة عليه في جميع الخلق كما جعلتها فيهم على إبراهيم (إنك حميد) فعيل: بمعنى مفعول، لأنه حمد نفسه وحمده عباده، أو بمعنى فاعل: لأنه الحامد لنفسه، ولأعمال الطاعات من عباده (مجيد) من المجد، وهو الشرف والرفعة، والمعنى أنك أهل الحمد والفعل الجميل والكرم والشرف والإفضال، فاعطنا ما طلبناه منك ولا تخيب رجاءنا، وهذه الصيغة تكرر ثلاث مرات على رواية الشيخ مجاهد النوساني الأحمدي الشاذلي دفن بالجامع الأحمدي المذكور وقد كان بعض الصلحاء الصادقين في عصر السيد مجاهد رأى في منامه القطب الشيخ الشاذلي بمقام القطب البدوي، وقال: جئت هنا لأصحح للشيخ مجاهد أحزابي وسمعه وقرأ الحزب كما هو يقرؤه أصحابه الآن من غير زيادة ولا نقصان، ثم يقول: (اللهم وارض) أي أعط من سيذكر من الإثابة، والإكرام، والإقبال ما ترضيهم وتبلغهم الآمال والرضى أعم من العفو عن (سادتنا) أي رؤسائنا المتقدمين علينا (الخلفاء) جمع خليفة، وهو كل من قام مقام غيره، وإنما أطلق عليهم خلفاء لكونهم خلفوا رسول الله ﷺ في الأحكام (الراشدين) جمع راشد، وهو من عرف الحق واتبعه (أبي بكر) واسمه عبد الله وهو أول من أسلم من الرجال وفضائله كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى (الصديق) لقبه، وسمي ذلك لمبادرته لتصديق النبي ﷺ ولزوم الصدق ولما قبض رضي الله تعالى عنه وحملوه على السرير واستأذنوا، قال علي كرّم الله وجهه: يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن، فرأيت الباب قد فتح وسمعت قائلاً يقول: أدخلواالحبيب على حبيبه، فإن الحبيب إلى حبيبه مشتاق، (وعمر) أبو حفص الملقب بالفاروق ممنوع من الصرف للعلمية والعدل، وهو أول من جهر بالإسلام واستبشر بإسلامه أهل السماء حجّ سنة ثلاث وعشرين، فلما نفر عن منى أناخ راحلته الأبطح، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم اقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط، فلما انسلخ ذو الحجة قتل شهيداً عن ثلاث وستين سنة على الأصح طعنه أبو لؤلؤة المجوسي عبد المغيرة بن شعبة في المسجد وهو يصلي الصبح بغلس بخنجر له رأسان مسمومان وطعن معه اثنتي عشر رجلاً ثم طعن اللعين نفسه، ومن تمام سعادته دفنه في الحجرة مع رسول الله ﷺ، فإنه أرسل ولده بعد أن طعن يستأذن عائشة رضي الله تعالى عنها في ذلك، فقالت: كنت أعددت هذا المكان لنفسي

ولأوثرنه به فاشتد فرحه بذلك ومناقبه لا تحصى منها ما روي أن جبريل عليه السلام كان جالساً عند رسول الله ﷺ فأقبل عمر، فقال جبريل: يا محمد هذا عمر بن الخطاب قد أقبل، فقال: يا جبريل أتعرفون عمر في السماء، قال: والذي بعثك بالحق نبياً أن عمر في السماء أعرف منه في الأرض، فقال: يا جبريل أخبرني بفضائل عمر، فقال: يا محمد لو مكثت عندك مثل ما مكثت نوح في أمته. وفي رواية في قومه ما نفدت فضائل عمر»[١] رضي الله تعالى عنه، وعن جميع الصحابة والتابعين أجمعين (و) عن عثمان بن عفان الملقب بذي النورين أعتق ألفين وأربعمائة رقبة، ومات رضي الله تعالى عنه مقتولاً في أيام التشريق سنة خمس وثلاثين وهو ابن ثمان وثمانين سنة، وقيل تسعين (و) عن (علي) بن أبي طالب باب مدينة العلم والمواهب إمام المتقين، أسلم وهو ابن سبع سنين، ولم يسجد لصنم قط حتى كان يمنع أمه من السجود وهو في بطنها توفي شهيداً، وهو ابن ثلاث وستين سنة، قتله أشقى الآخرين عبد الرحمٰن بن ملجم بسيف مسموم ضربه في جبهته فأوصله إلى دماغه ليلة الجمعة سابع عشر رمضان سنة أربعين وهو خارج إلى صلاة الصبح يصلي بالمسلمين (وارض اللهم عن سيدنا الحسن) سبط رسول الله ﷺ، السيد المجيد والحبيب المقرب ولد في نصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وسماه جده الحسن، ولم يكن هذا الاسم يعرف قبل ذلك، وكان أشبه الناس بجده في نصفه الأعلى والحسين في نصفه الأسفل وحمله ﷺ على عاتقه، وقال: **«اللهم إني أحبه»** وقال: **«إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**[٢] وأجلسه هو والحسين رضي الله تعالى عنهما ونفعنا بهما آمين يوماً على وركيه، وقال: **«هذان ابناي وابنا ابنتي: اللهم إني أحبهما فأحبهما»**[٣] بويع له بالخلافة بعد انتقال أبيه رضي الله تعالى عنهما فأقام بها ستة أشهر وأياماً ثم نزل عنها لمعاوية حقناً لدماء المسلمين لا من قلة ولا ذلة،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (١٥٧٠)، وأبو يعلى في مسنده، مسند عمار بن ياسر، حديث رقم (١٦٠٣) [ج٣ ص١٧٩].

(٢) رواه مسلم في صحيحه، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي..، حديث رقم (٢٥٥٧) [ج٢ ص٩٦٢]، وابن حبان في صحيحه، ذكر قول المصطفى ﷺ للحسن بن علي..، حديث رقم (٦٩٦٤) [ج١٥ ص٤١٨]، والحاكم في المستدرك، ومن فضائل الحسن بن علي..، حديث رقم (٤٨٠٩) [ج٣ ص١٩١] ورواه غيرهم.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر دعاء المصطفى ﷺ للحسين بن علي بالمحبة، حديث رقم (٦٩٦٧) [ج١٥ ص٤٢٢]، والترمذي في جامعه الصحيح، باب مناقب الحسن والحسين، حديث رقم (٣٧٦٩) [ج٥ ص٦٥٦] ورواه غيرهما.

ومات رضي الله تعالى عنه بالمدينة مسموماً سنة تسع وأربعين وقيل خمسين وقيل إحدى وخمسين ودفن بالبقيع عند أمه فاطمة رضي الله تعالى عنهما وهو أول الأقطاب، و(عن سيدنا الحسين) سبط رسول الله ﷺ الذي قال فيه جده عليه الصلاة والسلام: «**حسين مني وأنا من حسين، اللهم أحب من أحب حسيناً حسين سبط من الأسباط**»[(١)] رواه الحاكم عن يعلى العامري وصححه، ولذا قال سيدي محيي الدين قدس سره:

جعلت ولائي آل أحمد قربة ... على رغم أهل البعد تورثني القربى

وما طلب المختار أجراً على الهدى ... بتبليغه إلا المودة في القربى

ولد سنة أربع أو ست أو سبع، وقيل: لم يكن بين الحمل بالحسين وولادة الحسن رضي الله تعالى عنهما إلا طهر واحد، وكان شجاعاً مقداماً صاحب همة غالبة من حين كان طفلاً واستشهد يوم عاشوراء يوم الجمعة سنة إحدى وستين واستشهد معه تسعة عشر من أولاده وأولاد أخيه وإخوته وأولاد عمه جعفر وعقيل وكسفت الشمس وقت موته، ورؤيت الكواكب وسط النهار واحمرت آفاق السماء ستة أشهر يرى فيها كالدم، ومكثت الدنيا سبعة أيام والشمس على الحيطان كالملاحف المصفرة واختلف في مدفن الرأس الشريفة والذي اعتمده أهل الظاهر وأهل الكشف الصحيح أنه بالقاهرة في المدفن المعروف الآن، وأنه خاطب أهل الكشف في الضريح المعروف، وأنَّ القطب يزوره كل يوم رضي الله تعالى عنه، وعن أولاد النبي وأصحابه أجمعين، (وعن أمهما فاطمة الزهراء) هي أفضل بناته ﷺ بل أفضل من نساء العالمين، وعليه الإمام مالك وغيره. وسماها الله فاطمة لأن الله فطمها ونجاها هي ومن أحبها من النار وعاشت على قول الأكثر تسعة وعشرين سنة ودفنت على الأصح في البقيع، في قبة ولدها الحسن، وسميت زهراء لأنها لم تحض لحديث وارد في ذلك، وهو قوله ﷺ: «**ابنتي فاطمة الزهراء حوراء آدمية لم تحض ولم تطمث**»[(٢)]، وقيل: لإشراق وجهها في الليلة المظلمة حتى قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كنت أسلك السلك في سم الخياط من نور وجه فاطمة رضي الله تعالى عنها وعن أولادها آمين، وتزوجها الإمام علي كرّم الله وجهه بوحي من الله تعالى ذلك وبنى بها بعد تزوجها بسبعة أشهر ونصف في ذي الحجة

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر إثبات محبة الله جلّ وعلا لمحبي الحسين بن علي، حديث رقم (٦٩٧١) [ج٥ ص٤٢٧]، والحاكم في المستدرك، أول فضائل أبي عبد الله الحسين...، حديث رقم (٤٨٢٠) [ج٣ ص١٩٤]، والترمذي في جامعه، باب مناقب الحسن والحسين عليهما السلام، حديث رقم (٣٧٧٥) [ج٥ ص٦٥٨] ورواه غيرهم.

(٢) رواه الصيداوي في معجم الشيوخ، حديث رقم (٣٤٤) [ج١ ص٣٥٩].

على اثنين وعشرين شهراً من الهجرة، (عن الصحابة أجمعين) أي من المهاجرين والأنصار والنساء والرجال والعبيد والأحرار، وكل من لقي النبي ﷺ بعد البعثة أو رآه النبي مؤمناً به، ومات على الإيمان (وعن أزواج نبيك أمهات المؤمنين) في التعظيم والاحترام والتحريم، وفيما عدا ذلك من الأحكام كالأجنبيات، يعني في وجوب حجبهن عن الرجال بل حكمهن فيه كما قاله البيضاوي: أشد من غيرهن، قال: وكذلك هن كالأجنبيات في غيره من الأحكام.

(وعن التابعين وتابعيهم بإحسان) جمع تابع، وهو: كما قاله الخطيب البغدادي لا يكفي فيه اجتماعه من غير إطالة الاجتماع بخلاف الصحابة، لأن الاجتماع به ﷺ يؤثر من النور القلبي أضعاف ما يؤثره الاجتماع الطويل بالصحابي وغيره من الأخيار فالأعرابي الجلف بمجرد ما يجتمع بالنبي ﷺ مؤمناً ينطق بالحكمة ببركته ﷺ، وقال الحاكم يكفي اجتماعه بالصحابة، وإن لم يطل الاجتماع، وصححه ابن الصلاح والنووي وغيرهما وعليه العلم (إلى يوم الدين) أي: قرب يوم الجزاء (ولا حول) أي: لا تحول عن معصية الله إلا بعصمته تعالى، (ولا قوة) أي: ولا ثبات ولا صبر على طاعة الله تعالى (إلا بالله) أي: بمعونته وتوفيقه تعالى (العلي) الرفيع الدرجات إلى غير نهاية (العظيم) أي: الجليل الكريم. وهذا بفضل الله آخر ما قصدناه، وبلطائف الإشارات والمعاني حملناه، وإني أستغفر الله تعالى من طريق لم أسلكه وتجارتي برأس مال لم أملكه، ولكنني أقول كما قيل:

وكم حادٍ وليس له بعير وكم راعٍ وليس له سوام
ومن يسقي وليس له شراب ومن يدعو وليس له طعام

وشأن المحبة أن تدعو إلى الانكباب، وانسحبت الرحمة على كلب أهل الكهف لما تبع الأنجاب فعسى بمدد أشياخنا السادات يحصل جمع الشمل والوصال، وإن تباين الحال وتباعدت الخصال وربى الكريم الوهاب لا يرد من طرق الباب، وشأن الكرام لا يمنعون الطفيلي عن موائدهم، ولا يحرمون من قصدهم عن مواهبهم، وإني أسأل الله الكريم المالك أن ينظمنا في هاتيك المسالك، وأن يلحقنا بأوليائه في مقامات قربه، وأن يتحفنا في الدنيا والآخرة، ويجعلنا من حزبه، وأن ييسر لنا كل أمر عسير كما يسر علينا إتمام هذا الشرح، وأن يمن علينا بصفات المعرفة، وأن يهب لنا صحيح المعاملة يوم القيامة، وأن تُختم لنا بالسعادة الأبدية الأزلية، ويمنحنا بالنظر إلى وجهه الكريم، ويحشرنا تحت لوائه العظيم، بحق وجاهة وجه النبي الكريم ﷺ وعلى آله وصحبه وذريته وأهل بيته وأحبابه وأخوانه من الأنبياء والمرسلين وسلم وشرف وعظم كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

فهرس المحتويات